مكتبة الرمحي أحمد الكتاب ٥١
@ktabpdf .. قناتنا على تيليجرام

ماري هيغينز كلارك

غريب بالمرصاد

مكتبة الرمحي أحمد الكتاب ٥١

نقله من الإنكليزيّة أدونيس سالم

@ktabpdf .. قناتنا على تيليجرام

نوفل

1

تسمّر الرجل في جلسته أمام جهاز التلفزيون في الغرفة 932 في فندق بيلتمور. لقد كان مستيقظًا تمامًا حين رنّ جرس المنبّه عند السادسة صباحًا، لأنّ قرع الهواء البارد والعاصف على ألواح النافذة الزجاجية طيّر من عينيه نومًا لم يكن بالهانئ أصلًا.

بدأ عرض برنامج «اليوم» لكنه لم يكلّف نفسه عناء رفع صوت التلفزيون الخافت. ما كان يبالي بالأخبار أو بالتقارير الخاصّة، بل أراد فقط مشاهدة المقابلة.

تزحزح في كرسيّه القاسي الظهر، وراح يعقد ساقًا فوق ساق ثم يباعد بينهما. لقد استحمّ وحلق ذقنه وارتدى بزّته الخضراء المصنوعة من البوليستر التي كان يلبسها حين دخل إلى الفندق في الليلة السابقة. حين أدرك أن اليوم قد حلّ ارتعشت يده فأصاب شفته بجرح أثناء الحلاقة. سال الدم قليلًا منها فأثار طعمه المالح في فمه رغبة في التقيؤ.

كان يكره الدم.

ليلة الأمس وأمام مكتب الاستقبال في ردهة الفندق شاهد نظرات موظف الاستقبال تنزلق على ثيابه متفحّصة. كان يحمل معطفه

تحت ذراعه لأنه يعرف أنه رثّ. لكنّ بزّته كانت جديدة فهو ادّخر مالًا لشرائها. وبرغم ذلك نظر إليه موظف الاستقبال باحتقار وسأله عمّا إذا كان قد حجز غرفة.

كانت تلك المرّة الأولى في حياته التي يدخل فيها فندقًا حقيقيًا لكنه كان يعرف كيف يتصرّف. أجاب ببرودة بالغة: «نعم، حجزتُ غرفة.» دامت الحيرة على وجه موظف الاستقبال لنحو دقيقة، غير أنه استعاد نظرته الهازئة حين عرض عليه الرجل أن يدفع مسبقًا بدل إيجار الغرفة نقدًا. وقال للموظف: «سأغادر الفندق صباح الأربعاء.»

كان بدل إيجار الغرفة لثلاث ليالٍ يبلغ مئة وأربعين دولارًا، ما يعني أنه لن يبقى معه سوى ثلاثين دولارًا. لكنه كان مبلغًا كافيًا للأيام القليلة المقبلة، كما أن اثنين وثمانين ألف دولار تنتظره بحلول يوم الأربعاء.

مرّ وجهها في ذهنه، فرمش بعينيه ليبعد عنه تلك الصورة. لأنّ العينين لا تلبثان أن تلياها. عينان شبيهتان بمصباحين كبيرين تتبعانه، تراقبانه دائمًا، ولا تغمضان أبدًا.

تمنّى لو أنّه شرب فنجان قهوة آخر. كان قد طلب بالهاتف خدمة الغرف بعد أن قرأ بعناية التعليمات لذلك. تلقى إبريق قهوة كبيرًا لم يبق منه سوى القليل، لكنه غسل الفنجان والصحن وكوب عصير البرتقال وشطف إبريق القهوة ثم وضع الصينية على أرض الرواق.

كانت إحدى الدعايات المتلفزة على وشك أن تنتهي. فجأة استيقظ الاهتمام في الرجل فمال إلى الأمام مقتربًا من التلفزيون. لا شكّ بأن المقابلة ستبدأ حالًا، وهذا ما كان. أدار زرّ الصوت يمينًا.

ملأ الشاشة وجه طوم بروكاو، مقدّم برنامج «اليوم» ومنسّق فقراته. بدأ الكلام بوجه غير باسم وصوت مكبوت. «أصبحت إعادة

تطبيق عقوبة الإعدام الموضوع الأكثر إثارة للمشاعر والانقسام في هذا البلد منذ الحرب الفيتنامية. فبعد اثنتين وخمسين ساعة فقط، عند الحادية عشرة والنصف من قبل ظهر الرابع والعشرين من مارس، ستنفّذ عقوبة الإعـدام بواسطة الكرسيّ الكهربائيّ للمرة السادسة هذا العام بحقّ رونالد طومبسون البالغ من العمر تسعة عشر عامًا. ضيفي...»

مكتبة الرمحي أحمد

ابتعدت الكاميرا إلى الوراء ليظهر في الصورة شخصان يجلسان إلى جانبَي طوم بروكاو. كان الرجل الواقف إلى يمينه في بداية العقد الرابع من عمره. خطّ الشيب شعره الرمليّ اللون المبعثر والمتجه إلى الأعلى. واستلقت أنامله على ذقنه في ما يشبه وضعيّة صلاة زاد من إبرازها حاجبان أسودان تقوّسا فوق عينين بلون زرقة الشتاء.

إلى يسار بروكاو جلست شابّة بجذع متصلّب في استقامته. وقد شدّت شعرها ذا لون العسل الدافئ في ثعلبة ناعمة وكوّرت قبضتيها في حضنها ورطّبت شفتيها وازاحت عن جبينها خصلة شعر.

قال طوم بروكاو: «خلال لقائنا الماضي هنا منذ ستة أشهر، دافع ضيفانا دفاعًا شديدًا عن وجهتَي نظرهما حيال عقوبة الإعدام. شارون مارتن المعلّقة الصحفية المتخصّصة في القضايا الكبرى هي أيضًا مؤلّفة الكتاب الواسع الرواج «جريمة عقوبة الإعدام» وستيفن بيترسون، رئيس تحرير مجلة «الأحـداث»، هو أحد أقـوى الأصوات الإعلامية المطالبة بإعادة تطبيق عقوبة الإعدام في هذا البلد.

اشتدّت نبرة صوته والتفت إلى ستيف وقـال: «لنبدأ معك، سيد بيترسون. بعدما شاهدت ردّة الفعل الشعبية المتأججة المشاعر على الإعدامات التي نُفّذت، ألا تزال تعتقد أن موقفك مبرَّر؟»

مال ستيف إلى الأمام. خلا ردّه من أيّ انفعال وقال بصوت هادئ: «طبعًا».

التفت مقدّم البرنامج إلى ضيفته الأخرى وسألها: «شارون، ما رأيك؟»

عدّلت شارون جلستها قليلًا لتواجه سائلها. كان الإرهاق ظاهرًا عليها بعدما أمضت شهرًا تعمل عشرين ساعة في اليوم على الاتصال بالشخصيات البارزة من شيوخ وأعضاء في الكونغرس وقضاة وناشطين إنسانيين والتحدّث في الجامعات والنوادي النسائية، تحثّ الجميع على توجيه الرسائل والبرقيات إلى حاكمة ولاية كونكتيكت للاحتجاج على إعدام رونالد طومبسون. لقيت مساعيها تجاوبًا هائلًا وكانت متأكدة تمامًا من أنّ الحاكمة غرين ستعيد النظر في قرارها. وجدت شارون نفسها تبحث بمشقّة عن إجابة.

قالت: «أظنّ، أعتقد أننا.. أن بلدنا عاد بخطوات كبيرة إلى الوراء، إلى العصور المظلمة.» وحملت الجرائد التي كانت إلى جانبها ثمّ أردفت: «انظر فقط إلى عناوين هذا الصباح. حلّلها! إنها متعطّشة للدماء». قلّبت صفحات الجرائد بسرعة وقالت: «هذه الجريدة... اسمع... «ولاية كونكتيكت تختبر الكرسيّ الكهربائيّ». وهذه... «موعد فتى في التاسعة عشرة مع الموت الأربعاء». أمّا هذه... «القاتل الملعون يحتجّ على البراءة». كلّ العناوين هكذا، مثيرة، وحشيّة!» وصمتت عاضّة شفتها.

نظر ستيف إليها بسرعة. قبل ذلك بقليل نمي إليهما أنّ الحاكمة دعت إلى مؤتمر صحافيّ للإعلان عن رفضها القاطع الموافقة مرة جديدة على تأجيل تنفيذ عقوبة الإعدام بطومبسون. نزل الخبر كالصاعقة على

شارون. وشعرت بأنّها لن تنجو من الغثيان والمرض بعد خبر كهذا إلّا بمعجزة. ما كان عليهما الموافقة على الحضور إلى هذا البرنامج اليوم. فقرار الحاكمة أفرغ ظهور شارون من كلّ جدوى. ولا شكّ بأن ستيف لم يكن يريد أن يكون هنا، لكن كان عليه أن يقول شيئًا.

قال ستيف: «أظنّ أنّ كلّ إنسان يشعر بالأسى أمام هذه الرغبة في الإثارة والحاجة إلى عقوبة الإعدام. لكن تذكّر أنّ الحكم لا يصدر إلّا بعد بحث عميق في الظروف التخفيفيّة. لا وجود لعقوبة إعدام إلزاميّة.»

سأله بروكاو بسرعة: «أتعتقد أنه كان يجب إعادة النظر في ظروف قضيّة طومبسون، أي إلى واقع ارتكابه جريمته بُعيد بلوغه عامه السابع عشر بأيّام؟ هل أنّ بضعة أيّام تجعله يستحقّ تنفيذ الإعدام به شأنه شأن البالغين؟»

أجاب ستيف: «كما تعلم، لن أعلّق على قضيّة طومبسون تحديدًا. ذلك سيكون أمرًا غير ملائم أبدًا.»

قال المقدّم: «أتفهّم قلقك، سيد بيترسون، لكنّك اتخذت موقفًا من هذه المسألة قبل عدّة أعوام من...» وتريّث قليلًا ثم أضاف بهدوء: «من قتل رونالد طومبسون لزوجتك».

«قتل رونالد طومبسون لزوجتك.» لا تزال هذه الكلمات القاسية والشديدة الوقع تثير دهشة ستيف. وبرغم انقضاء عامين ونصف العام فهو لم يتجاوز إحساسه بالصدمة والاستهجان لموت نينا بتلك الطريقة، حين سلبها حياتها دخيل اقتحم منزلهما وشدّ على عنقها بمنديلها حتّى خنقها.

نظر ستيف أمامه مباشرة محاولًا أن يمحو تلك الصورة من ذهنه. وقال: « كنت أرجو في الماضي أن يصبح حظر عقوبة الإعدام في بلدنا

نهائيًا. لكنني وكما أشرتَ منذ قليل، وقبل فترة غير وجيزة من حلول المأساة بعائلتنا، توصّلت إلى خلاصة بأنّنا مضطرّون إلى وضع حدّ لمرتكبي العنف وذلك من أجل الحفاظ على الحقّ الأساسي للبشر... وأعني به حرّية التنقّل بلا خوف وحرّية الشعور بالأمان في منازلنا. ومنذ تنفيذ عقوبة الإعدام الأولى منذ عامين، انخفض انخفاضًا كبيرًا عدد الجرائم في المدن الكبرى في بلدنا.»

مالت شارون إلى الأمام وقالت باكية: «أنت تجعل الأمر يبدو منطقيًا جدًا. ألا تدرك أن خمسة وأربعين بالمئة من الجرائم يرتكبها مَن هم دون سنّ الخامسة والعشرين، لكثيرين منهم خلفيّات عائلية مأساويّة وتاريخ من عدم الاستقرار؟»

أزاح المشاهد المنفرد في الغرفة 932 في فندق بيلتمور نظره عن ستيف بيترسون وأمعن النظر في الفتاة مفكّرًا. تلك كانت الكاتبة التي أثارت إعجاب ستيف. لم تكن تشبه زوجته أبدًا. من الواضح أنها كانت أطول قامة وذات جسد نحيل كأجساد الرياضيّين. كانت زوجته صغيرة القامة وتشبه الدمى وذات صدر متكوّر وشعر أسود فاحم يتجعّد حول جبينها وأذنيها عندما تدير رأسها.

ذكّرته عينا شارون بلون المحيط يوم ذهب بسيارته إلى الشاطئ الصيف الماضي. كان قد سمع أنّ شاطئ جونز مكان جيد للقاء الفتيات لكنه لم يفلح. فالفتاة التي شرع بالعبث معها صاحت «بوب!» وما هي إلّا دقيقة حتى رأى بجانبه رجلًا يسأل ما الخطب. أبعد بطّانيته واكتفى بالتحديق بالمحيط، متفرّجًا على تغيّر الألوان. الأخضر. ذاك هو اللون. إنّه الأخضر الممزوج بالأزرق والذي يموج مضطربًا. كان يحبّ العيون التي لها هذا اللون.

بكت شارون قائلة: «أتعاطف معهم أيضًا، لكنّ المسألة ليست خيارًا بين أمرين لا ثالث لهما. ألا ترى أنّ في الحبس المؤبّد عقابًا كافيًا لأمثال رونالد طومبسون في هذا العالم؟» نسيت شارون طوم بروكاو ونسيت كاميرات التلفزيون وحاولت من جديد إقناع ستيف. فسألته: «كيف يمكنك... أنت الرؤوف جدًا... أنت الذي تقدّر الحياة كثيرًا... أن تسعى إلى أن تحلّ محلّ الله؟ كيف لإنسان أن يفترض أنّ بوسعه الحلول محلّ الله؟»

بدأ هذا الجدال وانتهى تمامًا كما بدأ وانتهى للمرة الأولى منذ ستة أشهر حين التقيا في هذا البرنامج. في النهاية قال بروكاو: «الوقت ينفد منّا، أيمكننا أن نلخّص حديثنا بالقول إنّك وبرغم المظاهرات الشعبيّة وأعمال الشغب في السجون والتجمّعات الطلابيّة التي لا تتوقّف في أرجاء بلدنا كلّه، لا تزال يا سيد بيترسون تعتقد أنّ الانخفاض الحادّ في نسبة الجرائم العشوائية يبرّر أحكام الإعدام؟»

أجاب ستيف: «أعتقد بالحقّ الأخلاقيّ... بل بواجب... المجتمع في حماية نفسه، وبواجب المجتمع في حماية حرّية مواطنيه المقدّسة؟»

توجّه بروكاو بسرعة إلى ضيفته وقال: «شارون مارتن؟»

ردّت قائلة: «أعتقد أن عقوبة الإعدام لا معنى لها ووحشيّة. أعتقد أنّ بوسعنا جعل منازلنا وشوارعنا آمنة عبر إبعاد المجرمين العنيفين عنها ومعاقبتهم بأحكام سريعة وجازمة، وعبر التصويت على إصدار السندات اللازمة لبناء المؤسسات الإصلاحية وتأمين رواتب موظّفيها. أعتقد أنّ احترامنا الحياة، كلّ حياة، هو الامتحان النهائيّ لنا أفرادًا ومجتمعًا.»

قال طوم بروكاو بسرعة: «شارون مارتن، ستيفن بيترسون، أشكر لكما حضوركما في برنامج «اليوم». سأعود إليكم بعد هذا الإعلان...»

فجأة انطفأ جهاز التلفزيون في الغرفة 932 في فندق بيلتمور. لبث الرجل البارز العضلات والضخم الصدر ببزته الخضراء ذات النقش المربّع جالسًا حيث هو لفترة طويلة يحملق في الشاشة السوداء. من جديد، استعرض خطّته في ذهنه، الخطة التي بدأت بوضع الصور والحقيبة في الغرفة السرية في محطة غراند سنترال والتي يُفترض بها أن تنتهي بأخذ نيل، ابن ستيف بيرتسون، إلى هناك هذا المساء. لكن عليه أن يتخذ قرارًا الآن. فشارون مارتن ستكون في منزل ستيف هذا المساء، للعناية بنيل حتى عودة والده إلى المنزل.

كان قد خطّط لتصفيتها هناك ببساطة.

لكن، هل كان عليه المضيّ بذلك؟ إنّها في غاية الجمال.

فكّر في تينك العينين، بلون المحيط الذي يموج مضطربًا، واللتين تحيطان الناظر إليهما بشعور بالرعاية.

حين نظرت إلى الكاميرا مباشرة بدا له أنها تنظر إليه.

بدا وكأنها أرادته أن يأتي إليها.

لعلها كانت تحبّه.

إذا لم تكن تحبّه سيسهل التخلّص منها.

سيكتفي بأن يتركها في الغرفة في غراند سنترال مع الطفل صباح الأربعاء.

وحين تنفجر القنبلة عند الحادية عشرة والنصف، ستتحوّل هي الأخرى إلى أشلاء ممزّقة.

2

غادرا الاستوديو معًا، وسارا جنبًا إلى جنب لا تفصل بينهما سوى سنتمترات قليلة. أحسّت شارون بردائها المصنوع من نسيج التويد الصوفيّ ثقيلًا على كتفيها. وكانت يداها وقدماها تتجمدان بردًا. شدّت قفّازيها إلى الأعلى ولاحظت أنّ خاتم حجر القمر الأثريّ الذي قدّمه إليها ستيف لمناسبة عيد الميلاد عاد ليترك بقعة على إصبعها. بعض الأشخاص يفرزون معدّلات أحماض مرتفعة جدًّا تمنعهم من حمل حليّ ذهبيّة على أجسادهم من دون تلطيخها.

تقدّمها ستيف وفتح لها الباب. خرجا إلى الصباح العاصف. كان البرد قارصًا وبدأ الثلج يسقط ندفًا سميكة وكثيفة متماسكة برّدت وجهيهما.

قال لها: «سأستدعي لك سيارة أجرة.»

أجابت: «لا، أفضّل أن أسير.»

«هذا جنون، تبدين متعبة جدًّا.»

«سيساعدني السير على تنقية أفكاري. آه يا ستيف، كيف يسعك أن تكون متأكدًا جدًا... وجازمًا جدًا... كيف يمكنك ألّا تلين..؟»

«دعينا لا نبدأ من جديد، عزيزتي.»

«يجب أن نبدأ من جديد!»

«لن نبدأ الآن.» نظر إليها ستيف، إلى وجهها الذي يبدو عليه نفاد الصبر الممزوج بالهمّ. بـدت عينا شـارون مرهقتين، تشوب بياضهما خيوط حمراء دقيقة؛ لم ينجح تبرّج الكاميرا في إخفاء الشحوب الذي زاد من إبرازه ذوبان الثلج على خدّيها وجبينها.

سألها: «أيمكنك الذهاب إلى المنزل لتأخذي قسطًا من الراحة؟ أنت بحاجة إلى ذلك.»

أجابت: «عليّ تسليم مقالتي.»

«حاولي النوم ساعات قليلة. هل تأتين إلى منزلي نحو السادسة إلّا ربعًا؟»

«ستيف، أنا غير واثقة...»

«أنا واثق. لم نتقابل منذ ثلاثة أسابيع. الزوجان لوفتس ينويان الخروج لمناسبة ذكرى زواجهما، وأريـد أن أكون في منزلي الليلة، معك ومع نيل.»

تجاهل ستيف الناس المندفعين لدخول مباني مركز روكفيلر ووضع يديه حول وجه شارون ورفعه. كان تعبيرها مضطربًا وحزينًا. قال بنبرة بطيئة وجادّة: «أحبك يا شارون، تعرفين هذا. اشتقت إليك جدًّا خلال الأسابيع الماضية. يجب أن نتحادث عنّا نحن الاثنين.»

«ستيف، آراؤنا تختلف. نحن...»

انحنى ستيف، وقبّلها. لم تستجب له شفتاها. وأحسّ بجسدها متوتّرًا. أشار بيده يستوقف سيارة أجرة مارّة. حين توقفت السيارة بمحاذاة الرصيف، فتح لها الباب وأعطى السائق عنوان مبنى نيوز ديسباتش. سألها قبل أن يقفل الباب: «هل أنتظرك الليلة؟»

أومأت برأسها إيجابًا بصمت. نظر ستيف إلى سيارة الأجرة تتجه إلى الجادة الخامسة، ثم سار غربًا بخطوات سريعة. كان قد أمضى ليلته في فندق غوثام لأنّ عليه الحضور إلى الاستوديو عند السادسة والنصف صباحًا، وهو يتوق إلى الاتصال بنيل قبل أن ينصرف هذا الأخير إلى المدرسة. كان القلق يعتريه كلما ابتعد عن المنزل، فابنه نيل لا يزال عرضة للكوابيس ولأزمات الربو الخانقة التي توقظه ليلًا. دائمًا ما تسارع السيدة لوفتس إلى الاتصال بالطبيب، وبرغم ذلك...

كان شتاءً ماطرًا وباردًا جدًا. لعلّ نيل يتعافى قليلًا في الربيع حين يتسنّى له الخروج من المنزل بوتيرة أكبر، فهو يبدو شاحبًا باستمرار.

الربيع! ربّاه، لقد حلّ الربيع. في وقت ما خلال الليل حدث الاعتدال الربيعيّ، وانتهى الشتاء رسميًا. لكنّ توقّعات الأرصاد الجوية لا تعد بذلك أبدًا.

بلغ ستيف زاوية الشارع واتجه شمالًا وهو يفكّر في أن ستّة أشهر تمامًا انقضت على بدء علاقته بشارون. حين مرّ لاصطحابها بسيّارته من شقتها في الأمسية الأولى، اقترحت أن يسيرا عبر حديقة سنترال بارك إلى مطعم تافرن أون ذو غرين. حذّرها من أن البرد اشتدّ في الساعات القليلة الماضية وذكّرها بأنه اليوم الأوّل من فصل الخريف.

قالت: «رائع، فأنا بدأت أملّ الصيف.» لبثا شبه صامتين أثناء اجتيازهما مربّعات المباني القليلة الأولى. تفحّص مشيتها التي تواكب مشيته بسهولة، وقوامها الممشوق الذي تُبرز نحافته سترة ذهبيّة تتلاءم تمامًا ولون شعرها. تذكّر أن الهواء اللاسع آنذاك كان يقتلع من الأشجار أولى الأوراق اليابسة، وأنّ غروب الشمس كان يزيد من وضوح اللون النيليّ في السماء الخريفية.

قالت له: «في ليلة كهذه، أفكّر دائمًا في تلك الأغنية من فيلم كاملوت. تعرفها، أغنية «إذا كنت سأتركك يومًا»، وغنّت بصوت رقيق: «كيف أتركك في الخريف، لست لأدري أبـدًا. رأيتك كيف تشعّين حين يقرص الخريف الهواء. أعرفك في الخريف ويجب أن أكون موجودًا...» كانت ذات صوت خفيض جميل.

إذا كنت سأتركك يومًا...

هل وقع في هواها في تلك اللحظة؟

كانت تلك الأمسية ممتازة. طال بهما العشاء وهما يتحادثان فيما انصرف الجالسون إلى الموائد الأخرى وأتى زبائن جدد.

فيمَ تحادثا؟ في كلّ شيء. كان والدها مهندسًا في شركة نفط. وُلدت وشقيقتيها خارج البلاد. وكلتاهما الآن متزوّجة.

«كيف نجوت؟» كان ذلك سؤالًا لا بدّ من أن يطرحه. كلاهما كان يعرف حقيقة ما يعنيه بسؤاله، «هل من رجل مهمّ في حياتك؟»

لم يكن من رجل مهمّ في حياتها. قبل أن تبدأ بكتابة مقالتها الدوريّة، كانت الجريدة السابقة حيث تعمل ترسلها في رحلات إلى الخارج بوتيرة شبه دائمة. كان ذلك مثيرًا جدًا ويُشعرها بكثير من المرح، ولم تدرِ كيف انقضت الأعوام السبعة بعد الجامعة.

سارا عائدين إلى شقّتها، ومع وصولهما إلى مربّع المباني الثاني، أمسك بيدها. دعته لشرب كأس قبل النوم، مشدّدة قليلًا على عبارة «كأس قبل النوم.»

فيما أعدّ ستيف الشراب راحت هي وبعود ثقاب تشعل النار في حطب المدفأة ثمّ جلسا جنبًا إلى جنب يتفرّجان على ألسنة النيران.

لا يزال ستيف يتذكّر بوضوح المشاعر التي خامرته ليلتذاك، وكيف أبرزت النار ذهب شعرها، وألقت ظلالًا على ملامحها التقليديّة

وأنارت ابتسامتها الجميلة المفاجئة. كان يتحرّق لضمّها بذراعيه، لكنّه اكتفى بتقبيلها قبلة خفيفة قبيل انصرافه. قال لها: «يوم السبت، إن لم تكوني مشغولة...» وانتظر جوابًا.

«لست مشغولة.»

«سأتصل بك صباحًا.»

في طريق العودة إلى المنزل بسيارته، أدرك أن ظمأ قلبه الذي لم يرتوِ أو يستكن طوال عامين، ربما كان يقترب من نهايته. إذا كنت سأتركك يومًا... لا تتركيني يا شارون.

كانت الساعة الثامنة إلا ربعًا حين بلغ المبنى رقم 1347 في جادّة أميركا. لم يكن موظّفو مجلّة «الأحداث» مشهورين بقدومهم إلى العمل باكرًا، وكانت الأروقة خالية. أومأ برأسه تحيّة للحارس أمام المصعد، ثمّ صعد إلى مكتبه في الطابق السادس والثلاثين، وطلب رقم منزله.

أجابت السيدة لوفتس: «نيل بخير، إنه يتناول فطوره أو بالأحرى يكاد لا يتناول منه شيئًا. نيل، والدك يتحدّث بالهاتف.»

أخذ نيل السماعة وقال: «مرحبًا، أبي، متى تعود إلى المنزل؟»

أجاب: «بحلول الثامنة والنصف طبعًا. لديّ موعد عند الخامسة. أما زال الزوجان لوفتس يريدان الذهاب إلى السينما؟»

«أظنّ ذلك.»

«ستصل شارون قبل السادسة حتى يتمكّنا من الذهاب.»

أجاب نيل بنبرة ملتبسة : «أعرف، لقد أخبرتني.» فقال والده: «حسنًا، طاب يومك يا بنيّ. ارتدِ ما يُشعرك بالدفء، فالبرد يشتدّ هنا. هل بدأ الثلج يتساقط حيث أنت؟»

«لا، لكنّ السماء غائمة.»

«حسنًا، إلى اللقاء هذا المساء.»

«إلى اللقاء يا أبي.»

عبس ستيف. شقّ عليه أن يتذكّر أنّ نيل كان فيما مضى ولدًا خاليًا من الهموم ومتقدًا حياة. لكنّ موت نينا غيّر ذلك. كان ستيف يتمنّى أن يتقارب نيل وشارون التي تحاول صادقة أن تخترق جدار تحفّظ الفتى، لكنّه لم يلن قطّ، أقلّه حتى اليوم.

وقت. كلّ شيء بحاجة إلى وقت. تنهّد ستيف واستدار إلى الطاولة خلف مكتبه وأخذ الافتتاحية التي كان يعمل عليها ليلة أمس.

3

غادر شاغل الغرفة 932 فندق بيلتمور عند التاسعة والنصف صباحًا. خرج عبر الباب المطلّ على الشارع الرابع والأربعين واتّجه شرقًا نحو الجادة الثانية. كان الهواء اللاسع والمحمّل بالثلج يدفع المشاة للسير بسرعة ويجعلهم ينكمشون على أجسادهم ويغوصون بأعناقهم داخل قبّات ملابسهم المقلوبة إلى الأعلى.

كان ذلك الطقس يناسبه، ففي طقس كهذا لا يكلّف الناس أنفسهم عناء ملاحظة ما يفعله الآخرون.

محطّته الأولى كانت متجرًا للبضائع المستعملة في الجادّة الثانية جنوب الشارع الرابع والثلاثين. تجاهل الحافلات التي تمرّ كلّ بضع دقائق واجتاز المربّعات الأربعة عشر سيرًا. رأى أنّ المشي رياضة جيدة ومن المهمّ أن يحافظ على قوامه الرشيق.

كان المتجر خاليًا إلّا من بائعة عجوز جلست بخمول تقرأ جريدة الصباح. سألته: «هل تريد شيئًا معينًا؟»

أجابها: «لا، سأبحث بنفسي.» رأى مشجب المعاطف النسائية ومضى إليه. قلّب المعاطف الرثّة واختار معطفًا صوفيًّا رماديًّا قاتمًا

ضيّقًا عند الكتفين ويتّسع نزولًا، بدا طوله مناسبًا. فكّر في أنّ شارون مارتن طويلة بعض الشيء. كانت بقرب المشجب صينيّة عليها مناديل مطويّة اختار أكبرها وكان مستطيلًا ذا لون أزرق باهت.

وضعت المرأة مشترياته في كيس تسوّق.

المحطّة التالية كانت متجر المستلزمات العسكريّة. هناك كان الأمر سهلًا. في قسم معدّات التخييم اشترى كيسًا ضخمًا من النسيج الغليظ. اختاره بعناية وتأكّد من أن طوله يكفي ليسع الصبيّ، وسماكته تكفي لكي لا يفضح شكله ما سيحتويه، وعرضه مناسب لإدخال كمية كافية من الهواء عند إرخاء رباط فتحته.

ثّم اشترى من أحد متاجر وولوورث في الجادة الأولى ستّ لفّات من الضمادات العريضة وبكرتين كبيرتين من الخيطان السميكة. حمل ما اشتراه وعاد به إلى فندق بيلتمور. كان سرير غرفته مرتّبًا وكان في الحمّام مناشف نظيفة.

بحثت عيناه بسرعة عمّا يدلّه إلى أنّ الخادمة فتّشت في الخزانة. لكنّ حذاءيه الآخرين كانا تمامًا حيث تركهما وكما تركهما، الواحد خلف الآخر تفصل بينهما مسافة شعرة واحدة، ولا يكاد يلامس أيّ منهما الحقيبة السوداء القديمة ذات القفلين التي تقف في الزاوية.

أقفل باب الغرفة من الداخل، ووضع أكياس مشترياته على السرير. أخذ الحقيبة من الخزانة بعناية كبيرة ووضعها على طرف السرير. ثم أخذ من جيب في محفظته مفتاحًا وفتحها.

تحقّق من محتوياتها على نحو دقيق: الصور والبارود والساعة والأسلاك والصواعق وسكين الصيد والمسدّس. ثم أغلقها وقد أرضته النتيجة.

حمل الحقيبة وكيس التسوّق وغادر الغرفة. عبَر الردهة السفلى لفندق بيلتمور إلى ممرّ تحت الأرض يفضي إلى الطابق الأعلى من محطة غراند سنترال. كان ازدحام الركّاب الذي تشهده المحطة في الصباح الباكر قد خفّ لكنّها لا تزال ملأى بأناس يهرعون لدخول القطارات أو للخروج منها، وأناس يستخدمون المحطّة كطريق مختصر لبلوغ الشارع الثاني والأربعين أو جادّة بارك أفنيو، وأناس يتّجهون إلى متاجر المحطّة أو مكتب مراهنات سباق الخيل فيها أو مطاعم الخدمة السريعة أو أكشاك بيع الجرائد.

نزل الدرج بسرعة إلى الطابق الأسفل ومضى إلى المنصّة 112 التي تصل إليها وتنطلق منها قطارات ماونت فرنون. أقرب موعد لوصول قطار إلى تلك المنصة كان بعد 18 دقيقة، وكان المكان خاليًا تمامًا. ألقى حوله نظرات خاطفة وتأكّد من أنّ أيّ حارس لا ينظر في اتجاهه ثم نزل الدرج ليتوارى داخل المنصّة.

كانت المنصّة تمتدّ بشكل نضوة حصان حول نهاية السكك الحديدية. ومن الجهة المقابلة كان منحدر منزلق يفضي إلى أعماق المحطّة. حثّ خطاه حول السكك وبلغ المنحدر واتّسمت حركاته بالسرعة والخفّة. اختلفت الأصوات في هذا العالم الآخر من المحطّة. ففوقه كانت جلبة آلاف المسافرين الذين يجيئون ويذهبون تصمّ الآذان. أمّا هنا فما كان يُسمع سوى الخفق المنتظم لمضخة هوائية أو هدير مراوح التهوئة. وكان الماء يسيل هزيلًا عبر الأرضية الرطبة، وأطياف الهررة الجائعة تدخل بصمت إلى النفق القريب تحت بارك أفنيو وتخرج منه. وكان صوتٌ كليلٌ متواصل يأتي من الحلقة حيث تدور القطارات مقعقعة وهي تتسارع أثناء انطلاقتها لمغادرة المحطة.

تابع سيره عبر المنحدر حتى بلغ قاعدة درج حديديّ يكاد يكون عموديًّا. ارتقى الدرجات المعدنية بسرعة، واضعًا بصمت قدمًا بعد أخرى على كلّ منها. مرّ أحد الحرّاس صدفة في المكان. كان النور ضعيفًا، ومع ذلك...

كان عند منبسط الدرج الصغير باب معدنيّ ثقيل. وضع الحقيبة والكيس بحذر على المنبسط، وبحث عن المفتاح في محفظته. حين وجده، أدخله بسرعة وعصبيّة في القفل. تردّد القفل في الإذعان ثم انفتح الباب.

في الداخل كان الظلام حالكًا. تحسّس الجدار باحثًا عن مفتاح الضوء، وحين وجده، أحكم عليه إحدى يديه وانحنى ليُدخل الحقيبة والكيس إلى الغرفة. ثمّ أغلق الباب بدون إثارة ضجيج.

آنذاك، كان الظلام تامًّا فلم يستطع رؤية شكل الغرفة. وكانت رائحة العفن المنبعثة غامرة. صدرت عنه تنهيدة طويلة وركّز طاقاته العقلية على محاولة الاسترخاء. تعمّد الإصغاء إلى أصوات المحطة لكنها كانت نائية، ولا يمكن سماعها إلّا ببذل جهد مميّز.

شعر بأنّه بخير.

قلب مفتاح الضوء فأنارت الغرفة أضواء شاحبة. شعّت المصابيح الفلورية التي يعلوها الغبار على السقف والجدران ذات الطلاء المتقشّر ملقية ظلالًا عميقة في الزوايا. كانت الغرفة بشكل زاوية وذات جدران إسمنتية، تدلّت منها في سدائل محزّزة طبقات سميكة من الطلاء المقاوم للرطوبة. كان إلى يسار الباب جرنان قديمان ضخمان لغسل الأطباق. وكان الماء المتسرّب من الصنابير في داخلهما قد رسم قنوات من الصدأ خلال طبقات سميكة من الغبار

المتكدّس. في وسط الغرفة كانت ألواح خشبية ملأتها المسامير تحيط بمصعد أطباق شبيه بالمدفأة. وقريبًا من أقصى يمين الغرفة، باب ضيق مفتوح جزئيًا على مرحاض قذر.

كان يعلم أن المرحاض يعمل، فقد أتى إلى هذه الغرفة الأسبوع الماضي للمرة الأولى منذ أكثر من عشرين عامًا وتفقّد الأضواء والمرحاض. إنّ شيئًا ما دفعه إلى المجيء إلى هنا، وذكّره بهذه الغرفة حين كان يضع خطّته.

إلى الجدار البعيد، اتّكأ بشكل مائل سرير عسكريّ خفيف متزعزع من الخيش، وبجانبه صندوق برتقال مقلوب. أثار وجود السرير والصندوق قلق الرجل، فهما يدلّان على أنّ شخصًا آخر في مرحلة ما عثر على هذه الغرفة وأقام فيها. لكنّ الغبار الذي يعلو السرير والرطوبة المشبعة بالعفونة لا يعنيان سوى أنّ الغرفة لم تُفتح منذ أشهر على الأقلّ، وربما منذ أعوام.

لم يأتِ إلى هنا منذ كان في عامه السادس عشر، أي منذ أكثر من نصف عمره. وذلك حين كان مطعم أويستر بار يستعمل هذه الغرفة التي تقع تحت مطبخه تمامًا. وكان مصعد الأطباق القديم المغطّى بالألواح الخشبية ينقل أكوامًا من الأطباق الملأى بالدهون لغسلها في الجرنين العميقين وتجفيفها ثمّ إعادة إرسالها إلى الأعلى.

قبل عدة أعوام جرى تجديد مطبخ أويستر بار وركّبت فيه جلّايات كهربائيّة، وأقفِلت هذه الغرفة. وكان ذلك أمرًا حسنًا، لأنّ أحدًا ما كان ليرضى بالعمل في هذا الجحر الكريه الرائحة.

لكنّ الغرفة ما زالت قابلة للاستفادة منها.

حين فكّر في مكان حيث يمكنه أن يحتجز ابن بيترسون حتى دفع الفدية، تذكّر هذه الغرفة. تحقّق منها وأدرك كم هي مناسبة لخطّته.

حين كان يعمل هنا، ويداه متورّمتان بفعل الصابون والمنظّفات التي تثير الحساسية والماء الحارق والمناشف المبلّلة الثقيلة الوزن، كانت المحطّة الطرفيّة تعجّ بأشخاص أنيقي الملابس يسرعون عائدين إلى منازلهم وسياراتهم الفخمة، أو يجلسون في المطعم يأكلون القريدس والمحار وأسماك القاروس والنهّاش التي ينزع بقاياها عن أطباقهم، بدون أن يكترثوا له إطلاقًا.

سيجعل كلّ شخص في محطّة غراند سنترال، بل في نيويورك، بل في العالم كلّه يدرك وجوده. بعد يوم الأربعاء لن ينسوه أبدًا.

كان الدخول إلى هذه الغرفة سهلًا، بواسطة طبعة شمعيّة أخذها عن القفل الصدئ القديم، بعد ذلك صنع مفتاحًا وبات بوسعه المجيء والذهاب كما يحلو له.

هذه الليلة سيكون كلّ من شارون مارتن والصبيّ هنا معه. محطّة غراند سنترال، أشدّ محطّات السكك الحديديّة ازدحامًا في العالم. أفضل مكان في العالم لإخفاء الأشخاص.

ضحك بصوت مرتفع. بات بوسعه أن يبدأ الضحك الآن بعد أن بات هنا. شعر بنفسه صافي الذهن ولامعًا ومحفّزًا. أثارت الجدران المتقشّرة الطلاء والسرير العسكريّ المتهالك والماء المتسرّب والألواح المتكسّرة حماسته.

هنا، كان هو السيّد والمخطّط. سيتدبّر الحصول على ماله. سيغمض تينك العينين إلى الأبد. لم يعد يتحمّل أن يحلم بالعينين، لم يعد يتحمّل ذلك. وقد أصبحتا الآن تشكّلان خطرًا حقيقيًّا.

الأربعاء. كانت الحادية عشرة والنصف من صباح الأربعاء تبعد ثمانية وأربعين ساعة تمامًا. وسيكون حينذاك على متن طائرة متجهة

إلى أريزونا حيث لا أحد يعرفه. لم تكن كارلي مكانًا آمنًا بالنسبة إليه، فأسئلة كثيرة كانت تُطرح فيها.

أمّا هناك، والمال معه... وبرحيل العينين... وإذا وقعت شارون مارتن في حبّه، سيصطحبها.

حمل الحقيبة وتجاوز بها السرير العسكريّ، ووضعها بعناية أرضًا على إحدى جهتيها. فتحها وأخذ مسجّلة الصوت الصغيرة والكاميرا، ووضعهما في الجيب الأيسر لمعطفه البنيّ العديم الشكل والبشع. ووضع سكّين الصيد والمسدّس في الجيب الأيمن. ولم يظهر أيّ انتفاخ عبر الجيبين العميقين والسميكين.

حمل كيس التسوّق ووزّع محتوياته بشكل منظّم على السرير. وضع المعطف والمنديل والخيطان ولفّات الضمادات في كيس النسيج الغليظ. وأخيرًا بحث عن علبة الملصقات الملفوفة بشكل متقن. فتحها وراح يضغط عليها برفق لتسطيحها ثم يثنيها لتخفيف التفافها. طالت نظراته إليها. ثم ارتسمت على شفتيه الضيّقتين ابتسامة تشي بالكثير من الذكريات والأفكار.

علّق الصور الثلاث الأولى على الجدار فوق السرير، وثبّتها بعناية بواسطة شريط لاصق جراحيّ. ثمّ أمعن النظر إلى الصورة الرابعة وعاد إلى لفّها ببطء.

قرّر في نفسه أنّ الأوان لم يحن بعد.

كان الوقت ينقضي. أطفأ الضوء بعناية قبل أن يفتح الباب سنتمترات قليلة. أصغى بعناية إلى ما يجري في الخارج لكنّه لم يسمع أصوات خطوات قريبة.

انسلّ خارجًا وهبط بصمت الدرجات المعدنيّة مبتعدًا بسرعة عن المولّد الخفّاق والمراوح الهدّارة والنفق الواسع. صعد

المنحدر ودار حول سكك ماونت فرنون وتسلّق الدرج حتّى الطابق الأسفل من محطّة غراند سنترال. وهناك اختلط بأمواج البشر، رجلًا مملوء الصدر في أواخر عقده الرابع، ذا بنية بارزة العضلات ووقفة مشدودة ومستقيمة، ووجه متشقّق الجلد ومنتفخ، وعظم وجنتين مرتفع، وشفتين ضيقتين مزمومتين، وجفنين ثقيلين لا يخفيان إلا قليلًا العينين الشاحبتين اللتين ترميان نظراتهما السريعة من جانب إلى جانب.

أسرع حاملًا بيده تذكرة ليصل إلى بوّابة الطابق الأعلى حيث كان القطار ينطلق إلى كارلي في كونكتيكت.

4

وقف نيل عند زاوية الشارع ينتظر حافلة المدرسة. كان يعلم أن السيدة لوفتس تراقبه من النافذة وكان يكره ذلك. لم تكن أيّ من أمّهات أصدقائه تراقب ابنها كما تفعل السيدة لوفتس، حتى ليظنّ المرء أنه طفل في الحضانة وليس طالبًا في الصف الأوّل.

ومتى كان المطر يسقط، عليه الانتظار في المنزل حتى وصول الحافلة. كان يكره ذلك أيضًا لأنه يجعله يبدو مخنثًا كبيرًا. حاول أن يشرح ذلك لأبيه، لكنّ أباه لم يفهم، بل قال فقط إنّ عليه أن يعتني بنفسه بطريقة خاصة بسبب نوبات الربو التي تصيبه.

كان ساندي باركر تلميذًا في الصفّ الرابع، ومنزله يقع في الشارع التالي لكنّه يستقلّ الحافلة في هذه المحطّة. وكان يريد دائمًا الجلوس بجانب نيل الذي يتمنّى ألاّ يفعل. فساندي يتكلّم دائمًا في أمور لا يريد نيل التكلّم فيها.

حالما تجاوزت الحافلة المنعطف، أتى ساندي ينفخ لاهثًا، وكتبه تنزلق وتتفلّت من بين ذراعيه. حاول نيل التوجّه إلى مقعد خالٍ قريب من مؤخرة الحافلة لكن ساندي قال: «نيل، هذان مقعدان

متحاذيان خاليان.» كان الضجيج يملأ الحافلة والأولاد كلّهم يتكلّمون بأعلى أصواتهم. لم يكن ساندي يتكلم بصوت مرتفع، لكن لم يكن من الممكن تفويت كلمة واحدة ممّا يقوله.

كان ساندي يغلي حماسة، وما كادا يجلسان حتى قال: «شاهدنا أباك في برنامج «اليوم» ونحن نتناول الفطور.»

مكتبة الرمحي أحمد

هزّ نيل رأسه وقال: «أبي؟ أنت تمزح».

«لا، لا أمزح، السيدة التي التقيتها في منزلك ظهرت في البرنامج أيضًا، شارون مارتن، وكانا يتجادلان.»

سأله نيل «لماذا؟» وفي الواقع لم يكن يريد أن يسأل. لم يكن واثقًا قطّ ممّا إذا عليه أن يصدّق ساندي.

«لأنّها لا تؤمن بوجوب قتل الأشرار، على عكس أبيك. أبي يقول إنّ أباك على حقّ. قال إنّ قاتل أمّك يجب أن يُشوى.» أعاد ساندي الكلمة مشدّدًا عليها. «يُشوى.»

استدار نيل ناحية النافذة وألقى بجبينه على الزجاج البارد. كان الطقس مكفهرًا جدًّا في الخارج والثلج قد بدأ بالتساقط. تمنّى لو أنّ الوقت بات ليلًا. تمنّى لو أنّ أباه كان في المنزل ليلة البارحة. لم يحبّ أن يُترك مع الزوجين لوفتس. كان كلاهما لطيفًا معه لكنّهما تجادلا كثيرًا، وذهب السيد لوفتس إلى الحانة، فغضبت السيدة لوفتس برغم أنها كانت تحاول أن تخفي غضبها أمامه.

أصرّ ساندي وتابع يسأل: «ألست مسرورًا بأنهم سيقتلون رونالد طومبسون يوم الأربعاء؟»

أجاب نيل بصوت منخفض: «لا... أعني... لا أفكّر في الأمر.»

لم يكن صادقًا في إجابته، فقد فكّر في الأمر كثيرًا. وكان يحلم به دائمًا أيضًا. كان الحلم نفسه يراوده دائمًا بشأن تلك الليلة. كان هو في غرفته يلعب بقطاراته، وأمّه في المطبخ ترتّب مشترياتها في أماكنها. كان الظلام قد بدأ يخيّم. خرج أحد قطاراته عن سكّته فأوقفه عن الحركة.

آنذاك سمع الصوت الغريب، كأنّها صرخة لكنّها كانت مكتومة. هرع إلى الأسفل. كانت غرفة المعيشة شبه مظلمة لكنّه استطاع أن يراها. أمّه. كانت ذراعاها تحاولان دفع شخصٍ ما إلى الخلف، بينما تصدر عنها أصوات اختناق مريعة. كان الرجل يلفّ شيئًا ما حول عنقها.

وقف نيل على منبسط الدرج. أراد أن يساعدها لكنّه لم يقوَ على الحراك. أراد أن يصيح طالبًا النجدة لكنّ صوته خانه. بدأ يتنفّس مثل أمّه بأصوات غريبة تشبه بقبقة الماء، ثمّ انهارت ركبتاه. التفت الرجل حين سمعه وترك أمّه تهوي.

كان نيل يهوي أيضًا. أحسّ بنفسه يهوي. ثمّ أصبحت الغرفة أكثر ضوءًا. كانت أمّه ممدّدة أرضًا، ولسانها بارزًا من فمها، ووجهها أزرق، وعيناها جاحظتين. آنذاك كان الرجل راكعًا بجانبها، ويداه حول عنقها. رفع عينيه إلى نيل وركض هاربًا، لكنّ نيل استطاع أن يرى وجهه بوضوح. كان وجهًا متعرّقًا وخائفًا.

كان على نيل أن يروي ذلك كلّه لرجال الشرطة وأن يدلّ إلى الرجل في المحكمة. ثمّ قال له أبوه: «حاول أن تنسى الأمر يا نيل، وفكّر في الأوقات السعيدة التي قضيتها مع أمّك.» لكنّه لم يستطع أن ينسى. فالحلم ما انفكّ يراوده دائمًا وكان يستيقظ منه مصابًا بنوبة ربو.

الآن، قد يكون والده يريد الزواج بشارون. أخبره ساندي أن الجميع قالوا إنّ أباه قد يتزوّج ثانية. قال ساندي إنّه ما من امرأة ترغب في تربية أولاد امرأة أخرى وخصوصًا إذا كانوا يمرضون كثيرًا.

كان الزوجان لوفتس يتكلّمان دائمًا عن رغبتهما في الانتقال للعيش في فلوريدا. تساءل نيل عمّا إذا كان أبوه سيعطيه إلى الزوجين لوفتس إذا ما تزوّج بشارون، وكان يأمل ألاّ يحدث ذلك. حدّق بائسًا خارج النافذة مستغرقًا في أفكاره لدرجة أنّه كان على ساندي أن يخزه حين توقّفت الحافلة أمام مدرستهما.

5

أصدرت إطارات سيارة الأجرة أزيزًا على أسفلت الشارع وهي تتوقف أمام مبنى نيوز ديسباتش شرق الشارع الثاني والأربعين. فتّشت شارون في حقيبة يدها وأخرجت دولارين دفعتهما للسائق.

استراحت العاصفة الثلجيّة لبعض الوقت لكنّ درجات الحرارة واصلت انخفاضها وبات السير على الرصيف يهدّد بالانزلاق.

مضت توًّا إلى غرفة الأخبار التي حوّلتها التحضيرات لعدد بعد الظهر إلى خليّة نحل. وجدت في علبتها رسالة تدعوها إلى مقابلة رئيس تحرير قسم الأخبار اليوميّة حالًا.

أزعجها هذا الاستدعاء الطارئ، فعبرت مسرعة الغرفة الشديدة الضجيج. كان الرجل وحيدًا في مكتبه الصغير والذي تعمّه الفوضى. قال لها: «ادخلي وأغلقي الباب.» ثم أشار إليها بأن تجلس، وسألها: «هل كتبت مقالتك لليوم؟»

«نعم.»

«هل من إشارة إلى برقيّة أو اتصال هاتفيّ بالحاكمة غرين لتخفيف الحكم بحقّ طومبسون؟»

«طبعًا، كنت أفكّر في الأمر. سأغيّر المقدّمة. إصرار الحاكمة على تنفيذ الحكم قد يشكّل فرصة لحثّ عدد أكبر بكثير من الأشخاص على التحرّك. ما زال أمامنا ثمان وأربعون ساعة.»

«انسي الأمر.»

حدّقت شارون إليه وسألته: «ماذا تعني؟ أنت تساندني في هذه القضيّة منذ البداية».

أجاب: «قلت لك انسي الأمر. بعد اتخاذ الحاكمة قرارها، اتصلت شخصيًا برَجُلنا وهاجمته بعنف. قالت إننا نتعمّد الإثارة لزيادة بيع الجريدة. وقالت إنها هي أيضًا لا تؤمن بعقوبة الإعدام لكنّها لا تملك الحقّ بالتدخّل في حكم المحكمة بدون وجود أدلّة جديدة. وأضافت أنه لو أردنا إطلاق حملة لتعديل الدستور، فذلك من حقّنا وهي مستعدّة لدعمنا في كلّ خطواتنا، لكنّ الضغط عليها للتدخّل في قضيّة واحدة يشبه محاولة تطبيق العدالة استنسابيًّا. وفي النهاية وافقها رَجُلنا الرأي.»

أحسّت شارون بمعدتها تتلوّى وكأنّها تلقّت ركلة، وخشيت لبرهة أن تتقيأ. زمّت شفتيها محاولة ابتلاع الانقباض المفاجئ الذي اعتصر حلقها. أمعن رئيس التحرير النظر إليها وسألها: «هل أنت بخير يا شارون؟ تبدين شاحبة جدًا».

نجحت في لجم الطعم الكريه الذي ثار إلى حلقها وأجابت: «أنا على ما يُرام».

قال: «يمكنني أن أجد مَن يغطّي ذلك الاجتماع غدًا. الأفضل لك أن تأخذي إجازة لبضعة أيّام.»

ردّت: «لا.» كانت السلطة التشريعية في ولاية ماساتشوستس تتناقش موضوع منع عقوبة الإعدام في الولاية. وأرادت أن تكون هناك.

قال لها: «كما تشائين. سلّمي مقالك وعودي إلى المنزل.» ثمّ أضاف بصوت ينمّ عن التعاطف: «آسف يا شارون. إقرار تعديل دستوريّ قد يستغرق سنوات. وظننتُ أنّنا إذا حملنا الحاكمة غرين على أن تكون الأولى في تخفيف حكم إعدام، فقد تُعتمد المقاربة عينها قضيّة فقضيّة عبر الولايات المتّحدة كلّها. لكنّني أتفهّم موقفها.»

قالت شارون: «أفهم أنّه ومن الآن فصاعدًا يجب عدم الاعتراض على الجريمة التي يشرّعها القانون إلّا بشكل مجرّد.» ولم تنتظر ردّ فعله بل وقفت فجأة وغادرت الغرفة. مضت إلى مكتبها، وهناك أخرجت من الجيب ذي الزمّام في حقيبة يدها الضخمة الصفحات المطبوعة والمطويّة التي أمضت معظم الليل في كتابتها. وبعناية مزّقت الصفحات إلى نصفين، ثمّ إلى أرباع، وأخيرًا إلى أثمان. وشاهدتها تسقط مرفرفة في سلّة المهملات المحطّمة بقرب مكتبها.

وضعت ورقة جديدة في الآلة الكاتبة وبدأت الكتابة. «من جديد، يوشك المجتمع على ممارسة صلاحيته المستعادة حديثًا، أي الحق في القتل. كتب الفيلسوف الفرنسي مونتانيه منذ نحو أربعمئة عام «إنّ فظاعة أن يقتل إنسان إنسانًا تجعلني أخشى فظاعة قتله.»

«إذا كنتم توافقون على أنّ الدستور يجب أن يحظّر تطبيق عقوبة الإعدام...»

كتبت على نحو ثابت طوال ساعتين، تشطب فقرات كاملة، وتدخل جملًا، وتعيد الكتابة. حين أكملت مقالتها، أعادت طباعتها بسرعة، وسلّمتها ثمّ غادرت المبنى وأوقفت سيّارة أجرة. قالت للسائق: «الشارع الخامس والتسعون، قبالة غربي حديقة سنترال بارك من فضلك.»

استدارت سيارة الأجرة لتتجه شمالًا على جادّة الأميركيّتين، ودخلت الحديقة من جنوب سنترال بارك. راحت شارون تتفرّج بكآبة على الثلج المنهال يتكدّس فوق العشب. إذا تواصلت العاصفة على هذا النحو، فسيركب الأطفال المزالج هنا غدًا.

في الشهر الماضي أحضر ستيف مزلاجيه وذهبا للتزحلق على الجليد في حلبة وولمان. كان يُفترض بنيل أن يرافقه. أزمعت شارون على أن يذهبوا بعد التزحلق على الجليد إلى حديقة الحيوانات ويتناولوا بعد ذلك العشاء في تافرن أوف ذو غرين. لكنّ نيل زعم في الدقيقة الأخيرة أنه يشعر بالمرض ولازم المنزل. لم يكن يحبّها، كان هذا جليًّا.

«حسنًا يا آنستي.»

«ماذا؟ آسفة.» كانت السيارة تنعطف نحو الشارع الخامس والتسعين. قالت للسائق: «المنزل الثالث يسارًا.» كانت تقيم في شقّة أرضيّة ذات حديقة في مبنى حجريّ مرمّم.

توقّفت سيّارة الأجرة أمام المنزل. نظر السائق، وهو رجل نحيل خطّ شعره الشيب، نحوها متسائلًا، وقال لها: «سيّدتي، لا شيء يمكنه أن يكون بهذا السوء، تبدين في غاية الإحباط».

حاولت الابتسام وأجابت: «أظنه أحد تلك الأيّام العصيبة». ألقت نظرة على العدّاد، وبحثت في جيبها عن المال، وأضافت إليه بقشيشًا سخيًّا.

مدّ السائق يده إلى الخلف وفتح لها الباب، وقال: «هذا الطقس سيجرّ الكثيرين إلى الكآبة بحلول ساعة الذروة، هذا على افتراض أن الثلج سيبدأ حقًا بالانهمار. إذا كنت ذكيّة، فستلازمين منزلك من الآن فصاعدًا».

«سأقود سيارتي إلى كونكتيكت لاحقًا.»

«أن تقومي أنت بذلك خير من أن أقوم به أنا يا سيدتي، شكرًا.»

كان من الواضح أنّ آنجي، عاملة التنظيف التي تعمل لديها صباحين في الأسبوع، قد غادرت المنزل. شمّت رائحة الليمون الخفيفة التي تميّز دواء التلميع، ورأت أن المدفأة قد نُظّفت والنباتات قد شُذّبت ورُويت. وككلّ مرة، كانت الشقّة، بطابعها المريح، تبدو وكأنّها تحتفي بشارون. فالسجّادة الشرقيّة القديمة التي كانت لجدّتها ازدادت غنى وسط رقّة اللونين الأزرق والأحمر. واستخدمت اللون الأزرق لإعادة تنجيد الأريكة والكرسيّ اللذين اشترتهما مستعملين، بإتقان يتميّز بكثير من الشغف استغرق نحو أربع نهايات أسبوع لكنّ النتيجة كانت ممتازة. أمّا الصور وطبعات اللوحات على الجدران وفوق المدفأة فقد انتقتها واحدة واحدة، في المتاجر الصغيرة لبيع الأثريّات، وفي المزادات العلنيّة، وفي رحلاتها إلى الخارج.

كان ستيف يحبّ هذه الغرفة. وكان يلاحظ دائمًا أصغر تغيير يطرأ عليها. قال لها: «أنت مرهفة في تجميل المنازل.»

سارت تلقائيًا إلى غرفة النوم وبدأت تخلع ملابسها. أرادت أن تستحمّ وتغيّر ثيابها وتعدّ الشاي ثمّ تحاول أن تأخذ قسطًا من النوم. في تلك اللحظة كانت عاجزة حتى عن التفكير بشكل سليم ومتماسك.

كانت الساعة حوالى الثانية عشرة حين دخلت فراشها، وضبطت جرس المنبّه على الثالثة والنصف. جافاها النوم طويلًا. رونالد طومبسون. من قبل، كانت متأكّدة جدًا من أنّ الحاكمة ستخفّف حكمه. لا شكّ في أنّه كان مذنبًا، والكذب في هذا الشأن ألحق به الأذى بلا شكّ. لكن، ما خلا المخالفة الخطيرة الأخرى التي

ارتكبها في عامه الخامس عشر، كان سجلّه العدليّ جيّدًا. كما أنّه لا يزال فتيًّا جدًّا.

ستيف. أمثال ستيف هم من كانوا يصنعون الرأي العام. وكانت الشهرة التي تحيط بستيف من حيث الاستقامة وحسن السلوك هي التي تجعل الناس يصغون إليه.

هل كانت تحبّ ستيف؟

نعم.

كم كانت تحبّه؟

كثيرًا، كثيرًا جدًّا.

هل كانت تريد الزواج به؟ كان عليهما أن يتحادثا في هذا الشأن مساء اليوم. عرفت أن ستيف أراد منها أن تبقى في منزله لهذا السبب. وكان توّاقًا إلى أن يبدأ نيل بتقبّلها. لكنّ ذلك ما كان لينجح؛ فلا يمكن فرض العلاقة بالقوّة. كان نيل يبالغ في تحفظّه حيالها إلى درجة الرفض. أكان السبب أنه لم يحبّها أم أنّ تلك كانت لتكون ردّة فعله مع أيّة امرأة تبعد اهتمام والده عنه؟ لم تكن واثقة من الإجابة.

هل كانت تريد العيش في كارلي؟ كانت تحبّ نيويورك كثيرًا، كانت تحبّها سبعة أيّام في الأسبوع. لكنّ نيل لن يوافق قطّ على نقل نيل إلى المدينة.

كانت قد بدأت بتحقيق الشهرة في الكتابة، وكتابها في طبعته السادسة. نُشر لأوّل مرّة بغلاف ليّن؛ فما من دار نشر للكتب العالية الشأن أبدت اهتمامها به لكنّ النقد والمبيعات التي لقيها كانت جيّدة على نحو غير متوقّع.

هل هذا هو الوقت المناسب للزواج؟ للزواج برجل يمتعض ابنه منها؟

ستيف. لامست وجهها بغير وعي منها، وتذكّرت إحساسها بتينك اليدين الكبيرتين والناعمتين تدفّئانه وهو يودّعها صباح اليوم. كان انجذاب واحدهما إلى الآخر كبيرًا، كبيرًا جدًا...

لكن كيف لها أن تقبل الناحية العنيدة، غير المساومة في شخصيّته حين يتّخذ رأيًا في قضيّة ما؟

أخيرًا غلبها النعاس. وفي الحال تقريبًا راحت تحلم. حلمت بأنها تكتب مقالة وبأن عليها إنهاءها. كان مهمًّا جدًّا أن تنهيها. لكنّ ضغطها الشديد والمحموم على مفاتيح الآلة الكاتبة لم يكن ينجح في طباعة أيّ حرف على الورقة. ثمّ رأت ستيف في الغرفة، وكان يجرّ فتىً من ذراعه. كانت هي لا تزال تحاول جعل الكلمات تظهر على الورقة. أجلس ستيف الفتى وراح يقول له بدون توقّف: «أنا آسف جدًّا لكنّ هذا ضروريّ، يجب أن تفهم أن هذا ضروريّ». وحين حاولت شارون أن تصرخ، قيّد ستيف ذراعَي الفتى وساقيه بالأغلال الحديدية وبحث عن مفتاح كهربائيّ.

استيقظت شارون على صوت مبحوح، كان صوتها، وهي تصرخ «لا... لا... لا...»

6

عند السادسة إلّا خمس دقائق كان الأشخاص القليلون في شوارع كارلي يخرجون مسرعين من سياراتهم إلى المتاجر، لا يشغل ذهنهم سوى الليلة المثلجة والعاصفة.

لم يلاحظ أحد قطّ وجود الرجل الواقف في الظلال بقرب حافّة موقف السيارات التابع لمطعم كابن. كانت عيناه تجوبان المنطقة فيما الثلج ينهال على وجهه شديدًا لا يرحم. مضى على وجوده هناك نحو عشرين دقيقة وكانت قدماه تتجمّدان.

حرّك قدميه متململًا ولامس إصبع قدمه الكيس المصنوع من النسيج الغليظ. تحسّس الأسلحة في جيب معطفه. كانت عند أطراف أصابعه فهزّ رأسه راضيًا.

توقّع أن يخرج الزوجان لوفتس من المنزل في أيّة دقيقة. اتّصل بالمطعم وأكّد حجز الساعة السادسة. كانا ينويان تناول العشاء ثمّ الذهاب لمشاهدة النسخة الأصليّة لفيلم «ذهب مع الريح» الذي أنتجه سلزنيك. كان الفيلم يُعرض في صالة ساحة كارلي التي تقع في الجهة المقابلة من الشارع عينه حيث هو، على مسافة بعيدة

قليلًا عنه. كان عرض الرابعة قد بدأ. هما سيشاهدان عرض السابعة والنصف.

تجمّد في مكانه. كانت ثمّة سيارة آتية وانعطفت لتدخل موقف السيارات. اختبأ خلف أشجار البيسيّة التي تحيط بالمنطقة. كانت تلك سيارة الستايشن الخاصة بالزوجين. راقبهما يركنان السيارة بقرب مدخل المطعم. خرج السائق واستدار حول السيارة لمساعدة زوجته التي كانت تطأ الثلج الزلق متعثّرة. مشيا بخطوات متثاقلة مرتبكة وقد انحنى جسداهما لمواجهة الريح ووضع الزوج يده تحت مرفقها. أسرعا بحذر نحو باب المطعم.

انتظر حتى باتا في الداخل بأمان، ثمّ انحنى وحمل كيسه. دار بسرعة حول موقف السيارات، حريصًا على البقاء خلف الشجيرات. اجتاز الشارع وأسرع ليتوارى خلف صالة السينما.

كان في موقف السيارات نحو خمسين سيارة. توجّه إلى سيارة شفروليه سياحية بنيّة اللون يعود طرازها إلى ثماني سنوات خلت، مركونة بشكل غير بارز في الزاوية اليمنى البعيدة.

فتح قفل الباب بسرعة وانسلّ إلى المقعد ووضع المفتاح في فتحة الإشعال وأدار المحرّك الذي هدر بهدوء. افترّ وجهه عن ابتسامة خفيفة وألقى نظرة عامّة أخيرة على المحيط المقفر، ثمّ انطلق بالسيارة. لم يشعل مصابيح السيارة وهو يتجاوز صالة السينما ليبلغ الشارع الهادئ. وبعد أربع دقائق دخلت السيارة البنيّة السيّئة الحال إلى الزقاق الدائريّ المفضي إلى منزل بيترسون في دريفتوود لاين، وتوقّفت خلف سيارة فيغا حمراء صغيرة.

7

عادة ما تستغرق الرحلة بالسيّارة من مانهاتن إلى كارلي أقلّ من ساعة، لكنّ التوقّعات بسوء الطقس دفعت بالأشخاص العائدين إلى منازلهم إلى أن يهرعوا باكرًا إلى سيّاراتهم. ساهم تزايد الازدحام وظهور بقع الجليد على الطرقات العريضة في جعل رحلة شارون إلى منزل ستيف تدوم نحو ساعة وعشرين دقيقة. لكنّ ذهن شارون كان منشغلًا تمامًا عن هذا التأخير المثير للغضب. ظلّت طوال الطريق إلى منزل ستيف تتمرّن على ما ستقوله له، «لن تنجح علاقتنا... تفكيرانا مختلفان... لن يتقبّلني نيل أبدًا... سيكون من الأسهل ألاّ نتقابل بعد اليوم...»

كان شعور مبهم بالاكتئاب يعتري شارون كلّما رأت منزل ستيف ذي الطراز العائد إلى حقبة المستعمرات، والذي تكسوه ألواح خشبيّة بيضاء تتخلّلها مصاريع أبواب ونوافذ سوداء. كان ضوء سقيفة المدخل ساطعًا جدًّا، والشجيرات المحيطة بقاعدة المنزل عالية جدًّا. تعرف شارون أنّ ستيف ونينا انتقلا للإقامة في هذا المنزل قبل أسابيع قليلة فقط من موتها، وأنّه لم يقم بعد ذلك قطّ بأيّ من أعمال التجديد التي خطّطا لها حين اشتريا المنزل.

ركنت سيّارتها أمام درجات سقيفة المدخل تمامًا، وهيّأت نفسها في لاوعيها لاستقبال السيدة لوفتس السريع والحارّ، ولبرودة نيل. لكّنها فكّرت في أنّ هذه ستكون زيارتها الأخيرة، فزادت هذه الفكرة من اكتئابها.

من الواضح أنّ السيّدة لوفتس كانت تراقبها، فما إن ترجّلت من السيّارة حتّى انفتح باب المنزل بقوّة. وقفت المرأة بجثّتها الضخمة التي تملأ المدخل وقالت مرحّبة: «آنسة مارتن، كم يسرّني أن أراك». كان وجهها الصغير الملامح والشبيه بوجه السنجاب، يتّقد ببريق عينين متفحّصتين. وكانت ترتدي سترة من الصوف الثقيل الأحمر، ذي المربّعات، وتنتعل واقيين مطّاطيّين فوق حذاءيها.

أجابت شارون: «كيف حالك، يا سيّدة لوفتس؟» ثمّ تجاوزتها ودخلت المنزل. كانت لمدبّرة المنزل عادة الوقوف قريبة جدًّا ممّن تخاطبه، لدرجة أنّ كلّ لقاء بها كان يثير الشعور بالاختناق. تراجعت خطوة واحدة بالكاد أتاحت لشارون بالمرور.

قالت السيّدة لوفتس: «لطف كبير منك أن تأتي، دعيني آخذ رداءك. أنا أحبّ الأردية، فهي تجعل المرأة تبدو رقيقة وذات أنوثة. ألا تظنّين ذلك؟»

وضعت شارون محفظة يدها وحقيبتها على أرض الردهة، ونزعت قفّازيها قائلة: «أظنّ ذلك، لم أفكّر في الأمر حقًّا...» ثمّ ألقت نظرة إلى غرفة المعيشة وتمتمت: «أوه...»

كان نيل جالسًا معقود الساقين على السجّادة، والمجلّات مبعثرة حوله، وفي يده مقصّ غير حادّ. كان لشعره الرمليّ اللون عينه الذي لشعر ستيف، وكان يسقط على جبينه تاركًا عنقه المنحني نحيلًا

ومعرّضًا للخطر. برز عظم كتفيه الهزيل تحت قميص من الصوف الرقيق، بنيّ وأبيض. وبدا وجهه نحيلًا وشاحبًا ما خلا خطوطًا حمراء حول عينيه البنّيتين الكبيرتين اللتين ترقرقت فيهما الدموع.

قالت له السيّدة لوفتس بلهجة الآمر: «نيل، ألقِ التحيّة على شارون.» فرفع عينيه بغير اكتراث، وقال بصوت خافت ومرتعش: «مرحبًا يا شارون.»

بدا صغيرًا جدًّا وهزيلًا وكئيبًا. كانت شارون تتوق لتضمّه بذراعيها لكنّها عرفت أنّه سيبعدها عنه إذا ما فعلت ذلك.

أصدرت السيدة لوفتس بلسانها صوت نقرة، وقالت: «أجهل ما المشكلة. بدأ يبكي منذ دقائق قليلة، ولم يخبرني ما السبب. لا أحد يعرف ما يدور في ذاك الرأس الصغير. لعلّك أنت، أو أباه، تستطيعان معرفة ما الأمر». ثمّ صاحت بصوت حادّ جدًّا: «بيلللللل...»

قفزت شارون من مكانها، وأذناها تطنّان. ثمّ مضت مسرعة إلى غرفة المعيشة ووقفت أمام نيل. سألته: «ماذا تقصّ؟»

أجابها نيل من دون أن ينظر إليها من جديد: «فقط بعض صور تافهة للحيوانات.» أدركت أنّه يشعر بالإحراج إذا ما رآه أحد يبكي.

سألته: «دعني آتي بكأس نبيذ وأساعدك. أتريد كوكاكولا أو شيئًا آخر؟

أجاب نيل متردّدًا: «لا.»، ثمّ أضاف: «شكرًا.»

قالت السيّدة لوفتس: «اختاري ما تشائين. تصرّفي وكأنّك في منزلك. تعرفين مكان كلّ شيء. أعددتُ كلّ ما كتبه السيد بيترسون على اللائحة، شرائح اللحم، والسلطة، والهليون والمثلّجات. كلّ شيء في الثلاّجة. أعتذر عن عجلتي، لكنّنا نريد تناول العشاء قبل مشاهدة الفيلم. بيل...»

أجاب بيل بصوت لا يخلو من الانزعاج: «أنا آتٍ يا دورا.» ثم صعد درج قبو المنزل وأضاف: «أردت فقط التحقّق من النوافذ والتأكّد من أنّها مقفلة. مرحبًا، آنسة مارتن».

أجابته شارون: «كيف حالك، سيّد لوفتس؟»

كان رجلًا قصير القامة، غليظ الرقبة، في أواسط عقده السابع وذا عينين زرقاوين رطبتين. امتلأ خدّاه ومنخراه ببقع حمراء من الأوعية الدمويّة الصغيرة المنفجرة، كانت بمثابة الدليل القاطع الذي ذكّر شارون حين رأته بقلق ستيف من إسرافه في شرب الكحول.

قالت المدبّرة بصوت ينمّ عن نفاد صبرها: «هيّا يا بيل! تعرف كم أكره أن أزدرد طعامي، وقد تأخّرنا. يبدو لي أنّك لا تصحبني إلى الخارج إلّا في ذكرى زواجنا، وأظنّك تستطيع أن تسرع قليلًا...»

تنهّد بيل بقوّة وقال: «حسنًا، حسنًا». ثمّ أومأ برأسه لشارون وقال لها: «إلى اللقاء لاحقًا، آنسة مارتن».

لحقت به شارون إلى الردهة وقالت: «أتمنّى لكما وقتًا ممتعًا». ثمّ أضافت: «آه، نعم، ذكرى زواج سعيدة».

قالت السيّدة لوفتس: «اعتمر قبّعة يا بيل، وإلّا مُتَّ... ماذا؟ آه، شكرًا، شكرًا يا آنسة مارتن. حالما أجلس وأستريح وآكل شيئًا ما، سأبدأ بالشعور في أنّها ذكرى زواج. أمّا الآن، ومع كلّ هذا الاستعجال...»

«دورا، أنت مَن تريدين مشاهدة الفيلم.»

«حسنًا، لديّ كلّ شيء. أتمنّى لكما وقتًا ممتعًا. نيل، أرِ شارون بطاقة علاماتك. إنّه ولد ذكيّ جدًّا، ولا يثير المتاعب، أليس كذلك يا نيل؟ أعطيته وجبة خفيفة تغنيه من الجوع حتّى وقت العشاء، لكنّه لم يأكل منها شيئًا يُذكر. إنّه لا يأكل ما يُشبع عصفورًا. حسنًا يا بيل، حسنًا.»

أخيرًا، مضيا في طريقهما. ارتجفت شارون حين اندفعت هبّة هواء مثلجة إلى الردهة قبل أن تستطيع إقفال الباب وراءهما. عادت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة ومدّت يدها نحو زجاجة نبيذ «بريستول كريم»، تردّدت، ثمّ أخرجت علبة حليب. لعلّ نيل قال إنّه لا يريد شيئًا لكنّها عزمت على أن تعدّ له فنجان كاكاو ساخنًا.

وقفت ترتشف نبيذها في انتظار أن يسخن الحليب، وراحت تنظر من حولها. كانت السيدة لوفتس تبذل ما بوسعها، لكنّها لم تكن مدبّرة منزل جيّدة، فالمطبخ يفتقر إلى النظافة. وقد تناثر فتات الخبز حول محمّصة الخبز على بلاطة التحضير في المطبخ، وبدا واضحًا أنّ سطح الفرن بحاجة إلى التنظيف جيّدًا. كان المنزل بحاجة لعمليّة تجميل شاملة.

كان العقار الذي يملكه ستيف يمتدّ إلى لونغ آيلاند ساوند. فكّرت شارون: لو كنت مكانه، لقطعتُ كلّ تلك الأشجار التي تحجب النظر، وبنيت جدرانًا للسقيفة الخلفيّة فجعلتها جزءًا من غرفة المعيشة بنوافذ ترتفع من الأرض إلى السقف، وهدمت معظم الجدران لأضع بارًا خاصًا لتناول الفطور... لكنّها لجمت نفسها بحدّة. لم يكن هذا الأمر يعنيها. إلّا أنّ المنزل ونيل، وحتّى ستيف، كان يبدو عليهم الإهمال الكبير.

لكنّ التغيير لم يكن شأنها. وأحسّت بالوحدة الكئيبة تملأ روحها لفكرة عدم العودة لرؤية ستيف، وعدم انتظار اتّصاله، وعدم الشعور بذراعيه القويّتين والرقيقتين تطوّقانها، وعدم رؤية تلك النظرة الخالية من الهموم وهي تنير وجهه فجأة حينما تقول ما يعتبره طريفًا. إذً. هذا هو ما يشعر به المرء حين يكون عليه التخلّي عن شخصٍ ما.

وفكّرت في السيّدة طومبسون. ترى ما قد يكون شعورها لمعرفتها بأنّ ولدها الوحيد سيموت بعد غد؟

كانت تعرف رقم هاتف السيّدة طومبسون. وقد قابلتها بعدما قرّرت أن تتدخّل في قضيّة رون. وقد حاولت عدّة مرّات خلال الرحلة الأخيرة أن تتّصل بها لتخبرها أنّ عددًا كبيرًا من الأشخاص المرموقين وعدوا بالاتّصال بالحاكمة غرين لحثّها على الرأفة. لكنّها لم تجدها في منزلها قطّ. ربّما لأنّ السيّدة طومبسون كانت تعمل على إعداد عريضة لطلب الرأفة تحمل تواقيع ساكني مقاطعة فيرفيلد.

تلك المرأة المسكينة، بدت مفعمة بالأمل عندما زارتها شارون، ثمّ بدت مستاءة جدًّا عندما أدركت أنّ شارون لم تظنّ رون بريئًا.

لكن أيّة أمّ تستطيع أن تصدّق أنّ ابنها قادر على ارتكاب جريمة؟ لعلّ السيّدة طومبسون في منزلها الآن. ربّما من المفيد لها أن تكلّم شخصًا عمل على إنقاذ رونالد.

خفّفت شارون النار تحت القدر، ومضت إلى هاتف الجدار وطلبت الرقم. جاءها الردّ بعد الرنّة الأولى. وكان صوت السيّدة طومبسون هادئًا على نحو مفاجئ.

– آلو؟

– سيّدة طومبسون، أنا شارون مارتن. أتّصل بك لأعبّر عن أسفي، وأسألك إن كان هناك ما يسعني عمله...

ردّت المرأة بصوت أذهل شارون بالمرارة التي تغمره: «فعلت ما فيه الكفاية يا آنسة مارتن. إذا مات ابني يوم الأربعاء، أريدك أن تعرفي أنّني أحمّلك المسؤوليّة. توسّلتُ إليك لتبقي بعيدة عن هذا الأمر...»

– سيّدة طومبسون، أجهل ما تعنين.

– أعني أنّك في مقالاتك كلّها، لم تنفكّي تكتبين أنّ موضوع ذنب رونالد غير مشكوك فيه، ولكنّ تلك ليست هي المسألة. أمّا أنا فأقول: تلك هي المسألة يا آنسة مارتن!

ارتفعت حدّة صوت المرأة وكرّرت قائلة: «تلك هي المسألة!» ثمّ أضافت: «كان هناك كثيرون يعرفون ابني، ويعرفون أنّه غير قادر على إلحاق الأذى بأحد، وعملوا على استصدار قرار بالرأفة له، لكنّك أنت... أرغمت الحاكمة على عدم مراجعة قضيّته في أساسها، ليس إلّا... ما زلنا نحاول، ولا أعتقد أنّ الله سيفعل بي هذا. لكن إذا مات ابني، لا أظنّني سأكون مسؤولة عمّا قد أفعله بك.»

انقطع الاتّصال. وقفت شارون مصعوقة وهي تحملق في سمّاعة الهاتف بيدها. هل يمكن للسيّدة طومبسون أن تعتقد حقًّا...؟ ثمّ وضعت السمّاعة على قاعدتها، وجسدها مخدّر.

كاد الحليب يغلي في القدر على الفرن. مدّت يدها بحركة آليّة إلى علبة «كويك» في الخزانة، وأخذت منها ملعقة صغيرة ملأى أفرغتها في فنجان. صبّت فيه الحليب ثمّ حرّكته ووضعت القدر في المجلى وملأته ماءً.

اتّجهت إلى غرفة المعيشة، وهي مذهولة بما عناه هجوم السيدة طومبسون.

دقّ جرس الباب.

اندفع نيل إلى الباب قبل أن تستطيع منعه، وقال بصوت ينمّ عن الارتياح: «لعلّه أبي».

فكّرت شارون في أنّه لا يريد أن يكون معها على انفراد أبدًا. سمعته يفتح القفل المزدوج وشعرت بالخطر يسري في جسدها. نادته فجأة: «نيل، مهلًا، سَل من الطارق. أبوك يحمل مفتاحه.»

وضعت بسرعة فنجان الكاكاو وكأس النبيذ من يدها على طاولة بقرب المدفأة وأسرعت إلى القاعة.

أطاعها. كانت إحدى يديه على مقبض الباب، لكنّه تردّد وسأل: «مَن؟»

جاء الردّ من صوت يسأل: «هل بيل لوفتس هنا؟ أتيت بالمولّد الذي طلبه لقارب السيّد بيترسون.»

قال نيل لشارون: «لا بأس، السيّد لوفتس ينتظر هذا المولّد.»

أدار مسكة الباب، وشرع في فتحه حين دُفع إلى الداخل بعنف، فقذف بنيل إلى الجدار. نظرت شارون مذهولة إلى رجل يدخل إلى الردهة ويغلق الباب خلفه بسرعة خاطفة. سقط نيل أرضًا وهو يشهق. هرعت شارون إليه غريزيًا، وساعدته على الوقوف، ثمّ طوّقته بإحدى ذراعيها والتفتت لمواجهة الدخيل.

اشتعل في وعيها انطباعان متمايزان تمامًا. أحدهما، أحدثته النظرة المحدّقة اللماعة في عيني الغريب. والآخر، أحدثه المسدّس الرفيع والطويل الذي يصوّبه الرجل إلى رأسها.

8

دام الاجتماع في غرفة الاجتماعات في مجلّة «الأحـداث» حتّى السابعة وعشر دقائق مساء. وكان موضوع الحديث الأساسيّ تقرير نيلسون الصادر حديثًا، والذي كان إيجابيًا جدًّا للمجلّة. فاثنان من أصل ثلاثة من خرّيجي الجامعات الذين شملهم الاستطلاع في فئة الخمسة والعشرين إلى الأربعين عامًا، كانا يفضّلان مجلّة «الأحداث» على مجلّتي «تايمز» أو «نيوزويك». إضافة إلى ذلك، ارتفعت نسبة المبيعات اليوميّة والاشتراكات في المجلّة بمعدّل خمسة عشر بالمئة عن العام الفائت، وكانت حركة الإعلانات الإقليميّة الجديدة ناشطة بشكل جيّد.

في نهاية الاجتماع، وقف برادلي روبرتسون ناشر المجلّة، وقال: «أظنّنا نستطيع كلّنا أن نفتخر بهذه الإحصائيّات. نحن نجهد أنفسنا في العمل منذ نحو ثلاثة أعوام لكنّنا نجحنا. ليس من السهل حاليًّا إطلاق مجلّة جديدة، وبرأيي أنّ الإدارة الخلاّقة لستيف بيترسون كانت هي العامل الحاسم في نجاحنا».

بعد الاجتماع، نزل ستيف في المصعد مع الناشر، وقال له: «شكرًا من جديد يا براد، كانت كلماتك سخاءً كبيرًا منك».

هزّ العجوز كتفيه وأجابه: «بل كانت صدقًا منّي. لقد نجحنا يا ستيف. سنكون كلّنا قادرين على البدء بجني أرباح كبيرة عمّا قريب. وقد آن الأوان لذلك أيضًا. أعرف أنّ الأمر لم يكن سهلًا بالنسبة إليك».

ابتسم ستيف برغم تجهّم وجهه وقال: «لا، لم يكن سهلًا».

انفتح باب المصعد في ردهة الإستقبال.

– طابت ليلتك يا براد، عليّ أن أسرع لألحق بقطار السابعة والنصف...

– مهلًا يا ستيف، شاهدتك في برنامج «اليوم»، هذا الصباح.

– نعم.

– ظننتك كنت جيّدًا، وكذلك كانت شارون. أعترف بأنّني شخصيًّا أؤيّد تفكيرها.

– هذا شأن الكثيرين.

– إنّها تعجبني يا ستيف. وهي في غاية الذكاء، والجمال أيضًا، إنّها سيّدة حقيقيّة.

– أوافقك الرأي.

– ستيف، أعرف كم عانيت في السنتين الأخيرتين. لا أريد التطفّل على حياتك، لكنّ شارون ستكون مناسبة جدًّا لك... ولنيل. لا تدع أيّة مسألة، مهما كانت ملحّة، تقف بينكما.

أجاب ستيف بهدوء:

– أرجو ألاّ تقف بيننا أيّة مسألة. أقلّه سأستطيع الآن أن أعرض عليها ما هو أكثر من رجل ضيّق الحال ماليًّا مع عائلة جاهزة.

– ستكون محظوظة جدًّا بأن تحصل على كليكما، أنت ونيل! تعال، سيارتي في الخارج، سأوصلك إلى محطة غراند سنترال.

– ممتاز، شارون في منزلي ولا أريد أن يفوتني القطار.

كانت سيارة برادلي، وهي من طراز ليموزين، عند الباب. وسرعان ما بدأ السائق ينسلّ عبر ازدحام السير الشديد في وسط المدينة. ألقى ستيف بظهره إلى الخلف وتنهّد لا شعوريًا. قال له برادلي:

– تبدو متعبًا يا ستيف، لا بدّ من أنّ قضيّة إعدام طومبسون قد أجهدتك.

هزّ ستيف كتفيه موافقًا وقال:

– صحيح. من الطبيعيّ أنّها تعيد إثارة كلّ الذكريات. ما من صحيفة في كونكتيكت إلّا وعادت لتروي... قصّة موت نينا. أعرف أنّ الأطفال يتحدّثون في الأمر في المدرسة بلا شكّ. يقلقني ما على نيل أن يعانيه. أنا في غاية الأسف لأجل والدة طومبسون... ولأجله هو أيضًا.

– لماذا لا تأخذ نيل وتبتعدان أيّامًا قليلة حتّى ينتهي هذا الأمر؟

فكّر ستيف في الأمر، وأجاب: «قد أفعل هذا. لعلّها فكرة حسنة».

توقّفت سيارة الليموزين عند مدخل محطّة غراند سنترال من ناحية جادّة فاندربيلت. هزّ برادلي روبرتسون رأسه وقال: «أنت أصغر من أن تتذكّر يا ستيف، لكنّ محطّة غراند سنترال كانت، في ثلاثينيّات القرن الماضي، محور حركة النقل في هذا البلد. حتّى أنّه كان هناك مسلسل إذاعيّ...»

أغمض عينيه وتابع: «محطّة غراند سنترال، حيث تتقاطع عيون حياة خاصّة... تلك كانت العبارة الترويجيّة للمسلسل».

ضحك ستيف وقال فيما كان يفتح الباب: «ثمّ أتى عصر الطائرات النفّاثة، أشكر لك إيصالي».

أخذ دفتر الراكب الخاصّ به، وسار مسرعًا إلى داخل المحطّة الطرفيّة. كانت خمس دقائق تفصله عن موعد انطلاق القطار، فقرّر الاتّصال بالمنزل ليبلغ شارون أنّه سيصل بقطار السابعة والنصف بالتأكيد.

هزّ كتفيه وفكّر في سرّه: «لا تخدع نفسك، أنت فقط تريد مكالمتها لتتأكّد من أنّها لم تعدل عن الحضور إلى منزلك». دخل كشك هاتف. لم يكن يحمل الكثير من الفكّة وطلب من عاملة المقسّم تسجيل المكالمة على حساب المتلقّي.

رنّ الهاتف مرّة... ثمّ ثانية... فثالثة. فقالت له عاملة المقسّم:

– أنا أطلب رقمك لكن لا إجابة.

– لا بدّ من وجود أحد في المنزل. واصلي المحاولة من فضلك.

– طبعًا، سيّدي.

– هلاّ تتحقّقين من الرقم؟ هل أنت واثقة من أنّنا نتّصل بالرقم 203-565-1313؟

– سأطلب الرقم مجدّدًا يا سيّدي.

حدّق ستيف في سمّاعة الهاتف في يده وتساءل: «أين قد يكونان؟ إذا لم تأتِ شارون، ألعلّ الزوجين لوفتس طلبا من الزوجين بيري أن يبقى نيل معهما؟»

تابع مفكّرًا: «لا، لو أنّ شارون قرّرت عدم الذهاب إلى منزله، لاتّصلت به. ماذا لو أنّ نيل أصيب بنوبة ربو؟ ماذا لو أنّه نُقل إلى المستشفى على عجل، مرّة جديدة؟»

«لن يكون مفاجئًا أن يصاب بنوبة ربو إذا ما سمع في المدرسة حديثًا عن إعدام طومبسون.»

عانى نيل الكوابيس بوتيرة أكبر مؤخّرًا.

كانت الساعة السابعة وتسع وعشرون دقيقة. والقطار سينطلق بعد دقيقة واحدة. إذا حاول الاتّصال بالطبيب أو المستشفى أو بمنزل الزوجين بيري، فاته القطار واضطرّ إلى انتظار القطار التالي خمسًا وأربعين دقيقة.

لعلّ العاصفة سبّبت مشاكل في الخطوط الهاتفيّة. والأعطال الهاتفيّة لا تظهر عادة في الحال.

بدأ ستيف بطلب رقم منزل عائلة بيري، ثمّ غيّر رأيه. وضع السّماعة على علاّقتها، وأسرع عبر المحطّة بخطوات طويلة تكاد تكون وثبًا. هبط الدرجات اثنتين اثنتين نحو المنصّة، وبلغ القطار فيما أبوابه تُغلَق.

في الوقت عينه، مرّ رجل وامرأة أمام كشك الهاتف الذي تركه قبل لحظات. كانت المرأة ترتدي معطفًا رماديًّا طويلًا رثًّا، ورأسها مغطّى بمنديل قذر ذي لون قريب من الأزرق. وكانت ذراع الرجل تتأبّط ذراعها. وتحت ذراعه الأخرى، علّق كيسًا ثقيلًا من النسيج الغليظ.

9

حدّقت شارون في اليدين القويّتين اللتين تحملان المسدّس، وفي العينين اللتين تتنقّلان من جهة إلى أخرى، في غرفة المعيشة، وعلى الدرج، وفوق جسدها. وفي انعطافة ذراعها حول نيل، أحسّت بجسده الصغير يرتجف بعنف، فشدّته إليها بقوّة.

همست قائلة: «ماذا تريد؟»

أجاب: «أنت شارون مارتن.»

قال لها ذلك، وكأنّه يذكر أمرًا بيّنًا، بصوت رتيب خال من أيّ تعبير. أحسّت شارون بانقباضة تطبق على حلقها فتغلقه. حاولت أن تبتلع. سألته من جديد «ماذا تريد؟» سمعت الصفير الخفيف والمتواصل في أنفاس نيل. ماذا لو أنّ الرعب سيسبّب له نوبة ربو؟... عرضت المساعدة، قائلة: «في حقيبتي نحو تسعين دولارًا...»

«اخرسي!»

أثارت فيها كلماته الرتيبة القشعريرة. ألقى الغريب كيس النسيج الغليظ الذي كان يحمله. كان كيسًا ضخمًا، من النوع الذي يستعمله الجنود. مدّ يده إلى جيبه وأخرج بكرة من الخيطان

السميكة، ولفّة من الضمادات العريضة. ألقاها بقربها أرضًا، وقال لها آمرًا: «اعصبي عيني الصبيّ وقيّديه.»

– لا، لن أفعل.

– خير لك أن تفعلي.

نظرت شارون إلى نيل الذي كان يحملق في الرجل. بدت عيناه وكأنّما يغشاهما الضباب، وكان بؤبؤاه ضخمين. تذكّرت أنّه يعاني صدمة عميقة منذ موت أمّه.

«نيل، أنا...» وتساءلت كيف يمكنها أن تساعده، أن تطمئنه.

قال الدخيل بلهجة الأمر الحازم لنيل: «اجلس.» نظر الطفل متوسّلًا إلى شارون، ثمّ جلس طائعًا على الدرجة السفلى في الدرج.

ركعت شارون إلى جانبه، وقالت له: «لا تخف يا نيل، أنا معك». وبيدين مرتبكتين أخذت إحدى الضمادات ولفّتها حول عينيه، ثمّ ربطتها خلف رأسه.

رفعت نظرها، كان الدخيل يحدّق بنيل، مصوّبًا نحوه مسدّسه. سمعت صوت نقرة، فشدّت نيل إليها تحميه، وقالت: «لا... لا... لا تفعل».

نظر إليها المقتحِم، وأخفض المسدّس ببطء، حتى تركه يتدلّى من يده. فكّرت في سرّها: كان سيقتل نيل، كان مستعدًّا لقتله...

قال لها بلهجة آمرة مشوبة بالحميميّة: «قيّدي الصبيّ يا شارون.»

أطاعته بيدين تبحثان مرتبكتين عن الحبال.

قيّدت معصمَي نيل معًا، محاولة أن تترك الأربطة رخوة بقدر يكفي للدم بأن يسري بحريّة. وبعدما ربطت معصميه، شدّت بيديها على يديه.

مدّ الغريب يده نحوها وقطع طرف الحبل بسكّين. ثمّ قال: «بسرعة... قيّدي رجليه!»

سمعت حدّة في نبرة صوته، فأطاعت بسرعة. كانت ركبتا نيل تصطكّان، ما يجعل ساقيه تهتزّان متباعدتين. لفّت الحبل حول كاحليه وعقدته.

كمّي فمه!

كادت أن تقول له: «سيختنق، إنّه يعاني الربو...» لكنّ احتجاجها تلاشى على شفتيها. تغيّر وجه الرجل، وبات أكثر بياضًا وتوتّرًا. وراح عظم وجنتيه المرتفع يهتزّ تحت الجلد المشدود. كان الرجل على وشك أن يصاب بالذعر. كمّت يائسة فم نيل، وتركت الرباط رخوًا بالقدر الذي تجرّأت عليه. ليت نيل لم يقاوم...

أبعدتها يد الرجل عن الطفل. فتعثرت وسقطت أرضًا. انحنى الرجل فوقها وغرز ركبته في ظهرها. شدّ ذراعيها إلى خلف ظهرها، وشعرت بالحبال تقرص معصميها. فتحت فمها لتعترض، فأحسّت بلفافة من القماش تملأه. لفّ الرجل بعنف شريطًا من الشاش فوق فمها وخدّيها، وعقده خلف رأسها.

لم تستطع أن تتنفّس... رجاءً... لا... وضع يديها على فخذيها وربطهما. ثمّ حزم ساقيها، وربطهما بالحبل الذي قصّ جلد حذائها الليّن.

أحسّت بأنّه يرفعها، وسقط رأسها إلى الخلف. ماذا سيفعل بها؟

فُتح الباب الأماميّ، فلسع الهواء البارد والرطب وجهها. كانت تزن 67 كيلوغرامًا، لكنّها شعرت بالخاطف يندفع ليهبط درجات السقيفة الزلقة، وكأنّها لاتزن شيئًا. كان الظلام حالكًا. لا شكّ بأنّه أطفأ

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
@ktabpdf .. قناتنا على تيليجرام

أنوار الخارج. أحسّت بكتفيها ترتطمان بشيء بارد ومعدنيّ. إنّها سيّارة. حاولت أن تستنشق الهواء بعمق عبر منخريها، وأن تكيّف عينيها مع الظلمة. لا بدّ لها من أن تنقّي أفكارها، وأن تكفّ عن الذعر، وتفكّر.

سمعت شارون صرير باب يُفتح، وأحسّت بنفسها تهوي. اصطدم رأسها أثناء سقوطها بمنفضة سجائر مفتوحة، وتلقّى مرفقاها وكاحلاها قوّة الصدمة حين بلغت الأرضيّة التي تنبعث منها رائحة تعفّن. كانت في الجزء الخلفيّ من سيّارة ما.

سمعت جلبة خطوات تبتعد. كان الرجل يعود إلى المنزل. نيل! ماذا سيفعل بنيل؟ حاولت شارون مسعورة أن تحرّر يديها من قيدهما، فأحسّت بالألم يعتصر ذراعيها. وانغرز الحبل القاسي في معصميها. فكّرت في الطريقة التي حدّق بها المقتحِم إلى نيل، وكيف فتح مغلاق الأمان في مسدّسه.

مرّت دقائق. أرجوك يا ربّ! أرجوك... سمعت صوت باب ينفتح، وجلبة أصوات تقترب من السيّارة. انفتح الباب الأماميّ الأيمن. اعتادت عيناها الظلمة، واستطاعت أن تلمح شكل الرجل. كان يحمل شيئًا ما... كيس النسيج الغليظ. ربّاه! كان نيل في ذلك الكيس! كانت تعرف ذلك.

انحنى إلى داخل السيارة، وألقى الكيس على المقعد، ثمّ دفعه إلى الأرضيّة. سمعت شارون السقطة المكتومة. سيؤذي نيل. سيؤذيه. ثمّ انغلق باب، وأسرعت الخطوات تدور حول السيّارة. انفتح باب السائق، ثمّ انغلق. تحرّكت الخيالات. سمعت صوت تنفّس صعب. كان ينحني نحوها وينظر إليها.

أحسّت شارون بشيء يسقط عليها، ويخدش خدّها... كان غطاء ما أو معطفًا. حرّكت رأسها محاولة تحرير وجهها من الرائحة الخانقة واللاسعة التي أثارها فيه تعرّقه التَفِه.

دار المحرّك، وبدأت السيّارة تبتعد.

حاولت أن تركّز على الاتّجاهات، وتتذكّر كلّ تفصيل. فالشرطة قد تريد معرفة ذلك. استدارت السيارة يسارًا إلى الشارع. كان البرد شديدًا جدًّا، وكانت شارون ترتعش، فيما أخذت اهتزازات السيّارة تشدّ عقد قيودها، وتجعل الحبال تنغرز في ساقيها وذراعيها ومعصميها. أطلقت أطرافها صيحة احتجاج: كفّي عن الحراك! هدوءًا، كوني هادئة، لا تستسلمي للذعر.

الثلج. إن واصل الثلج الانهمار، فقد تبقى آثار السيارة لبعض الوقت. لكن لا، كان كثير من المطر المتجمّد ينهمر مع الثلج. وكانت تسمع صوته على النوافذ. أين يذهبون؟

كانت كمامتها تخنقها. حاولت أن تتنفّس بهدوء عبر منخريها. نيل. كيف يمكنه أن يتنفّس بداخل ذلك الكيس؟ قد يختنق.

ازدادت سرعة السيّارة، أين يأخذهما؟

10

لم يكن روجر بيري يرى شيئًا برغم تحديقه عبر نافذة غرفة المعيشة في منزله في دريفتوود لاين. كانت ليلة سيّئة جدًّا ومن الجيّد أن يكون المرء في منزله. لاحظ أنّ سرعة انهمار الثلج زادت، حتّى في الدقائق الخمس عشرة التي انقضت منذ دخوله المنزل.

الطريف أنّ إحساسًا بالخشية أثار توتّره طوال النهار. منذ أسابيع، لا تبدو غلندا بحال جيّدة. هذا هو الأمر. لطالما كان يغيظها قائلًا إنّها من النساء المحظوظات اللواتي يزددن جمالًا كلّما كبرن عامًا. وشعرها، الذي بات لونه فضّيًا تمامًا، زاد وعلى نحو لافت من إبراز عينيها الزرقاوين كزهرة الحقول، ولون بشرتها الجميل. كان لخصرها المقاس 14 عندما كان ولداها يكبران، لكنّها نحلت منذ عشر سنوات ليصبح مقاس خصرها 8. وكانت تمزح قائلة إنّها تسعى لأن تبدو جميلة في سنوات شيخوختها. لكّنه لاحظ صباح ذلك اليوم، عندما حمل القهوة إليها في السرير، كم هي شاحبة، وكم يبدو وجهها هزيلًا. اتّصل بالطبيب من مكتبه، واتّفقا على أنّ إعدام يوم الأربعاء هو ما يقضّ مضجعها. كانت شهادتها قد ساعدت على إدانة الفتى طومبسون.

هزّ روجر رأسه. كانت تلك مسألة مخيفة. مخيفة لذلك الفتى التعيس الحظّ، كما لكلّ من كان على صلة بها. ستيف... ونيل الصغير... ووالدة الفتى طومبسون... وغلندا. لم تكن غلندا تستطيع تحمّل هذا القدر من الضغط. أصيبت بأزمة قلبيّة بعد شهادتها في المحكمة. وكان روجر يقاوم خوفه من أنّ أزمة أخرى قد تقتلها. كانت غلندا في الثامنة والخمسين من عمرها فقط. والآن، وبعد أن كبر ولداهما، أراد قضاء هذه السنوات معها. لم يكن يستطيع العيش بدونها.

كان مسرورًا لأنّها وافقت أخيرًا على توظيف مدبّرة منزل يوميّة. كانت السيّدة فوغلر تبدأ عملها في الصباح، وتعمل خلال أيّام الأسبوع من التاسعة وحتّى الواحدة. فتستطيع غلندا أن تستريح أكثر من دون أن تشغل بالها بالمنزل.

استدار حين سمع غلندا تدخل الغرفة. كانت تحمل صينيّة صغيرة.

مكتبة الرمحي أحمد

احتجّ قائلًا: «كنت أنوي أن أفعل ذلك بنفسي.»

قالت: «لا بأس، تبدو بحاجة إلى هذه.»

أعطته كأس بوربون عتيقة الطراز، ووقفت بجانبه عند النافذة، تؤانسه.

قال لها: «أنا فعلًا بحاجة إليها، شكرًا يا عزيزتي.» لاحظ أنّها ترتشف كوكاكولا. أن لا تشاركه غلندا كأسًا قبل العشاء، فهذا يعني أمرًا واحدًا فقط. قال لها: «هل من آلام في الصدر اليوم؟» لكنّه لم يكن سؤالًا بالمعنى الحقيقيّ للكلمة.

أجابت: «القليل فقط.»

– كم حبّة نتروغليسرين تناولت؟

– حبّتان فقط. لا تقلق، أنا بخير. انظر! هذا غريب.

سألها: «ماذا؟» فيما هو يقول لها في سرّه ألاّ تغيّر الحديث.

– منزل ستيف. أنواره الخارجيّة مطفأة.

– لهذا السبب بدا المنزل لي مظلمًا جدًّا.

ثمّ تابع بعد توقّف: «أنا متأكّد من أنّ أنوار منزل ستيف كانت مضاءة حين أتيت إلى هنا.»

قالت له غلندا بصوت مضطرب:

– أتساءل لما قد يرغب أحد في إطفائها. دورا لوفتس متوتّرة جدًّا. ربّما عليك أن تلقي نظرة.

– لا أريد أن أفعل ذلك يا عزيزتي. لا شكّ بأنّ التفسير بسيط جدًّا.

تنهّدت وقالت: «أفترض ذلك، لكنّ... حسنًا، ما حدث... كان يشغل بالي كثيرًا في الأيام القليلة الماضية».

طوّق كتفيها بذراعه يهدّئ بالها، وأحسّ بالتوتّر في جسدها، وقال لها: «لنجلس ونسترخِ».

مالت إلى الأمام وقالت: «مهلًا يا روجر، انظر. ثمّة سيارة تخرج من أمام منزل ستيف، ومصباحاها الأماميّان مطفآن. أتساءل مَن...».

قاطعها روجر بنبرة حازمة قائلًا: «كفى تساؤلًا، واجلسي. سآتي ببعض الجبنة.»

قالت غلندا: «ستجد جبنة بري على الطاولة.» ثم تجاهلت دفعة ذراعه الرقيقة على مرفقها، وأخذت نظّارتها من جيب تنّورتها ذات القماش المبطّن. وضعت النظّارة على عينيها، ومالت إلى الأمام مجدّدًا وراحت تحملق في المنزل المظلم والهادئ، الذي يبعد أمتارًا

قليلة في الجهة المقابلة لمنزلها. لكنّ السيّارة التي لاحظتها تأتي من أمام منزل بيترسون مرّت في تلك اللحظة أمام نافذتها وأخذت تتوارى في الطريق وسط الثلج المتساقط.

11

«في النهاية، غدًا يوم آخر.»

تمتمت سكارليت أوهارا الكلمات الأخيرة في الفيلم بصوت ينبض بالأمل، وهي متقوقعة على نفسها أسفل الدرج. ثمّ تصاعد صوت الموسيقى نحو الذروة، فيما أخذت الصورة على الشاشة تتحوّل ليظهر منزل تارا في مشهد طويل.

تنهّدت ماريان فوغلر فيما تلاشت الموسيقى، وأضيئت أنوار قاعة السينما. قالت في نفسها إنّهم لم يعودوا يصنعون أفلامًا كهذا. وهي لم ترد قطّ مشاهدة الجزء الثاني من فيلم «ذهب مع الريح» فبرأيها أنّه سيشكّل لها خيبة أمل.

وقفتْ على قدميها متردّدة. حان الوقت للعودة إلى الأرض. عادت خطوط القلق لترتسم على وجهها اللطيف، والذي تتناثر عليه حبّات النمش، فيما كانت تسير صعودًا نحو مؤخّرة القاعة.

كان الأولاد كلّهم بحاجة إلى ملابس جديدة. حسنًا، على الأقلّ وافق جيم على أن تقبل بوظيفة المدبّرة المنزليّة تلك.

تدبّر مَن يوصله إلى المصنع لكي تستطيع استعمال السيّارة. سيكون لديها الوقت لإيصال الأولاد إلى المدرسة وترتيب المنزل قبل الذهاب بالسيّارة إلى منزل الزوجين بيري. سيكون الغد يومها الأوّل في العمل. كان ذلك يثير توتّرها قليلًا، فهي لم تعمل منذ اثني عشر عامًا... منذ ولادة جيم الصغير. لكنّها كانت تعرف تمامًا كيف تحافظ على منزلٍ نظيفًا برّاقًا.

خرجت من دفء قاعة السينما إلى البرد القارس لتلك الأمسية الشديدة الوقع من شهر مارس. كانت ترتعد. استدارت يمينًا وبدأت تسير بسرعة. كانت كتل صغيرة من المطر المتجمّد المخلوط بالثلج تصيب وجهها فغاصت برأسها في قبّة الفرو البالية في أعلى معطفها.

كانت السيّارة في موقف السيّارات خلف قاعة السينما. الحمد للّه على أنّهما قرّرا إنفاق المال لتصليحها. كان طرازها يعود إلى ثماني سنوات خلت، لكنّ هيكلها لا يزال حسن المظهر. وكما قال جيم، فإنّ إنفاق أربعمئة دولار على تصليحها يبقى أفضل من دفع هذا المبلغ لشراء مشاكل شخصٍ آخر.

سارت ماريان بسرعة كبيرة لدرجة أنّها سبقت معظم الذين كانوا في قاعة السينما. وأسرعت، كما هو متوقّع في برد كهذا، إلى موقف السيّارات. وعدها جيم بأن يكون العشاء جاهزًا، وكانت تشعر بالجوع.

لكنّ خروجها من المنزل أفادها. لقد أدرك جيم اكتئابها وقال لها: «ثلاثة دولارات لن تغنينا ولن تفقرنا. أنا سأهتمّ بالأولاد. استمتعي يا عزيزتي، وانسي الفواتير.»

تـردّدت كلماته في أذنـي مـاريـان فيما تباطأت فـي سيرها وعبست. كانت واثقة من أنّها ركنت السيّارة هنا، في الجهة اليمنى.

تذكّرت أنّها استطاعت رؤية الإعلان في واجهة المصرف، الذي يقول «نريد أن نقول نعم لقرضك». فكّرت: «يا للأمر المهمّ، «نعم» لمن ليس بحاجة إليه، و«لا» لمن هو بحاجة ماسّة إليه.»

لقد ركنت سيّارتها هنا، إنّها متأكّدة. استطاعت أن ترى واجهة المصرف، التي كانت الآن مضيئة، وبرز منها الإعلان حتّى خلال الثلج.

بعد عشر دقائق، اتصلت ماريان بجيم من مركز الشرطة. حاولت حبس دموع الغضب واليأس التي ملأت حلقها، وقالت وهي تشهق: «جيم... جيم... لا... أنا بخير... لكن يا جيم... لقد سرق وغد ما سيّارتنا».

12

كان الرجل يقود السيّارة وسط الثلج الذي يزداد سماكة، ويراجع جدوله الزمنيّ في ذهنه. لا شكّ بأنّ صاحبة هذه السيّارة قد اكتشفت غيابها الآن. لعلّ المرأة ستسير قليلًا في الموقف لتتأكّد من أنّها لم تخطئ في شأن المكان حيث ركنتها. بعدئذ ستبدأ الصراخ طلبًا للشرطة، أو تتّصل بالمنزل. وعندما تذيع موزّعة المهامّ بلاغًا لاسلكيًا إلى سيّارات الشرطة، سيكون قد ابتعد كثيرًا عن أفراد شرطة كونكتيكت الفضوليّين.

أدرك أنّ خردة كهذه لن تجد مَن يبحث عنها بحثًا جدّيًا. وسيكتفي أفراد الشرطة بنظرات عدم الاكتراث حين يسمعون بلاغًا حول سيّارة مسروقة لا يزيد ثمنها عن بضع مئات من الدولارات.

كانت شارون مارتن في قبضته! هذه الإثارة جعلت بشرته تتلألأ. تذكّر شعوره الغامر بالدفء حين قيّدها. كان جسدها نحيفًا جدًّا لكّن فخذيها ووركيها كانت ممتلئة وناعمة. استطاع أن يحسّ بذلك برغم تنورتها الصوفيّة الثقيلة.

تصرّفت بعدائيّة وخوف حين حملها إلى السيّارة، لكنّه كان متأكّدًا من أنّها تعمّدت أن يحتكّ رأسها بجانبه.

سلك طريق كونكتيكت العامّ نحو طريق نهر هتشنسون الجنوبيّ، فالطريق بين المقاطعات نحو طريق هنري هدسون. شعر بأمان أكبر على الطرق ذات حركة السير الكثيفة. حين اقترب من طريق وست سايد درايف المؤدّي إلى وسط مانهاتن، كان قد تأخّر عن جدوله المرسوم. ماذا لو أنّ البحث عن سيّارته قد بدأ فعلًا؟!

كان السائقون الآخرون يتقدّمون ببطء. حمقى. يخشون الطرقات الزلقة، يخشون المجازفة، يؤخّرونه... ويثيرون المتاعب. بدأ النبض في عظم وجنتيه يتردّد بقوّة. أحسّ به يتسارع فضغط على وجنته بإحدى أصابعه. توقّع أن يعبر محطّة القطار بحلول السابعة كحدّ أقصى، قبل أن ينتهي ازدحام الركّاب، فيكون آنذاك أقلّ عرضة للملاحظة.

كانت الساعة قد بلغت السابعة وعشر دقائق حين خرج من طريق وست سايد الرئيسيّ عبر الشارع السادس والأربعين. تابع السير مسافة نصف مربّع شرقًا، ثمّ انعطف يمينًا بسرعة نحو زقاق يحيط بجوانب مستودع. لا حرّاس هنا، ولن يكون بحاجة إلى أكثر من دقيقة.

أوقف السيّارة وأطفأ مصابيحها. لسع الثلج الدقيق عينيه ووجهه حين فتح الباب. كان البرد قارسًا للغاية.

جالت نظراته بتركيز شديد على موقف السيّارات المظلم. شعر بالسرور، ومضى إلى الجزء الخلفيّ من السيّارة حيث رفع المعطف الذي ألقى به فوق شارون. شعر بأنّ عينيها تنظران إليه متّقدتين. ضحك ضحكة خفيفة، وأخرج آلة تصوير صغيرة، والتقط لها صورة. جعلها الوميض المفاجئ تطرف بعينيها. أخرج مصباحًا كهربائيًّا نحيلًا

كالقلم من جيبه الداخليّ. وانتظر حتّى أصبح في داخل السيّارة لكي يشعله.

تعمّد تسليط الشعاع الضيّق في عيني شارون، وراح يحرّكه ببطء إلى الخلف وإلى الأمام، حتى بات على مسافة بوصة واحدة من وجهها، إلى أن أغمضت عينيها وحاولت أن تدير رأسها بعيدًا.

شعر بالسرور لأنّه يغيظها. صدرت عنه ضحكة قصيرة مكتومة، وأمسك بكتفيها وأرغمها على أن تستلقي على بطنها. قصّ حبال كاحليها ومعصميها بضربات سريعة من سّكينه. سمع منها تنهيدة خافتة، خنقتها كمامتها، ثمّ سرت في جسدها ارتعاشة...

همس قائلًا: «أليس هذا شعورًا جميلًا يا شارون؟ الآن، سأنزع كمامتك، إذا سمعتُ صرخة واحدة منك، مات الصبيّ، مفهوم؟»

لم ينتظر إيماءة الموافقة من رأسها حتّى يقصّ قطعة القماش المعقودة خلف رأسها. بصقت شارون الشاش الذي حُشي بها فمها. حاولت جاهدة ألاّ تئنّ، وقالت له هامسة بصوت يكاد يكون غير مسموع: «أرجوك... نيل... سيختنق.»

أجابها الغريب: «هذا الأمر عائد إليك.» ثم سحبها وأوقفها على قدميها بقرب السيّارة. شعرت شارون بالثلج على وجهها. لكنّها كانت شاردة من شدّة الدوار الذي أصابها. كانت الانقباضات تتتالى على عضلات ذراعيها وساقيها. ترنّحت فأمسك بها الرجل بخشونة.

«ارتدي هذا.» كان الصوت مختلفًا حينذاك... وملحًّا.

مدّت يدها، وشعرت بشيء خشن غطّاه الشحم... ذلك كان المعطف الذي رمى به إليها. رفعت ذراعها، فشدّ الرجل المعطف حولها ودفع فيه ذراعها الأخرى.

ثمّ قال: «ضعي المنديل!»

شعرت بأنّ المنديل وسخ جدًّا. حاولت أن تطويه. كان كبيرًا جدًا وصوفيًّا. نجحت أصابعها في أن تعقده تحت ذقنها.

أمرها قائلًا: «عودي إلى السيّارة. بمقدار ما نسرع في الحركة، يتخلّص الصبيّ من تلك الكمامة.» دفعها بخشونة إلى المقعد الأماميّ. كان كيس النسيج الغليظ أرضًا. تعثّرت وحاولت ألاّ يصطدم حذاؤها به. انحنت ومرّت بيدها على الكيس، وتحسّست حدود رأس نيل. لاحظت أنّ رباط الكيس غير معقود. على الأقّل، كان نيل يتنفّس. قالت له: «نيل، نيل، أنا هنا، سنكون بخير يا نيل...»

هل أحسّت به يتحرّك؟ ربّاه! لا تدعه يختنق.

استدار الغريب بسرعة حول السيّارة، وجلس في مقعد السائق، وأدار مفتاح تشغيل المحرّك. تحرّكت السيّارة بحذر إلى الأمام.

نحن في وسط المدينة! أثارت هذه الملاحظة صدمة شارون، وساعدتها على التركيز. كان عليها المحافظة على هدوئها والقيام بكلّ ما يأمرها الرجل بأن تقوم به. اقتربت السيّارة من برودواي. ورأت الساعة العملاقة في ساحة تايمز. إنّها السابعة وعشرون دقيقة... إنّها فقط السابعة وعشرون دقيقة.

في مثل هذا الوقت من مساء الأمس، وصلت إلى منزلها عائدة من واشنطن. استحمّت ووضعت شرائح لحم بالأضلع في الفرن، وراحت ترتشف نبيذ تشابلس في انتظار أن يُشوى اللحم. كانت تعبة ومتوتّرة وتحاول أن تسترخي قليلًا قبل أن تكتب مقالتها.

كذلك، فكّرت في ستيف، وفي أنّ شوقها إليه قد تحوّل إلى ألم دائم خلال الأسابيع الثلاثة التي افترقا خلالها.

اتّصل بها، فحمل صوته إليها مزيجًا غريبًا من اللذّة والقلق. لكنّ كلماته الوجيزة معها كادت تكون لاشخصيّة، جافّة. «مرحبًا، أردت فقط أن أتأكّد من وصولك بخير. عرفت أن الطقس في واشنطن سيّئ، والعاصفة تتّجه نحونا. سأراك في الاستوديو.» ثمّ صمت قليلًا وأضاف: «اشتقت إليك. لا تنسي أنّك ستنامين في منزلنا ليلة غد.»

أقفلت الخطّ وقد تضاعفت حاجتها إلى رؤيته بعد مكالمته، ومع ذلك فقد شعرت بأنّها مخذولة وقلقة. لكن، ماذا كانت تريد؟ فيمَ سيفكّر حين يصل إلى المنزل ولا يجدهما؟ آه يا ستيف!

توقّفت السيّارة عند إشارة ضوئيّة حمراء في الجادّة السادسة. وتوقّفت بقربهم سيّارة للشرطة. نظرت شارون إلى سائقها الشابّ يدفع قبّعته العسكريّة المستدقّة الأطراف على جبينه. ألقى نظرة عبر النافذة، وتلاقت عيونهما. واصلت النظر في الشرطيّ. كانت تريده أن يواصل النظر إليها، ليشعر بأنّ ثمّة خطبًا ما.

أحسّت بوخزة حادّة في جانبها. نظرت فرأت سكّينًا في يد الغريب. قال لها: «إذا لاحقتنا الشرطة الآن، سأقتلك أوّلًا، وسيكون أمامي متّسع من الوقت لقتل الصبيّ.»

كانت نبرة صوته تشرح الواقع بوضوح جليديّ. آنذاك باتت سيّارة الشرطة خلفهما تمامًا. وبدأ ضوء سقفها يومض، وراح بوقها يزعق. «لا! رجاءً!» ثمّ اندفعت السيّارة فجأة وتوارت بسرعة في الشارع.

كانوا يستديرون جنوبًا في الجادّة الخامسة حيث غابت تقريبًا كلّ حركة للمشاة. كان الطقس في نيويورك عاصفًا وباردًا جدًّا ولا يشجّع على السير.

استدارت السيّارة مسرعة نحو اليسار في الشارع الرابع والأربعين. أين كان يأخذهما؟ كان الشارع الرابع والأربعين بغير منفذ، وينتهي في محطّة غراند سنترال. ألم يكن يعرف ذلك؟

قاد الغريب السيّارة مسافة مربّعين من الأبنية إلى جادّة فاندربيلت، واستدار يمينًا. توقّف بالقرب من مدخل فندق بيلتمور، في الجهة المقابلة تمامًا للمحطّة الطرفيّة.

قال لها بصوت منخفض: «سنخرج من السيّارة وندخل إلى المحطّة الطرفيّة. سيري بجانبي، ولا تحاولي الإتيان بشيء. أنا أحمل الكيس، وإن انتبه أحد إلينا، سأطعن الصبيّ بالسكّين.» نظر إلى شارون. كانت عيناه تشعّان من جديد، وراحت وجنتاه تنبضان. سألها: «أهذا مفهوم؟»

أومأت برأسها. وتساءلت: «هل يسمعه نيل؟»

حدّق فيها وقال: «مهلًا». مدّ يده إلى علبة القفّازات أمامها في السيّارة، وأخرج نظّارة غامقة اللون وأمرها: «ضعيها».

فتح الباب بقوّة، ثمّ نظر من حوله وخرج مسرعًا. كان الشارع مقفرًا. سيّارات أجرة قليلة فقط كانت مصطفّة في الطريق الذي يمتدّ وسط المحطّة الطرفيّة. لم يكن هناك مَن يراهما أو يكترث بهما...

فكّرت شارون: «سيأخذنا على متن قطار، سنكون بعيدين أميالًا قبل أن يبدأ أحد حتّى بالبحث عنّا!»

أحسّت بوخزة في يدها اليسرى. الخاتم! الخاتم الأثريّ المصنوع من حجر القمر الذي أهداه إليها ستيف لمناسبة عيد الميلاد... مال إلى جانب الإصبع حين كانت يداها مقيّدتين. كان إطاره الذهبيّ المرتفع يقصّ يدها. نزعت شارون الخاتم من إصبعها بدون تفكير

تقريبًا. تسنّى لها الوقت فقط لتغرزه جزئيًا في وسادة المقعد قبل أن تتوقّف السيّارة.

خرجت وهي غير ثابتة الخطوة إلى الرصيف الزلق. قبض الرجل بيده على معصمها، وبحث في داخل السيّارة بعناية. انحنى بسرعة وأخذ الكمامة التي كانت على فمها، والحبال التي قُطعت عندما أطلِقت. حبست شارون أنفاسها، لكنّه لم يلاحظ الخاتم.

انحنى وحمل كيس النسيج الغليظ، وشدّ رباط فتحته بقوّة وعقد أطرافه. كان نيل معرّضًا للاختناق مع إقفال الكيس.

حتّى خلف النظّارة السوداء، كانت المحطّة الطرفيّة الساطعة الأنوار ترغم شارون على أن تطرف بعينيها. وقفا في الباحة المشرفة على المحطّة الطرفيّة الرئيسيّة. وعلى مسافة أقدام قليلة إلى يسارهما كان كشك جرائد. نظر إليهما البائع بلا مبالاة. بدآ بنزول الدرجات نحو منبسط الدرج الأوّل. لفتت نظر شارون دعاية كوداك العملاقة، التي كُتب عليها «اقبض على الجمال حيثما تجده».

كادت ضحكة هستيريّة تخرج من شفتَيها. «اقبض؟» «اقبض؟» الساعة. الساعة الشهيرة فوق كشك المعلومات في وسط المحطّة الطرفيّة. باتت رؤيتها أصعب الآن بعد بناء مكتب الاستثمار أمامها. قرأت شارون في مكان ما أنّ الساعة ترسل إشارة إنذار إلى قوّة الشرطة الخاصّة بمحطّة غراند سنترال حين تومض الأضواء الحمراء الستّة حول قاعدتها. فيمَ سيفكّر أفراد الشرطة لو عرفوا ما يحدث الآن؟

كانت الساعة آنذاك السابعة وتسعًا وعشرين دقيقة. كان ستيف سيستقلّ قطار السابعة وثلاثين دقيقة. إنّه هنا في هذه اللحظة...

في قطار ما في هذه المحطّة الطرفيّة، في قطار سيرحل به بعيدًا بعد دقيقة. ستيف، أرادت أن تصرخ... ستيف...

انغرزت في ذراعها أصابع فولاذيّة.

«في الأسفل هنا.»

كان يرغمها على نزول الدرجات إلى المحطّة الطرفيّة السفلى. انقضت ساعة الذروة. ولم يكن في المحطّة الطرفيّة الرئيسيّة أشخاص كثيرون... حتّى أنّ عدد من يستخدمون الدرج كان أقلّ... هل يجب أن تحاول السقوط... فتجذب الانتباه إليها... لا... لا يمكنها أن تجازف، وتلك الذراع الضخمة تطوّق كيس النسيج الغليظ، وتلك السكّين جاهزة لتنغرز في جسد نيل.

كانا في الطابق الأدنى. استطاعت أن ترى إلى يمينها مدخل أويستر بار. التقت ستيف هناك الشهر الماضي وتناولا غداء سريعًا. جلسا إلى البار وتناولا قصعتين ساخنتين من يخنة المحار... ستيف، اعثر علينا يا ستيف، ساعدنا...

دُفعت نحو اليسار. قال لها: «سنذهب في الأسفل هنا... لا تسيري بسرعة...» السكّة 112. كُتب على اللافتة «ماونت فرنون... الثامنة وعشر دقائق.» لا شكّ بأنّ قطارًا قد انطلق منذ قليل. لماذا سيذهب إلى هناك؟

رأت شارون إلى يسار المنحدر المؤدّي إلى السكك عجوزًا رثّة الملابس تحمل كيس تسوّق. كانت ترتدي سترة رجل فوق تنّورة صوفيّة ممزّقة، وقد تراخى فوق ساقيها جوربان قطنيّان سميكان. كانت المرأة تنظر إليهما باستغراب.

«واصلي السير.»

كانا يسلكان المنحدر نزولًا حتّى المنصّة 112. كان لخطواتهما صدى وهي تقرع الدرجات المعدنيّة. خفت ضجيج الأصوات، وحلّ محلّ دفء المحطّة الطرفيّة تيّار هوائيّ رطب وبارد.

كانت المحطّة الطرفيّة خالية تمامًا.

«هنا.» كان يرغمها على المضيّ بسرعة أكبر آنذاك، نحو نهاية السكّة الحديديّة، ثمّ على سلوك منحدر آخر. كان الماء يسيل قريبًا منهم. إلى أين كانوا يتّجهون؟ صعّبت عليها النظّارة السوداء الرؤية هنا. سمعت صوت خفق متواتر... إنّها مضخّة... مضخّة هوائيّة... كانوا ينزلون إلى أعماق المحطّة الطرفيّة... في مكان بعيد تحت الأرض. ماذا يريد أن يفعل بهما؟ كانت تسمع هدير القطارات... لا بدّ من وجود نفق قريب...

كانت الأرضيّة الإسمنتيّة تواصل انحدارها. وأخذ الممرّ يتّسع. كانوا في منطقة لها نصف حجم ملعب كرة قدم أميركيّة. منطقة من الأنابيب السميكة والمهاوي والمحرّكات الهادرة. وإلى اليسار... على مسافة نحو عشرين قدمًا... درج ضيّق.

«هناك... بسرعة.» آنذاك، تحوّل لهاثه إلى شهيق صعب. كانت تسمع نفخات لهاثه وهو يتبعها. صعدت الدرج بسرعة، وهي تعدّ الدرجات بلا وعي... عشر... إحدى عشرة... اثنتا عشرة درجة. وصلت إلى منبسط ضيّق، وأمامها باب معدنيّ سميك.

«ابتعدي.» شعرت بثقل جسده يلتصق بها فابتعدت عنه. وضع من يده كيس النسيج الغليظ وألقى عليها نظرة سريعة. رأت في الضوء الخافت قطرات العرق تلتمع على جبينه. أخرج مفتاحًا ووضعه في القفل. سمعت صوت صرير ثمّ دارت مسكة الباب. فتح الباب

ودفعها إلى الداخل قبله. سمعت نخيرًا يصدر عنه وهو يرفع الكيس من جديد. أقفل الباب خلفهما. ثمّ سمعت في الظلمة الشديدة صوت مفتاح كهربائيّ يُرفَع. وما هي إلّا نصف ثانية حتّى راحت تومض فوقهم المصابيح الفلوريّة التي غطّاها الغبار.

نظرت شارون حولها إلى الغرفة القذرة والرطبة، وإلى جرنَي غسل الأطباق الصدئين، والمهوى المكسوّ بالألواح، والسرير المتزعزع، وصندوق البرتقال المقلوب، والحقيبة السوداء القديمة على الأرض.

«أين نحن؟ ماذا تريد منّا؟» قالت ذلك بصوت يكاد يكون همسًا، لكنّ صداه تردّد في الغرفة الشبيهة بسرداب.

لم يجبها الخاطف، بل دفعها إلى الأمام وأسرع نحو السرير، وألقى عليه كيس النسيج الغليظ، ثمّ راح يحرّك ذراعيه ثنيًا وبسطًا. سقطت شارون على ركبتيها وأخذت تحاول فكّ رباط الكيس.

نجحت أخيرًا في فكّه، ثمّ وسّعته، وأنزلت الكيس الذي يسحق الجسم الصغير. حرّرت رأس نيل، ثمّ شدّت الكمامة بحركة عصبيّة وأنزلتها فوق ذقنه.

شهق نيل يحاول التنفّس، تـردّدت أنفاسه صعبة وسريعة، سمعت فيها شارون صوت الصفير، وأحسّت باهتزازات صدره. أسندت رأسه إلى ذراعيها وبدأت تزيل عصابة العينين.

سمعته يوجّه إليها أمرًا حادًّا وعنيفًا: «اتركيها على عينيه!»

صرخت: «رجاءً! إنّه مريض... ويعاني نوبة ربو. ساعده.»

رفعت عينيها، ثمّ عضّت شفتيها لتحبس صرخة.

فوق السرير العسكريّ الخفيف، كانت ثلاث صور كبيرة ملصقة إلى الجدار...

صورة شابّة تركض، وذراعاها ممدودتان، تنظر خلف كتفها والرعب يعلو وجهها... وفمها المتقوّس تنبعث منه صرخة.

وصورة امرأة شقراء ملقاة أرضًا بجانب سيّارة، وساقاها مطوّيتان تحتها.

وصورة مراهقة سوداء الشعر ترفع إحدى يديها إلى حلقها، وفي عينيها المحملقتين نظرة خاوية مرتبكة.

13

كانت لالي مدرّسة في نبراسكا منذ زمن بعيد. بعد أن تقاعدت أخيرًا وباتت وحيدة، أتت إلى نيويورك في زيارة، لم تعد منها قطّ. سلكت حياتها منعطفًا آخر ليلة وصلت إلى محطّة غراند سنترال. بخشية وارتباك، حملت حقيبتها الوحيدة وسارت بها عبر الباحة الضخمة. نظرت إلى الأعلى وتوقّفت حيث هي. كانت واحدة من القلائل الذين يلاحظون أنّ السماء في السقف المقبّب الضخم رُسمت بصورة عكسيّة. فنجوم الشرق كانت في الغرب.

ضحكت بصوت مرتفع. وافترقت شفتاها كاشفة عن سنّين أماميّتين ضخمتين. نظر الناس إليها ثمّ تابعوا طريقهم مسرعين. أثارت ردّة فعلهم سرورها. لو كانت لالي في بلدتها ورآها الناس تنظر إلى الأعلى وتضحك وحدها، لانتشر الخبر في البلدة كلّها قبل صباح اليوم التالي.

وضعت حقيبتها في خزانة، ثمّ اغتسلت في مرحاض النساء في الطابق الأساسيّ، وسوّت تنورتها الصوفيّة البنيّة العاديّة الشكل، وزرّرت كنزتها الصوفيّة المحبوكة. وفي النهاية مشّطت شعرها الرماديّ

القصير، وملّسته وهو رطب قليلًا، حول وجهها العريض الذي تكاد ذقنها لا تظهر فيه.

خلال الساعات الستّ التالية، جالت لالي في أنحاء المحطّة الطرفيّة، وهي تستمتع كطفل صغير في ازدحام الحشود وسعيها الحثيث. تناولت الطعام إلى بار أحد أكشاك الطعام الرخيصة، وتفرّجت على واجهات المتاجر في الممرّات المؤدّية إلى الفنادق، ثمّ عادت أخيرًا لتستقرّ في قاعة الانتظار الرئيسيّة.

نظرت مشدودة إلى أمّ شابّة تُرضع طفلًا يصرخ، وحدّقت في شابّ وشابّة يتعانقان بشغف، وتابعت لعبة ورق كان أربعة رجال يلعبونها.

كانت الحشود تتضاءل ثمّ تعود لتزداد قبل أن تتضاءل من جديد تحت أبراج الفلك المرسومة في قبّة المحطّة. كانت الساعة تقارب منتصف الليل حين لاحظت أنّ ثمّة مجموعة طال مكوثها في القاعة. كانوا ستّة رجال وامرأة لها وجه كوجه عصفور، تحلّقوا وراحوا يتسامرون بارتياح كأصدقاء منذ عهد قديم.

بدا أنّ المرأة لاحظت أنّ لالي تراقبهم. اقتربت منها وسألتها بصوت لطيف برغم خشونته: «هل أنت جديدة هنا؟» سبق أن شاهدت لالي المرأة تأخذ جريدة من سلّة مهملات. أجابتها:

– نعم.

– ألديك مكان تذهبين إليه؟

كانت لالي قد حجزت لها سريرًا في مقرّ جمعيّة الشابّات المسيحيّات، لكنّ غريزتها دفعتها إلى الكذب، فأجابت:

– لا.

– هل وصلت منذ وقت قصير إلى هنا؟

– نعم.

– هل تحملين مالًا؟

– لا أحمل الكثير.

تلك كانت كذبة أخرى.

– لا تقلقي، سنريك المكان، نحن دائمون هنا.

قالت ذلك، ودلّت بذراعها إلى المجموعة. سألتها لالي:

– إذًا، هل تقطنون في مكان قريب؟

تقوّست عينا المرأة بفعل ابتسامة كشفت عن عن أسنان متسوّسة، وأجابت: «لا، نحن نقطن هنا. أنا روزي بيدويل».

لم تعرف لالي طوال سنواتها الاثنتين والستّين الكئيبة صديقة حميمة قطّ. لكنّ روزي بيدويل غيّرت ذلك. فسرعان ما حظيت لالي بالقبول في حلقة النزلاء الدائمين. تخلّصت من حقيبتها، واحتفظت، شأنها شأن روزي، بكلّ مقتنياتها في أكياس تسوّق. وتعلّمت الأمور الروتينيّة... تبديد الوقت خلال تناول الوجبات الرخيصة في مطعم «أوتومات»، والاستحمام بين الحين والآخر في الحمّام العامّ في «القرية»، والنوم في المنامات الرخيصة، والنُزُل التي تتقاضى دولارًا واحدًا عن الليلة، أو في مركز جيش الخلاص.

أو... في غرفتها الخاصّة في غراند سنترال.

ذلك كان السرّ الذي كتمته لالي عن روزي. لقد كانت مستكشفة لا تعرف التعب، فعرفت كلّ زاوية من المحطّة الطرفيّة. صعدت الأدراج خلف الأبواب البرتقاليّة في المنصّات، وتجوّلت في المنطقة الشبيهة بالكهوف بين أرضيّة الطابق الأعلى وسقف الطابق الأسفل. وجدت الدرج الخفيّ الذي يربط ما بين مرحاضَي النساء. وحين يكون

المرحاض الأسفل مقفلًا للقيام بالتصليحات، غالبًا ما كانت تنزل عبر ذلك الدرج لتقضي الليل هناك من دون علم أحد.

حتّى أنّها سارت بمحاذاة السكك في النفق المارّ تحت جادّة بارك أفنيو، وهي تلصق جسدها بالجدار كلّما مرّ عليها قطار، كما تشاطرت فضلات الطعام مع الهررة الجائعة التي تجوب النفق.

لكنّ أكثر ما شدّ انتباهها كانت تلك المنطقة الواقعة في أعماق المحطّة والتي يدعوها الحرّاس «سينغ سينغ». كانت وكأنّها القلب الخافق لمحطّتها بمضخّاتها ومهاويها ومولّداتها الكهربائيّة التي تخفق وتصرّ وتنخر. أثار فضولها باب لا يحمل أيّة علامة في أعلى درج ضيّق في «سينغ سينغ»، تحدّثت عنه بحذر إلى أحد الحرّاس الذي أصبح صديقًا لها. قال لها راستي إنّه ليس سوى الجحر القذر حيث كانت تُغسل أطباق «أويستر بار»، وأنْ لا شأن لها في تلك المنطقة. لكنّها لاحقته حتّى أخذها لرؤية تلك الغرفة.

أثارت فيها تلك الغرفة السرور الكبير. ولم يزعجها قطّ سقفها ولا جدرانها العفنة والتي زال عنها الطلاء. كانت الغرفة كبيرة، ومصابيحها وجرنا الغسيل فيها عاملة. حتّى أنّ فيها مرحاضًا صغيرًا. أدركت في الحال أنّ ذلك المكان سيؤمّن لها ما لا تزال تحتاجه من خصوصية مطلقة بين الحين والآخر. فقالت لراستي:

– غرفة وحمّام. راستي، دعني أنام هنا.

بدت عليه الصدمة وقال لها: «محال! هذا سيكلّفني وظيفتي». لكنّها ظلّت عليه حتّى أقنعته بهذا الأمر أيضًا. فأصبح يدعها تقضي الليل هناك بين الحين والآخر. وفي أحد الأيام نجحت في استعارة مفتاحه لساعات قليلة، وصنعت عنه نسخة سرًّا. وحين تقاعد راستي، جعلتها لالي غرفتها الخاصّة.

شيئًا فشيئًا كانت لالي تحمل إلى الغرفة أشياء مختلفة عبر الـدرج، كسرير عسكريّ من الخيش كـان مرميًا، وحشيّة مهلهلة وصندوق برتقال.

بدأت تقيم في الغرفة بصورة منتظمة. كانت تحبّ ذلك كثيرًا، أي النوم في ظلمة شبيهة بظلمة الرحم، قابعة في أعماق المحطّة، تسمع هدير القطارات الخافت الذي يتضاءل شيئًا فشيئًا كلّما تقدّم الليل، ويعود ليتسارع مع حمّى الصباح.

كانت ترقد هناك أحيانًا وتفكّر في رواية «شبح الأوبرا» التي علّمتها في صفوفها. «تحت دار الأوبرا الجميلة والمذهّبة تلك، كان عالم آخر مظلم وسرّي، عالم من الممرّات والمجارير والرطوبة حيث بوسع إنسان أن يختبئ عن الجميع.»

الغيمة الوحيدة التي عكّرت صفو أفق لالي وراحـت تقضم هناءها، كانت الخشية الرهيبة من هدم المحطّة في أحد الأيّام. وحين أقامت لجنة إنقاذ محطّة غراند سنترال مهرجانها، كانت لالي هناك. وقفت بدون تطفّل في إحدى الزوايا، لكنّها صفّقت بحرارة حين قال كلّ المشاهير مثل جاكي أوناسيس إنّ محطّة غراند سنترال كانت جزءًا من تراث نيويورك ويجب عدم هدمها بتاتًا.

لكن، بالرغم من تصنيف المحطّة معلمًا تاريخيًّا، كانت لالي تدرك أنّ الكثيرين لا يزالون يحاولون هدمها. لا يا ربّ! رجاءً، لا تترك محطّتي تُهدَم!

لم تكن تستخدم غرفتها في الشتاء قطّ، لأنّها كانت شديدة البرودة والرطوبة. لكنّها من مايو وحتّى سبتمبر، كانت تقيم فيها نحو مرّتين أسبوعيًّا، بوتيرة متباعدة بما يكفي لكي لا يقبض عليها رجال الشرطة فتثير فضول روزي.

انقضت ستّ سنوات، كانت هي الأفضل في حياة لالي. باتت تعرف كلّ الحرّاس وباعة الجرائد، والباعة في المحالّ التجاريّة. حفظت أوجه الركّاب، وكانت تعرف مَن منهم يستقلّ أيّ قطار، وفي أيّ وقت. حتّى أنّها باتت تعرف وجوه معاقري الخمر الذين عادة ما يعودون إلى منازلهم في قطارات الساعات المتأخرة، وهم يسرعون مترنّحين للوصول إلى منصّاتهم.

مساء يوم الاثنين ذاك، كانت لالي تلتقي روزي في قاعة الانتظار الرئيسيّة. كانت قد عانت التهاب مفاصل حادًّا خلال الشتاء. وذلك كان السبب الوحيد الذي حال دون ذهابها إلى غرفتها. لكنّ ستّة أشهر كانت قد انقضت، وشعرت فجأة بأنّها لا تستطيع الانتظار أكثر لاستخدامها. قالت في نفسها: «سأذهب وأرى كيف تبدو.» وبحال لم يكن البرد شديدًا، فستنام هناك في تلك الليلة حتّى، أو أنّها قد لا تفعل.

نزلت الدرج بخطوات متثاقلة إلى المحطّة الطرفيّة السفلى. لم يكن فيها أشخاص كثيرون. سارت على مهل بغير هدف، تتجنّب أفراد الشرطة. لم يكن بوسعها المجازفة بأن يراها أحدهم تذهب إلى الغرفة. لن يدعوها أبدًا تقيم فيها، حتّى ألطفهم لن يدعها تفعل ذلك.

لاحظت عائلة معها ثلاثة أطفال، كلّهم جميلو الطلعة. هي تحبّ الأولاد، كما أنّها كانت مدرّسة جيّدة. عادة ما كانت تتّفق مع تلاميذها حالما ينتهون من السخرية من تشرّدها. لكنّها لم تكن ترغب قطّ في عودة تلك الأيّام.

كانت على وشك سلوك المنحدر للوصول إلى السكّة 112 حين لفتت انتباهها بطانة بالية قرمزيّة اللون، تتدلّى من معطف رماديّ

قديم. عرفت لالي المعطف فقد جرّبته في متجر للبضائع المستعملة في الجادّة الثانية قبل أسبوع. لا يمكن أن يكون هناك معطف آخر مثله، له تلك البطانة. استحوذ عليها الفضول وتمعّنت في وجه المرأة التي ترتدي المعطف وفاجأها أن ترى كم هي شابّة وجميلة خلف المنديل والنظّارة السوداء.

الرجل الذي يرافقها... كان شخصًا رأته لالي في المحطّة مؤخّرًا. لاحظت لالي الحذاءين الجلديّين الثمينين اللذين تنتعلهما الشابّة. كانا من النوع الذي ينتعله ركّاب خطّ كونكتيكت.

أثار المزيج استغرابها: معطف مستعمل وهذان الحذاءان. كان اهتمامها قد بلغ ذروته آنذاك، فنظرت إلى الرجل والمرأة يجتازان المحطّة الطرفيّة. بدا كيس النسيج الغليظ الذي يحمله الرجل ثقيلًا جدًّا. حين رأتهما يتّجهان إلى السكّة 112، عبست: لا قطار قبل ثلاثين دقيقة أخرى. فكّرت في أنّ تصرّفهما جنونيّ، لمَ الانتظار على المنصّة؟ فالمكان بارد ورطب.

هزّت بكتفيها. بالنسبة إليها، حُسم الأمر. لا يمكنها الذهاب إلى غرفتها وهما في المنصّة وقد يريانها. سيكون عليها الانتظار حتّى الغد.

حاولت لالي أن تواجه خيبة أملها بشيء من التفلسف، ومضت إلى قاعة الانتظار الرئيسيّة بحثًا عن روزي.

14

«تكلّم يا رون، تكلّم، اللعنة عليك!» وضغط المحامي الأسود الشعر على زرّ التسجيل في المسجّلة التي كانت على سرير الزنزانة المثبت في الجدار بين الشابّين الجالسين.

– لا!

نهض رون طومبسون، وسار مضطربًا عبر الزنزانة الضيّقة ثمّ نظر عبر النافذة ذات القضبان. وسرعان ما حوّل نظره بعيدًا، وقال: «حتّى الثلج يبدو وسخًا هنا، وسخًا ورماديًا وباردًا. أتريد تسجيل ذلك؟»

– لا، لا أريد. مكتبة الرمحي أحمد

وقف بوب كورنر ووضع ذراعيه على كتفَي الفتى، وقال له: «أرجوك يا رون...»

ارتعشت شفة الفتى ذي التسعة عشر عامًا وقال: «ما فائدة ذلك؟ ما فائدة ذلك؟» وتغيّر تعبيره، فأصبح تعبير طفل صغير عاجز لا حيلة له. عضّ شفته بسرعة، ومسح عينيه بيده، وقال: «بوب، لقد بذلت قصارى جهدك... أعرف ذلك. لكن لا شيء يمكن عمله بعد الآن...»

– لا شيء سوى إعطاء الحاكمة سببًا لتصدر عفوًا عن الحكم... أو حتّى لتأمر بتأجيل التنفيذ... أو حتّى لتأمر بتأجيل التنفيذ يا رون.

– لكنّك جرّبت... تلك الكاتبة شارون مارتن... إذا كانت، وبرغم كلّ التواقيع المهمّة التي جمعتها، لم تستطع...

جمع بوب كورنر يديه فباتتا قبضتين وصاح:

– لتذهب تلك القذرة شارون مارتن إلى الجحيم! اللعنة على كلّ عاملي الخير أولئك الذين يغرقون في شبر ماء. لقد أساءت إلى قضيّتك يا رون. كنّا نعدّ عريضة... عريضة حقيقيّة من أشخاص يعرفونك... من أشخاص يعرفون أنّك أكثر عجزًا من أن تؤذي أحدًا... إلّا أنّها راحت تعلن على الملأ أنّك طبعًا مذنب، لكنّك يجب ألّا تموت. جعلت من المستحيل على الحاكمة أن تخفّف عقوبتك... من المستحيل.»

– إذًا لمَ تضيّع وقتك؟ إذا لم يكن لذلك من جدوى... إذا لم يكن من أمل في ذلك... لا أريدك أن تتحدّث في الأمر بعد الآن!

– عليك أن تفعل!

رقّ صوت بوب كورنر حين نظر في عيني الفتى. كان فيهما صدق وصراحة آسران. تذكّر بوب نفسه عندما كان في التاسعة عشرة. منذ عشرة أعوام كان طالبًا في السنة الثانية في جامعة فيلانوفا. خطّط رون للذهاب إلى الجامعة... لكنّه وبدلًا من ذلك سيموت في كرسيّ كهربائيّ. حتّى عاما السجن لم يوهنا جسده المشدود العضلات، فقد كان يتمرّن بانتظام في زنزانته. كان رون فتى صارمًا في ضبط النفس، لكنّه خسر نحو عشرة كيلوغرامات من وزنه واستحال لون وجهه أبيض كالكلس. قال له بوب:

– اسمع، لا بدّ من أنّني أغفلت شيئًا ما في مكان ما.

– لم تغفل شيئًا.

– رون، أنا دافعت عنك، لكنّك لم تقتل نينا بيترسون، وقد أدِنتَ بذلك. إذا استطعنا العثور على دليل واحد نأخذه إلى الحاكمة... على سبب وجيه واحد يمكّنها من منحك تأجيلًا في تنفيذ الحكم. لدينا اثنتان وأربعون ساعة... فقط اثنتان وأربعون ساعة.

– قلت منذ قليل إنّها لن تخفّف الحكم عليّ.

انحنى بوب كورنر وأطفأ المسجّلة بحركة سريعة وحادّة. ثمّ أضاف:

– رون، ربّما عليّ ألّا أقول لك هذا. يعلم الله أنّ هذا أمر صعب التحقيق، لكن أصغِ إليّ: حين أدنتَ بجريمة قتل نينا بيترسون، شعر كثيرون بأنّك أيضًا القاتل في تينك الجريمتين اللتين لم يُحلّ لغزهما، تعرف هذا.

– سئلتُ عنهما ما يكفي.

– ذهبت إلى المدرسة مع الفتاة كارفولي... وجرفت الثلج من أمام منزل السيدة وايس... من المنطقيّ طرح السؤال. إنّها إجراءات عاديّة. وبعد اعتقالك لم تقع جرائم قتل أخرى... حتى الآن. رون، لقد وقعت جريمتا قتل أخريان الشهر الماضي كانت ضحيّتيها شابّتان في مقاطعة فيرفيلد. إذا استطعنا إثارة شيء ما، بعض الشكوك... إذا استطعنا الوصول إلى ما قد يوحي برابط بين موت نينا بيترسون وموت النساء الأخريات...

طوّق المحامي الفتى بذراعيه وقال له:

– رون، أعرف كم هذا سيّئ بالنسبة إليك، ولا أحد بوسعه أن يعرف حقيقة ما تعانيه. لكنّك أخبرتني كم مرّة استرجعتَ ذلك اليوم

في عقلك. ربّما كان هناك شيء ما... شيء ما لم يبدُ مهمًّا... تفصيل ما. ليتك تتكلّم.

ابتعد رون، وسار إلى سرير زنزانته وجلس عليه. ضغط من جديد زرّ التسجيل في المسجّلة وأدار رأسه لكي يصل إليها صوته بوضوح. قطّب جبينه مركّزًا، وبصوت متردّد بدأ الكلام:

– كنت أعمل بعد ظهر ذلك اليوم، بعد المدرسة، في متجر تيمبرلي. كانت السيدة بيترسون هناك تتسوّق. قال لي السيد تيمبرلي إنّه سيصرفني من العمل بسبب طول الوقت الذي أتغيّب فيه من أجل تمارين البايسبول. سمعته السيدة بيترسون يقول لي ذلك. وحين ساعدتها في حمل أكياس البقالة إلى سيّارتها قالت لي...

15

توقّف القطار في محطّة كارلي عند الساعة التاسعة. آنذاك، كان نفاد صبر ستيف المحموم قد تحوّل إلى قلق عميق ينهشه من الداخل. كان عليه أن يتّصل بالطبيب. لو أنّ نيل كان مريضًا، فلربّما أخذته شارون إليه ليعطيه حقنة. ربّما لهذا السبب لم يجب أحد على الهاتف.

لقد أتت شارون إلى المنزل، كان متأكّدًا من ذلك. فهي ما كانت لتعدل عن القدوم بدون أن تتّصل به.

أو لعلّ الاتّصالات الهاتفيّة قد تعطّلت. ولو أنّه فوّت عليه هذا القطار، فمن يدري متى يصل القطار التالي؟ ذكر السائق أنّ السكك تتجمّد.

إنّ هناك خطبًا ما. كان يشعر بذلك، كان يدرك ذلك.

لكن، لعلّ حكم الإعدام الذي يقترب هو ما أثار اضطرابه وخوفه الكبيرين. ربّاه، لقد أعادت جريدة هذا المساء إثارة هذه القضيّة المؤلمة برمّتها. وكانت صورة نينا على الصفحة الأولى. وكان التعليق: «الإعدام قريبًا لفتى بسبب قتله الوحشيّ لأمّ شابّة في كونكتيكت.» وبجانبها صورة لطومبسون، وهو فتى جميل المظهر. يصعب التصديق أنّه قادر على ارتكاب جريمة بدم بارد.

صورة نينا. خلال رحلة القطار الطويلة، وجد ستيف نفسه يحدّق إليها مرّة بعد مرّة. حين وقعت الجريمة، طالب الصحفيّون بصورة لها، لكنّه لعن نفسه على السماح لهم بأخذ نسخة من هذه الصورة. كانت الصورة المفضّلة لديه، وقد التقطها لها والنسيم يتلاعب بخصلات شعرها السوداء حول وجهها والأنف المستقيم الصغير المتجعّد قليلًا كما هي حاله دائمًا حين تضحك. والمنديل محكم الربط حول عنقها. لم يدرك إلّا لاحقًا أنّه المنديل الذي استعمله طومبسون لخنقها.

يا اللّه!

كان ستيف أوّل المنتظرين للاندفاع خارجًا حين وصل القطار أخيرًا إلى كارلي متأخرًا أربعين دقيقة. نزل بسرعة أدراج المنصّة الزلقة، وأسرع إلى موقف السيارات وحاول أن يزيل الثلج عن زجاج سيارته الأماميّ. لكنّ طبقة رقيقة من الجليد قاومت جهوده. فتح صندوق السيارة وصبره قد نفد منه وأخذ مزيل الجليد ومكشطة.

المرّة الأخيرة التي رأى فيها نينا حيّة كانت حين أوصلته إلى القطار. لاحظ أنّ الإطار الاحتياطيّ الذي حفا، قد رُكّب على العجلة الأماميّة اليمنى. واعترفت أن إطارها ثُقب في الليلة السابقة وأنّها تقود السيّارة بدون إطار احتياطيّ.

أثار ذلك غيظه فانفجر بها صائحًا: «يجب ألاّ تقودي السيارة بهذا الإطار السيّئ. تبًّا يا عزيزتي. تهوّرك سيتسبّب بقتلك».

سيتسبّب بقتلك!

وعدته بأن تصلح الإطار المثقوب في الحال. أمام المحطّة همّ بالخروج من السيّارة من دون أن يقبّلها مودّعًا. لكنّها مالت فلامست قبلتها خدّه، وقالت له بصوتها الذي يحمل رنّة ضاحكة: «طاب يومك يا حبيبي النكد. أحبّك».

لم يجبها أو ينظر إليها، بل خرج مسرعًا إلى قطاره. فكّر في الاتّصال بها من المكتب، لكنّه قال لنفسه إنّه يريدها أن تظنّ أنّه غاضب حقًّا منها. كان قلقًا عليها لأنّها متهوّرة في الأمور المهمّة. وفي بعض الليالي كان يعود من العمل إلى المنزل متأخرًا، فيجدها ونيل نائمين والباب غير مقفل.

لذلك لم يتّصل بها ولم يصالحها. وحين نزل من قطار الخامسة والنصف في ذلك المساء، كان روجر بيري ينتظره في المحطّة ليرافقه بالسيّارة ويخبره أنّ نينا ماتت.

وبعد ذلك عاش نحو سنتين في ألم كئيب، حتّى صباح ذلك اليوم منذ ستّة أشهر، حين جرى تقديمه إلى الضيفة الأخرى في برنامج «اليوم»، شارون مارتن.

انقشع الزجاج الأماميّ. دخل ستيف السيّارة، وأدار المفتاح، ووضع قدمه على دوّاسة الوقود بدون أن يمنح المحرّك الوقت الكافي ليصبح جاهزًا. أراد الوصول إلى المنزل ليجد نيل بخير. أراد أن يُسعد نيل من جديد. أراد أن يطوّق بيديه شارون ويعانقها. أراد أن يسمعها هذا المساء تسير في غرفة الضيوف، ويعرف أنّها قريبة. يجب أن يجعلا العلاقة بينهما تنجح. يجب عدم السماح لشيء بإفسادها.

استغرقت رحلة الدقائق الخمس في العادة خمس عشرة دقيقة. كانت الطرقات لوحًا من الجليد. وعند إحدى إشارات المرور، ضغط بقدمه المكبح فانزلقت السيّارة نحو التقاطع. لكنّ أحدًا لم يكن آتيًا من الجهة المقابلة والحمد لله.

في النهاية استدار نحو دريفتوود لاين. بدا له الطريق مظلمًا على نحو غير مألوف. ذلك كان منزله... أنواره مطفأة. وتّرت جسده

شحنة من الخوف. تجاهل الطريق الزلق وضغط بشدّة على دوّاسة الوقود فاندفعت السيّارة إلى الأمام ومضت مسرعة نحو المنزل. انعطف إلى طريق منزله وأوقف سيّارته خلف سيّارة شارون. تسلّق الدرجات مسرعًا وأقحم مفتاحه في القفل ودفع الباب الأماميّ إلى الداخل. نادى: «شارون... نيل.» كرّر النداء: «شارون... نيل.»

نظر إلى غرفة المعيشة. كانت الأوراق مبعثرة على الأرض. لا بدّ من أنّ نيل كان يقصقص أوراقًا. وإحدى الورقات كان مفتوحة وفوقها مقصّ وقصاصات. كان كوب من الكاكاو غير ملموس وكأس نبيذ موضوعين على طاولة صغيرة بقرب المدفأة. أسرع ستيف إلى الطاولة ولمس فنجان الكاكاو فوجده باردًا. أسرع إلى المطبخ فرأى القدر في المجلى، ثم أسرع عبر الرواق إلى غرفة المكتب. كان إحساسه بالخطر شديدًا، خانقًا. وجد الغرفة خالية أيضًا، وفي الموقد نار تخفق. كان قد طلب إلى بيل إضرام النار قبل ذهابه.

لم يكن ستيف يدري ما يبحث عنه، فأسرع عائدًا إلى المدخل ولاحظ حقيبة ملابسها وحقيبة يدها. فتح باب خزانة الضيوف، وكان وشاحها هناك! ما الذي سيدفعها إلى الخروج مسرعة بدونه؟ نيل! لا بدّ من أنّ نيل عانى إحدى تلك النوبات العنيفة... تلك النوبات التي تصيبه فجأة فتكاد تخنقه.

أسرع ستيف إلى الهاتف على جدار المطبخ. أرقام الطوارئ – المستشفى، الشرطة، قسم الإطفاء، طبيبهم الخاصّ – كانت كلّها مكتوبة بوضوح. اتّصل بعيادة الطبيب في البداية. كانت الممرّضة لا تزال هناك. «لا يا سيّد بيترسون، لم نتلقّ اتّصالًا بشأن نيل، هل هناك...»

أقفل ستيف السمّاعة بدون أن يقدّم تفسيرًا.

اتّصل بغرفة الطوارئ في المستشفى، فكان الجواب: «لا سجلّ لدينا...»

أين كانا؟ ماذا حلّ بهما؟ تحوّلت أنفاسه إلى لهاث صعب. نظر إلى ساعة الحائط. كانت الساعة التاسعة وعشرين دقيقة. لقد انقضى ما يقارب الساعتين منذ حاول الاتّصال بالمنزل. لا شكّ بأنّ غيابهما بدأ منذ تلك الفترة على الأقلّ. الزوجان بيري! لعلّهما عبرا الشارع إلى منزل الزوجين بيري. لعلّ شارون أسرعت بنيل إلى هناك، إذا داهمته نوبة ما...

مدّ ستيف يده إلى الهاتف من جديد. قال في نفسه: «رجاءً يا ربّ. دعهما يكونان في منزل الزوجين بيري. دعهما يكونان بخير.»

آنذاك رأى الرسالة على لوحة المذكّرات، مكتوبة بالطبشور، بأحرف كثيفة وغير مستوية.

«إذا أردت بقاء ابنك وصديقتك حيّين، انتظر التعليمات.»

وتحت الكلمات الثلاث التالية وُضعت عدّة سطور:

«لا تتّصل بالشرطة.»

كانت الرسالة تحمل توقيع «فوكسي».

16

في مكتب التحقيق الفدراليّ في مانهاتن بوسط المدينة، تنهّد هيو تايلور وهو يغلق الدُّرج الأعلى في مكتبه. قال في نفسه: «ربّاه. كم جميل أن أذهب إلى المنزل.» الساعة الآن هي التاسعة والنصف، لذلك يجب أن تكون حركة السير مقبولة. لكنّ العاصفة ربّما أعاقت طريق عامّ وست سايد، وقد يكون الجسر في حال سيّئة الآن.

وقف ومطّ ذراعيه. كانت كتفاه وعنقه مشدودة ومتصلّبة. فكّر في نفسه: «أقترب من عامي الخمسين لكنّني أشعر بنفسي وكأنّني في الثمانين.» كان يومًا بغيضًا، فقد وقعت محاولة أخرى لسلب مصرف... هذه المرّة كان مصرف تشايسبانك عند تقاطع الشارع الثامن والأربعين وطريق ماديسون. نجح أحد أمناء صناديق المصرف في إطلاق جرس الإنذار، واستطاعوا القبض على الفاعلين، لكن بعد أن تعرّض الحارس لإطلاق النار. كان المسكين في وضع صحّي حرج، وقد لا ينجو.

قست ملامح وجه هيو. يجب أن يُحكم على المجرمين الذين يقومون بذلك بالحبس المؤبّد.

لكن ليس بالإعدام. تناول هيو معطفه. لقد كان ذلك أحد أسباب اكتئابه اليوم. قضيّة ذلك الفتى طومبسون. لم يكن يستطيع عدم التفكير به. كان هيو هو مَن تولّى التحقيق في قضيّة بيترسون قبل عامين. تعقّب ورجاله أثر طومبسون حتّى نزلٍ في فرجينيا حيث ألقوا القبض عليه.

أنكر الفتى بعناد أنّه قتل نينا بيترسون. وحتّى حين أدرك أنّ فرصته الوحيدة في النجاة هي بوضع نفسه تحت رحمة المحكمة، أصرّ على الإنكار.

هزّ هيو كتفيه. لقد خرج الأمر من يديه، وهذا مؤكّد. بعد غد، سيموت رونالد طومبسون على الكرسيّ الكهربائيّ.

سار هيو عبر الرواق، وضغط زرّ المصعد يطلبه. لقد كان في غاية الإرهاق حقًّا.

بعد نصف دقيقة، وصل المصعد، وانفتح بابه. دخله وضغط زرّ «م» - أو الطابق المتوسّط.

سمع شخصًا يناديه باسمه، فمدّ يده تلقائيًّا وأوقف الباب ومنعه من الانغلاق. سمع صوت خطوات تسرع نحو المصعد. ثم قبض على ذراعه هانك لامونت، أحد العملاء الأحدث سنًّا.

قال له هانك وهو يلهث:

– هيو، ستيف بيترسون يتّصل بالهاتف... تعرف... زوج نينا بيترسون... الفتى طومبسون.

ردّ هيو بنبرة حادّة:

– أعرف مَن هو. ماذا يريد؟

– إنّه ابنه... يقول إنّ ابنه وتلك الكاتبة، شارون مارتن، قد خُطفا.

17

«من التقط هذه الصور؟» سمعت شارون نبرة الخوف الشديد في صوتها، وأدركت أنّها أخطأت. التقت عيناهما ورأت أنّ نبرتها جفّلته، فقد ضاقت شفتاه، وتسارع النبض في وجنتيه. فقالت غريزيًّا: «أعني... أنّها واقعيّة جدًّا.»

تراجعت الحدّة في قسماته وأجاب: «لعلّي وجدتُها».

تذكّرت الضوء الوامض الذي بهرها في السيّارة، فقالت: «أو لعلّك التقطتَها». وكان في كلماتها شيء من الإطراء.

– ربّما.

أحسّت بيده تلمس شعرها، وتستقرّ طويلًا على خدّها. قالت في نفسها وهي شديدة الاضطراب: «إيّاك والتظاهر بالخوف.» كان رأس نيل لا يزال مستندًا إلى ذراعها. وقد بدأ يرتجف. وتقطّع بكاؤه خلف صفير الربو الحادّ. فتوسّلت إليه قائلة:

– لا تبكِ يا نيل، ستختنق.

ثمّ نظرت إلى خاطفهما وقالت له: «إنّه خائف جدًّا، حُلّ وثاقه».

سألها: «وهل سأروقك إذا حللتُ وثاقه؟» كانت ساقه تضغط على جانبها وهي راكعة بجانب السرير. فأجابته:

«طبعًا ستروقني... لكن رجاءً.» كانت تداعب بأصابعها حلقات الشعر المبلّلة الرمليّة اللون على جبين نيل الصغير.

قال لها الخاطف: «لا تلمسي تلك العصابة.» وقبض على يدها بيد فولاذيّة وأبعدها عن وجه نيل.

ردّت بصوت فيه نبرة استرضاء: «لن ألمسها.» أضاف:

– حسنًا، لبعض الوقت، لكنّني سأحلّ وثاق يديه فقط. لكن أوّلًا... استلقي.

تجمّدت وسألته: «لماذا؟»

– لا يمكنني القبول بأن يكون كلاكما محلول الوثاق. دعي الصبيّ.

لم يكن في وسعها إلّا أن تطيعه. وهذه المرّة قيّد ساقيها معًا من ركبتيها وحتّى كاحليها. ثمّ سحبها فأجلسها على السرير. وقال: لن أقيّد يديك حتّى أصبح مستعدًّا للذهاب، يا شارون.» كان ذلك تنازلًا منه. تلفّظ باسمها ببطء شديد.

مستعدّ للذهاب؟ هل كان ينوي أن يدعهما هنا وحيدين؟ انحنى فوق نيل وقطع قيد معصميه. باعد نيل بين يديه اللتين راحتا تضربان الهواء. تقطّعت شهقاته في صفير حادّ متصاعد.

شدّته شارون إلى حجرها، ولفّته بالمعطف الرماديّ الذي كانت ترتديه. لكنّه قاوم الجسد المرتعد وحاول الإفلات، فقالت له بصوت حازم:

– توقّف يا نيل! اهدأ! تذكّر ما قال لك أبوك أن تفعل حين تصيبك نوبة ربو. اهدأ وتنفّس ببطء شديد.

ثـمّ رفعت عينيها وقالت للخاطف: «رجـاءً، هلاّ تأتيه بماء ليشرب؟»

في الضوء الواهي والمغبرّ، ظهر ظلّه المظلم كبقعة على الجدار الإسمنتيّ، فبدا وكأنّ الطلاء المتقشّر يجزّئه. هزّ رأسه موافقًا ومضى إلى المغسلة الصدئة. تدفّق الماء من الصنبور الذي يتسرّب ماؤه في تيّار متقطّع وضاجّ. فيما كان الرجل يدير ظهره إليهما، رفعت شارون نظرها إلى الصور. كانت اثنتان من النساء ميتتين أو تحتضران. والأخرى كانت تحاول الهرب من شيء ما أو من أحد ما. هل هو مَن فعل بهما ذلك؟ أيّ مجنون هو؟ لماذا خطفها ونيل؟ كان اجتيازه المحطّة الطرفيّة سيرًا معهما أمرًا يتطلّب جرأة. لقد خطّط الرجل لهذا الأمر بعناية، لماذا؟

تقطّعت أنفاس نيل، مخنوقة، وراح يسعل سعالًا قاسيًا ومؤلمًا.

ابتعد الخاطف عن المغسلة وبيده كوب ورقيّ. بدا أنّ صوت الاختناق يثير اضطرابه. أعطى شارون الكوب بيد مرتجفة وقال لها: اجعليه يتوقّف عن ذلك.

حملت شارون الكوب إلى شفتي نيل وقالت له: «نيل، اشرب هذا». فازدرد الماء بسرعة. قالت له: «لا، ببطء يا نيل... والآن، مِل إلى الخلف.» أنهى الصبيّ كوب الماء وتنهّد. فشعرت بجسمه الهزيل يسترخي قليلًا. «هذا كلّ شيء.»

كان الخاطف منحنيًا فوقها، وقال لها: «أنت امرأة لطيفة جدًّا يا شارون. ولهذا السبب وقعتُ في حبّك. لأنّك لا تخشينني. هل تخشينني؟»

– لا، طبعًا لا. أعرف أنّك لا تريد إلحاق الأذى بنا.

قالت له ذلك بنبرة هادئة وكأنّها تحادثه، وأردفت: «لكن لماذا أحضرتنا إلى هنا؟»

لم يجبها، بل سار إلى الحقيبة السوداء، رفعها بحذر ووضعها أرضًا على مسافة أقدام قليلة من الباب. ثمّ جلس القرفصاء فوقها وفتحها.

سألته شارون:

– ماذا في الحقيبة؟

– شيء ما عليّ القيام به قبل أن أذهب.

– أين ستذهب؟

– لا تطرحي الكثير من الأسئلة يا شارون.

– كنت فقط مهتمّة بما تنويه.

راحت تتفرّج على أصابعه تتحرّك بين محتويات الحقيبة. باتت لتلك الأصابع حياة خاصّة بها آنذاك، وجود خاصّ إذ كانت تتحكّم بخبرة بالأسلاك والبارود.

– لا يمكنني أن أتكلّم حين أعمل هكذا. يجب أن يتوخّى المرء الحذر مع النيتروغليسرين. حتّى أنا أفعل ذلك.

أحكمت شارون تطويق نيل بذراعيها. على بعد أقدام قليلة منهما، كان بين يدي ذلك الرجل المجنون متفجّرات. إذا ارتكب خطأً ما... إذا أحدث شرارة ما. تذكّرت انفجار ذلك المنزل الحجريّ في غرينويتش فيلاج. كانت يومذاك في نيويورك في إجازة مدرسيّة، وتتسوّق في مكان قريب، حين سمعت الصوت الذي صمّ أذنيها. فكّرت في كتلة الركام، وأكوام الحجارة المتفتّتة وشظايا الخشب. أولئك الأشخاص كانوا أيضًا يظنّون أنّ بوسعهم تولّي أمر المتفجّرات.

بصمت يقارب خشوع الصلاة راحت تتفرّج وهو يعمل بتأنّ كبير. تجمّد الدم في ساقيها، وتغلغلت الرطوبة إلى جلدها، واعتادت أذنها هدير القطارات الخافت. تطوّر الصفير في صدر نيل إلى شهيق ثابت وسريع لكن غير محموم.

وأخيرًا نهض الرجل وقال: «كلّ شيء جيّد». بدا من صوته أنّه راضٍ.

– ماذا ستفعل بهذه؟

– إنّها حاضنتكما.

– ماذا تعني؟

– عليّ أن أترككما حتّى الصباح، لا يمكنني المجازفة بفقدانكما، أليس كذلك؟

– كيف ستفقدنا، ما دمنا موثوقين ووحيدين هنا؟

– هناك احتمال من مليون، احتمال من عشرة ملايين، بأن يحاول أحدهم دخول الغرفة وأنا خارجها.

– كم ستبقينا هنا؟

– حتى الأربعاء. لا تطرحي عليّ أسئلة يا شارون. سأخبرك أنا بما تحتاجين لمعرفته.

– آسفة، لكنّني لا أفهم.

– لا يمكنني السماح بأن يعثر عليكما أحد. لكن عليّ أن أكون في مكان آخر. لذلك، إذا كان الباب مفخّخًا وحاول أحدهم الدخول...

لم تكن شارون هنا، لم تكن تسمع هذا، لا يمكن أن يكون هذا معقولًا.

– لا تقلقي يا شارون. مساء غد، سيعطيني ستيف بيترسون ثمانين ألف دولار وينتهي كلّ هذا.

– اثنان وثمانون ألف دولار...

– نعم. وصباح الأربعاء، نرحل، أنت وأنا، وسأدلّهم إلى المكان حيث يمكنهم العثور على الصبيّ.

تناهى من مكان بعيد صدى خافت لهدير، تلاه صمت، فهدير آخر.

عَبَر الغرفة نحوها وقال: «آسف يا شارون». وبحركة مفاجئة، انتزع نيل من ذراعيها ورماه على السرير. وقبل أن يستطيع الحراك، سحب يديها إلى الخلف، ثم ترك المعطف ينزلق قبل أن يوثق معصميها.

ثم مضى إلى نيل. قالت له متوسّلة:

– أرجوك، لا تكمّ فم نيل... إذا اختنق، قد لا تستطيع الحصول على المال... قد يكون عليك أن تثبت أنّه لايزال حيًّا. أرجوك... أنت... أنت تروقني. لأنّك ذكيّ جدًّا.

كان يراقبها ويفكّر.

– أنت... أنت تعرف اسمي، لكنّك لم تقل لي ما اسمك حتّى، سأرغب في التفكير فيك.

أدارها نحوه بيديه لتواجهه. كانت يداه غليظتين، خشنتين. من المستحيل التفكير في أنّهما ماهرتان جدًّا في العمل بالأسلاك الدقيقة. انحنى فوقها، وكان لهاثه سيّئًا وساخنًا. عانت قبلته القاسية التي طبعها على شفتيها، قبل أن ينتقل بشفتين رطبتين إلى خدّها وأذنها ليطيل التوقّف عندهما. قال لها بصوت مبحوح:

– اسمي فوكسي. الفظي اسمي يا شارون.

– فوكسي.

قيّد معصمي نيل وسحبه إلى جانبها.

لم يكن السرير العسكريّ الضيّق يتّسع لاستلقاء كليهما متحاذيين فوقه. كانت يدا شارون ملتصقتين بالجدار الإسمنتيّ الخشن. غطّى كليهما بالمعطف الرماديّ القذر، ثمّ وقف فوقهما، ونقّل عينيه بينهما وبين مصعد الأطباق المكسوّ بالألواح.

بدا غير راض، وحائرًا ثمّ قال: «لا، لا يمكنني المجازفة بأن يسمعكما أحد.»

كمّمهما من جديد، لكنّه هذه المرّة لم يشدّ الكمامتين. لم تجرؤ شارون على الاحتجاج أكثر، فقد تعاظم توتّره من جديد.

ثمّ عرفت السبب. فقد كان يربط وبحذر شديد جدًّا سلكًا دقيقًا بشيء ما في الحقيبة، ويمدّه من الحقيبة إلى الباب. أراد ربط ذلك السلك بالباب. وهكذا، إذا دخل أحد ما الغرفة صدفة، تنفجر القنبلة!

سمعت صوت المفتاح الكهربائيّ يُطبق، فخفقت الأضواء المكسوّة بالغبار ثم انطفأت. فُتح الباب ثمّ أغلِق بدون ضجيج. ظهر طيفه لبرهة في ظلمة الخارج، ثمّ توارى عن الأنظار.

آنذاك كانت الغرفة دامسة الظلام، ولم يقطع صمت الكهوف فيها سوى تنفّس نيل المتعب، وهدير خافت يُسمَع أحيانًا لقطار يدخل النفق.

18

قرّر روجر وغلندا بيري مشاهدة أخبار الحادية عشرة وهما في السرير. كانت غلندا قد اِستحمّت وعرضت أن تعدّ له شرابًا ساخنًا بالرُم فيما هو يستحمّ.

قال لها: «هذا يبدو جيّدًا، لكن لا تتلهّي هنا وهناك.»

تفقّد قفل باب المطبخ ومضى إلى الطابق العلويّ. كان الحمّام ساخنًا، يتدفّق ماء مرشّته لاسعًا كالإبر، وباعثًا جدًّا على الرضا. سرعان ما ارتدى ثياب نومه الزرقاء المخطّطة، وطوى إلى الخلف الغطاء الثقيل للسرير الكبير وأضاء مصباحَي القراءة اللذين شعّ نورهما على كلتا الوسادتين.

قبيل دخول السرير، سار إلى النافذة الأماميّة. حتّى في طقس كهذا، كان وغلندا يستمتعان بالإحساس بهواء الليل البارد في الغرفة. رمى تلقائيًّا بنظرة إلى منزل بيترسون. كان آنذاك مضاءً من الداخل والخارج. وشاهد عبر الثلج المحبحب سيّارتين متوقّفتين أمام مدخل المنزل.

دخلت غلندا الغرفة حاملة فنجانًا يتصاعد منه البخار، وسألته:

«روجر، إلامَ تنظر؟»

استدار نحوها مرتبكًا وأجابها:

– لا شيء، لكن ليس عليك أن تقلقي بشأن انطفاء أضواء منزل ستيف. فمنزله مضيء كشجرة عيد الميلاد الآن.

– لا بدّ من أنّ لديه زوّارًا. الحمد لله على أنّنا لم نخرج هذا المساء.

وضعت الفنجان على الطاولة، ونزعت رداءها الليليّ ودخلت السرير. قالت: «أنا متعبة.» تغيّر تعبيرها، واستغرقت في التفكير. ثمّ تجمّد جسدها.

– أتحسّين بالألم؟

– نعم.

– استلقي، سآتيك بحبّة دواء.

مدّ أصابعه التي حاول ألّا يدعها ترتجف إلى زجاجة حبوب النيتروغليسرين الموجودة دائمًا. وراقبها وهي تضع حبّة تحت لسانها وتغمض عينيها. بعد دقيقة، تنهّدت وقالت: «كانت هذه نوبة سيّئة جدًّا. لكن لا بأس الآن».

رنّ الهاتف، فمدّ إليه روجر يده غاضبًا، وتمتم يقول: «إذا كان الاتّصال لك، سأقول إنّك نائمة. بعضهم...» حمل السمّاعة.

قال «نعم.» بنبرة جافّة.

بسرعة، تغيّرت نبرة صوته وبدا عليه القلق، وقال: «ستيف، هل من خطب؟ لا. لا شيء. طبعًا. أوه، ربّاه! سأصل حالًا.»

فيما كانت غلندا تحملق به، أعاد سمّاعة الهاتف إلى مكانها ومدّ يديه إلى يديها وقال بحذر:

– ثمّة خطب في منزل ستيف. نيل وشارون... مفقودان. سأذهب إلى هناك لكنّني سأعود بأسرع ما يمكنني.

– روجر...

– رجاءً يا غلندا. من أجلي، حافظي على هدوئك. أنتِ أدرى بوضعك الصحّي مؤخّرًا. رجاءً!

أخذ كنزة ثقيلة وسروالًا ارتداهما فوق ثياب نومه، وانتعل حذاء جلديًا. كان يغلق الباب الأماميّ حين سمع الهاتف يرنّ مجدّدًا. أدرك أنّ غلندا ستجيب، فأسرع وسط الثلج المدوّم. عَبَرَ حديقة منزله في خطّ مائل، ثمّ اجتاز الشارع ووصل إلى طريق منزل بيترسون. لم يحسّ تقريبًا بالبرد الذي يلفح كاحليه العاريين، والذي يجعل أنفاسه تخرج صعبة وغير متوازنة.

كان يلهث بشدّة، وأخذ قلبه يخفق بسرعة شديدة وهو يقفز ليصعد الدرجات. فتح له الباب رجل سليم البنية وذو قسمات تنمّ عن القوّة وشعر أشيب. وقال له:

– سيّد بيري، أنا هيو تايلور، من مكتب التحقيق الفدرالي. التقينا منذ عامين...

فكّر روجر في ذلك اليوم حين أوقع رونالد طومبسون، أثناء هروبه من المنزل، غلندا التي هرعت إلى الداخل لتجد جثّة نينا.

أجابه: «أتذكّر.» ثمّ هزّ رأسه ومضى إلى غرفة المعيشة. كان ستيف يقف بجانب المدفأة ويداه مضمومتان. كانت دورا لوفتس تجلس على الأريكة حمراء العينين وهي تبكي. وبجانبها جلس زوجها بيل لوفتس وهو يميل بجسده إلى الأمام. مضى روجر توًّا إلى ستيف وأمسك بكتفيه وقال له:

– ربّاه يا ستيف... أجهل ما أقول.

– أشكر لك قدومك بسرعة.

– كم مضى على غيابهما؟

– لسنا واثقين. حدث ذلك بين السادسة والسابعة والنصف.

– هل كانت شارون ونيل هنا وحدهما؟

– نعم، كانا...

ثمّ اختنق ستيف بصوته، لكنّه استعاده بسرعة وقال: «كانا وحدهما».

قال هيو تايلور مقاطعًا:

– سيّد بيري، هل هناك ما تستطيع أن تخبرنا إيّاه؟ هل لاحظت غرباء في الحيّ؟ سيّارات أو شاحنات غريبة؟ هل يمكنك أن تتذكّر شيئًا غير مألوف؟

جلس روجر بتثاقل، وقال لنفسه: «فكّرْ. كان هناك شيء ما، ما هو؟ نعم»

– أنوار منزلك الخارجيّة!

استدار ستيف نحوه بوجه تعابيره حادّة، وقال:

– بيل متأكّد من أنّها كانت مضاءة حين انصرف ودورا. لكنّها كانت مطفأة حين وصلتُ إلى المنزل. ماذا لاحظتَ في شأنها؟

قدّم روجر، مستعينًا بذهنه التحليليّ جدولًا زمنيًّا دقيقًا لنشاطاته المسائيّة. غادر المكتب عند الخامسة إلّا عشر دقائق، ووصل إلى مرآب منزله عند السادسة وعشرين دقيقة. قال لستيف:

– لا بدّ من أنّ أنوارك كانت مضاءة حين وصلتُ إلى المنزل نحو السادسة وعشرين دقيقة، وإلّا للاحظتُ ذلك. أعدّت غلندا شرابًا، وبعد ما لا يزيد عن خمس عشرة دقيقة نظرنا عبر نافذتنا الأماميّة فلاحظت أنّ منزلك مظلم.

قطّب حاجبيه وأضاف: «الواقع أنّنا سمعنا أنغام ساعة الجدار قُبيل ذلك، أي أنّ الساعة كانت نحو السادسة إلّا خمس دقائق». توقّف قليلًا وقال: «ذكرت غلندا أنّ سيّارة كانت آتية من طريق منزلك».

قال هيو تايلور بغتة:

– سيّارة؟ ما نوعها؟

– لا أعلم، غلندا قالت لي ذلك، وكنت أدير ظهري إلى النافذة.

– هل أنت واثق من الوقت؟

نظر روجر مباشرة إلى عميل مكتب التحقيق الفدراليّ وقال له: «أنا متأكّد».

أدرك أنّه يعاني صعوبة في فهم ما كان يسمعه. هل رأت غلندا سيّارة تبتعد وبداخلها نيل وشارون؟ نيل وشارون خُطفا! أما كان يجب أن تنبّههما غريزتهما إلى أنّ هناك خطبًا ما؟ في الحقيقة، كانت قد فعلت. تذكّر الشعور بالخطر الذي انتاب غلندا إلى النافذة، وكيف أرادت منه الذهاب إلى هناك، وأنّه لامها على مبالغتها في ردّة فعلها. غلندا!

ماذا سيخبرها من كلّ ذلك؟ نظر إلى هيو تيلور وقال له: «زوجتي ستستاء كثيرًا».

هزّ هيو برأسه موافقًا وقال له:

– أتفهّم ذلك. السيّد بيترسون يشعر بأنّه يمكن الوثوق بها لمعرفة الحقيقة. لكنّ من الضروريّ جدًّا عدم نشر هذا الخبر. لا نريد تخويف الخاطف أو الخاطفين وإبعادهم.

– أفهم هذا.

– إنّ حياة شخصين رهن بأن تكونوا جميعًا طبيعيّين في تصرّفكم بأكبر قدر ممكن.

«حياة شخصين...» استغرقت دورا لوفتس في نشيج تردّد معه البكاء في صدرها. «صغيري نيل... وتلك الفتاة الجميلة. لا أصدّق هذا... بعد السيدة بيترسون...»

قال لها زوجها بيل بصوت هو أشبه بالتوسّل المنتحب: «دورا، الزمي الصمت.»

نظر روجر إلى وجه ستيف يعتصره الألم.

سأله هيو تايلور:

– سيّد بيري، هل تعرف الآنسة مارتن؟

– نعم، التقيت شارون مرّات كثيرة هنا وفي منزلي. أيمكنني الآن الذهاب لأتفقّد زوجتي؟

– طبعًا، نريد أن نحادثها بشأن السيّارة التي رأتها. معي عميل آخر، يمكنني إرساله إليها.

– لا، أفضّل الذهاب بنفسي. هي ليست بحال جيّدة، ونيل يعني لها الكثير.

فكّر روجر: «أنا أجري محادثة. لا أصدّق هذا. لا أصدّق. كيف يتحمّل ستيف هذا؟» نظر بتعاطف ورأفة إلى الرجل الذي يصغره سنًّا. بدا ستيف هادئًا لكن نظرة المعاناة الشاحبة التي ارتسمت في الماضي على وجهه، والذي لم يعرف معها الارتياح إلّا في الأشهر القليلة الماضية، عادت مجدّدًا لتظهر في ذلك الامتقاع الرماديّ، في تجاعيد جبهته التي تعمّقت فجأة، وفي الخطوط المشدودة حول فمه. قال له مقترحًا: «لمَ لا تتناول شرابًا ما أو فنجان قهوة يا ستيف؟، تبدو مضطربًا جدًّا.»

– ربّما بعض القهوة.

رفعت دورا عينيها بحماسة، وقالت:

– أنا سأعدّها... وسأعدّ بعض الشطائر. ربّاه، حين أفكّر... نيل... لماذا كان عليّ الذهاب إلى السينما هذا المساء؟ إذا حدث شيء ما لذلك الفتى، فلن أتحمّل، لن أتحمّل!

وضع بيل لوفتس يده على فم وزوجته وصاح بها: «لمرّة واحدة في حياتك، اخرسي! اخرسي!» كان في صوته شراسة ومرارة. لاحظ روجر أنّ هيو تايلور يدرس سلوك الزوجين بتركيز شديد.

الزوجان لوفتس؟ هل يمكنه أن يشتبه بهما؟ لا، أبدًا، محال.

كان في الردهة حين ارتفع رنين الجرس بقوّة. هبّوا كلّهم فيما اجتاز الردهة في ثوان عميل للشرطة كان في المطبخ، فسبق روجر وفتح الباب.

وقفت غلندا في الباب، وقد بلّل الثلج شعرها ووجهها. كانت تنتعل خفّين مفتوحين من قماش الساتان، ولا يقيها الريح اللاسعة والمبلّلة سوى مبذلها الصوفيّ الورديّ اللون. كان وجهها أبيض بلون الرخام، وبؤبؤاها قد تمدّدا ويحملقان في شيء ما. كانت تقبض على ورقة في يدها، وجسدها يرتعد بعنف.

أسرع إليها روجر وأمسك بها قبل أن تنهار، وضمّها إليه.

قالت وهي تنشج:

– روجر، الاتّصال، الاتّصال الهاتفيّ... جعلني الرجل أدوّن ما قاله. جعلني أكرّر عليه ما كتبتُه. قال لي: أحسني التصرّف وإلّا... وإلّا... فإنّ نيل...

انتزع هيو الورقة من يدها وقرأها بصوت مرتفع: «قولي لستيف بيترسون إنّ عليه، إذا أراد عودة ابنه وصديقته، أن يذهب إلى كشك

الهاتف في محطّة إكسون، عند المخرج 22 لطريق ميريت، صباح غد عند الثامنة وسيتلقّى التعليمات المتعلّقة بالفدية».

قطّب هيو حاجبيه. كانت الكلمة الأخيرة غير مفهومة، وسأل:

– ما هذه الكلمة، يا سيّدة بيري؟

– جعلني أقرأها عليه مجدّدًا... لم أكن أستطيع الكتابة... كان نافد الصبر... إسمه فوكسي. أجل، لقد كرّر قول ذلك.

ارتفعت حدّة صوت غلندا، واعتصر الألم وجهها. ابتعدت عن روجر وهي تقبض على صدرها، وأضافت:

– كان... كان يحاول تغيير صوته... لكن، حين أعاد قول الاسم... روجر، لقد سمعت ذلك الصوت. أعرف ذلك الرجل.

19

قبل أن يغادر بوب كورنر سجن سومرز التابع للولاية، اتّصل بكاثي مور وسألها لقاءه في مكتبها.

كانت كاثي مساعدة المَدّعي العامّ في بريدجبورت، ومعيّنة في محكمة الأحداث، وقد سبق أن التقيا حين كان بوب محامي دفاع من قبل الولاية في تلك المحكمة. ربطت بينهما علاقة منذ أشهر ثلاثة، وتورّطت كاثي عميقًا معه في نضاله لإنقاذ رون طومبسون.

كانت تنتظره في ردهة الاستقبال ومعها عاملة الضرب على الآلة الكاتبة التي طلب حضورها. قالت له:

– قالت مارج إنّها مستعدّة لقضاء الليل كلّه إذا لزم الأمر. كم لديك؟

– الكثير، جعلتُه يراجع سرد الرواية أربع مرّات. ستستغرق كتابتها ساعتين على الأقلّ.

مدّت إليه مارج إيفانز يدها وقالت بصوت ينمّ عن خبرة في العمل: «هاتها». وضعت المسجّلة على مكتبها، وشدّت جسدها الضخم على كرسيّها الدوّار، وأدخلت الكاسيت في المسجّلة وأعادت

لفّ الشريط إلى بدايته. خرج صوت رون طومبسون، متقطّعًا وخفيضًا: «كنت أعمل بعد ظهر ذلك اليوم، بعد المدرسة، في متجر تيمبرلي...»

أوقفت مارج المسجّلة بغتة وقالت: «انصرفا إلى عمل آخر، أنا سأهتمّ بهذا الأمر».

قال لها بوب: «شكرًا يا مارج.» ثمّ استدار إلى كاثي وسألها: «هل أحضرت تلك الملفّات؟»

أجابت: «نعم، هي في الداخل.» تبعها إلى مكتبها الصغير والمزدحم. كانت طاولة المكتب خالية إلّا من أربع ملفّات معنْوَنَة «كارفولي»، «وايس»، «أمبروز»، «كالاهان».

كانت تقارير الشرطة فوقها. قالت له كاثي:

– لن يقدّر ليس بروكس هذا يا بوب. في الواقع قد يطردني إذا ما عرف بالأمر.

ليس بروكس كان المدّعي العامّ. جلس بوب إلى المكتب وتناول الملفّ الأوّل. قبل أن يفتحه، نظر إلى كاثي. كانت ترتدي سروالًا من نسيج الدنغري الخشن وكنزة ثقيلة، وشدّت شعرها إلى الخلف برباط مطّاطيّ عند مؤخّرة عنقها. بدت فتاة عمرها ثمانية عشر عامًا أكثر منها محامية في الخامسة والعشرين. لكن بعدما تجابها للمرّة الأولى في المحكمة، لم يرتكب بوب قطّ خطأ التقليل من قدرها. كانت محامية بارعة ذات ذهن حادّ وتحليليّ وشغوفة بالعدالة.

قال لها:

– أعرف ما تجازفين به يا كاث. لكن إذا استطعنا العثور على خيط بين تلك الجرائم وجريمة قتل نينا بيترسون... ذلك الخيط هو أملنا الوحيد لرون الآن.

سحبت كاثي كرسيًّا إلى الجانب الآخر من المكتب، وأخذت ملفّين. ثمّ قالت:

– إذا وجدنا أيّة صلة بين هذه القضايا، سينسى ليس مخالفة اطّلاعك على ملفّاتنا. الجرائد تهاجمه بشدّة. وبدءًا من صباح اليوم، بدأت الجرائد تدعو الجريمتين الأخيرتين «جريمتا الأجهزة اللاسلكيّة».

– لماذا؟

– الفتاة كالاهان والسيدة أمبروز كانتا تملكان جهازَي اتّصال لاسلكيّ، وقد طلبتا النجدة. كانت السيدة أمبروز تائهة وكادت سيّارتها تفرغ من الوقود، فيما ثُقب إطار الفتاة كالاهان. ومنذ عامين، قُتلت السيدة وايس وجين كارفولي وهما تقودان سيّارتيهما وحيدتين على طرق موحشة. لكنّ ذلك لا يثبت وجود أيّة صلة. حين قُتلت جين والسيّدة وايس بدأت الجرائد تتحدّث عن «جرائم رجل الطريق العامّ» كانت تلك كلّها جملًا لافتة تصلح للعناوين الصحفيّة.

– ما رأيك؟

– لا أعرف ما رأيي. بعد اعتقال رون طومبسون بجريمة قتل بيترسون، لم تُقتل أيّة امرأة أخرى في مقاطعة فيرفيلد حتّى الشهر الماضي. لدينا الآن جريمتا قتل غير محلولتي اللغز. لكنّ جرائم قتل أخرى على صلة بالأجهزة اللاسلكيّة وقعت في أنحاء البلد. أمر رائع أن يملك المرء جهازًا لاسلكيًّا، لكن من الجنون أن تقول امرأة على الهواء إنّها وحيدة على طريق خالٍ وإنّ سيّارتها معطّلة. إنّها دعوة لكلّ مخبول في المنطقة يصغي إلى البثّ اللاسلكيّ لكي يتوجّه إليها توًّا. ربّاه، إحدى القضايا في لونغ آيلاند العام الماضي كانت تخصّ صبيًّا في الخامسة

عشرة اعتاد أن يصغي إلى قناة الشرطة وأن يتّجه إلى مناطق المتاعب. في النهاية قبضوا عليه حين طعن امرأة اتّصلت تطلب المساعدة.

قال بوب:

– ما زلت أقول إنّ ثمّة صلة بين تلك القضايا الأربع، وإنّ قضيّة نينا بيترسون مرتبطة بها بشكل ما. اعتبري الأمر حدسًا، اعتبريه محاولة يائسة، اعتبريه ما تشائين، لكن ساعديني.

– سنبدأ بلائحة. المكان، الزمان، سبب الوفاة، السلاح المستعمَل، حالة الطقس، نوع السيّارة، الخلفيّة العائليّة، شهادات الشهود، المكان الذي كانت الضحايا تقصده، أين كنّ في ذلك المساء. في القضيّتين الأخيرتين، سنقيس الوقت بين الرسالة التي بعثتا بها بالجهاز اللاسلكيّ وبين ساعة العثور على الجثّة. حين ننتهي، نقارن كلّ شيء بظروف موت السيّدة بيترسون، إذا لم نجد شيئًا، نبدأ من زاوية أخرى.

بدآ عند الثامنة وعشر دقائق. وعند منتصف الليل، أتت مارج ومعها 4 رزمات من الورق. قالت: انتهى كلّ شيء. باعدتُ المسافة بين الأسطر ثلاثة أضعاف حتى يسهل عليكما تمييز التناقض بين النسخة والأخرى. أتعرفان؟ إنّ الاستماع إلى ذلك الفتى يكفي لينفطر القلب. أنا عاملة اختزال قانونية منذ عشرين عامًا وسمعتُ الكثير من الأمور المروّعة، لكنّني أعرف رنّة الحقيقة حين أسمعها، وذلك الفتى يقول الحقيقة.

ابتسم بوب ابتسامة متعبة، وقال: «ليتك كنت الحاكمة يا مارج، شكرًا جزيلًا».

– ماذا وجدتما؟

هزّت كاثي رأسها وقالت: «لا شيء، لا شيء على الإطلاق».

– قد تدلّكما هذه الأوراق إلى شيء ما، لماذا لا أعدّ لكما بعض القهوة؟ لا شكّ بأنّ أيًّا منكما لم يتناول عشاءه.

حين عادت بعد عشر دقائق، كان كلّ من بوب وكاثي جالسًا وأمامه رزمتا أوراق. كان بوب يقرأ بصوت مرتفع. وكانا يقارنان بين النسخ سطرًا سطرًا.

وضعت مارج القهوة على الطاولة وغادرت الغرفة بصمت. فتح لها الحارس باب المبنى لتخرج. وفيما تدثّرت في دفء معطفها الواقي من العواصف، واستعدّت لسير المسافة الطويلة عبر موقف السيّارات الذي غطّاه الثلج، لاحظت أنّها تصلّي. قالت في سرّها: «أرجوك يا ربّ، إن كان هناك ما هو موجود لمساعدة ذلك الفتى، دع ذينك الشابّين يجدانه.»

ظلّ بوب وكاثي يعملان حتّى الفجر. ثمّ قالت كاثي: «يجب أن نتوقّف. عليّ العودة إلى المنزل لأستحمّ وأغيّر ملابسي. يجب أن أكون في المحكمة عند الثامنة. كما أنّني لا أريد أن يراك أحد هنا.»

هزّ بوب برأسه موافقًا. آنذاك كانت الكلمات التي يقرأها قد تشوّشت في رأسه. قاما مرارًا بمراجعة النسخ الأربع لرواية رون لنشاطاته يوم الجريمة. ركّزا على الوقت الذي كلّمته نينا بيترسون خلاله في متجر تيمبرلي حتّى ساعة هربه من منزلها مذعورًا. لم يستطيعا العثور على اختلاف واحد ذي مغزى. قال بوب بعناد: «لا بدّ من وجود شيء ما هنا، سآخذ هذه الأوراق معي إلى المنزل... هاتي اللوائح التي أعددناها للقضايا الأربع الأخرى.»

– لا يمكنني أن أتركك تأخذ الملفّات.

- أعرف ذلك. لكن لعلّنا أغفلنا عاملًا ما في مقارنة القضايا.

قالت كاثي بصوت رقيق: «لم نغفل شيئًا يا بوب.»

وقف، وقال: «سأذهب توًّا إلى مكتبي وأبدأ من جديد. سأقارن هذه النسخ بنسخ المحاكمة الآن».

ساعدته كاثي على وضع الموادّ في حقيبته، وقالت له:

- لا تنسَ المسجّلة والكاسيتات.

- لن أنساها.

ثمّ مدّ إليها ذراعه وعانقها. أسندت جسدها إليه لبعض الوقت. قال لها:

- أحبّك يا كاث.

- أحبّك.

صاح:

- ليت لدينا وقتًا أطول. إنّها عقوبة الإعدام اللعينة تلك. كيف يستطيع اثنا عشر شخصًا الدخول والقول إنّ على ذلك الفتى أن يموت؟ حين يقبضون على القاتل الحقيقيّ - إذا قبضوا عليه - سيكون الأوان قد فات بالنسبة إلى رون.

فركت كاثي جبهتها بيدها وقالت:

- في البداية سُررت حين أعيد العمل بعقوبة الإعدام. أنا آسفة لأجل الضحايا. أنا أكثر أسفًا لأجلهم ممّا أنا آسفة لأجل الفاعلين. لكن كان لدينا أمس فتى في محكمة الأحداث. عمره أربعة عشر عامًا لكنّه يبدو في الحادية عشرة. إنّه فتى صغير القامة وهزيل. والداه كلاهما مدمنا كحول لا أمل يُرجى منهما. وقّعا شكوى ضدّه زاعمين أنّه فاسد حين كان في عامه السابع. في عامه السابع. وهو منذ ذلك الحين

يدخل إلى بيوت رعاية الأطفال ويخرج منها. ولا ينفكّ يهرب. هذه المرّة وقّعت الأمّ الشكوى، أمّا الأب فيحاربها. هما منفصلان والوالد يريده معه.

– ماذا حدث؟

– أنا فزت... إذا كان يمكنك تسمية الأمر هكذا. أصررتُ على إعادته إلى بيت رعاية للأحداث، فوافق القاضي. الوالد مضطرب التفكير جدًّا بفعل الكحول لدرجة أنّه فقد العقل تمامًا. حاول الفتى الهروب من قاعة المحكمة، فاضطرّ الحارس إلى إعاقته للقبض عليه. أصيب بنوبة هستيريا وراح يصرخ: «أكره الجميع. لماذا لا أستطيع أن أحظى بمنزل كالأولاد الآخرين؟» لقد تعرّض لأذى نفسيّ كبير من الناحية النفسيّة لدرجة أنّ الوقت قد فات فعلًا على إنقاذه. إذا قام بعد خمسة أو ستّة سنوات بقتل شخصٍ ما، هل نعدمه؟ هل علينا ذلك؟ واغرورقت عيناها بالدموع.

– أعرف يا كات. لماذا اخترنا مهنة القانون؟ ربّما كان علينا أن نكون أذكى. هذه المهنة تمزّق أحشاءنا.

انحنى، وقبّلها في جبينها، وقال لها: «سأكلّمك لاحقًا».

حين وصل بوب إلى مكتبه، ملأ إبريق القهوة ماءً حتى طفح ووضعه على صفيحة التسخين. أزالت أربعة أكواب نسكافيه مرّة وسوداء كلّ شعور بالضبابيّة لديه. رشق وجهه بالماء البارد وجلس إلى الطاولة الطويلة في مكتبه. بسط أمامه صفوف الأوراق بترتيب كبير. ألقى نظرة إلى الساعة فوق مكتبه. كانت الساعة السابعة والنصف. أمامه حتّى موعد الإعدام ثَمانٍ وعشرون ساعة فقط، لذلك السبب كان قلبه يخفق، وأحسّ بانقباض كبير في حلقه.

لا. كان في الأمر أكثر من الإحساس المحموم بنفاد الوقت. كان شيء ما يقرع وعيه. فكّر في نفسه: «لقد أغفلنا شيئًا ما.»

هذه المرّة لم يكن الأمر حدسًا، كان يقينًا.

20

بعد عودة الزوجين بيري إلى منزلهما، ودخول الزوجين لوفتس غرفتهما للنوم، ظلّ ستيف وهيو تايلور جالسين لوقت طويل إلى مائدة غرفة الطعام.

قام عملاء آخرون بصمت وفعاليّة برفع البصمات وتفتيش المنزل ومحيطه عن آثار للخاطف. لكنّ الرسالة المكتوبة بعجلة كانت الدليل الوحيد الذي عثروا عليه.

قال هيو لستيف: «لعلّ البصمات التي على الكأس والفنجان ستطابق البصمات التي على حقيبة يد شارون مارتن.»

هزّ ستيف رأسه موافقًا. أحسّ بفمه جافًّا ومالحًا. شرب أربعة فناجين من القهوة، ودخّن سجائر لا تُحصى. كان قد أقلع عن التدخين حين بلغ الثلاثين من عمره، ثمّ عاد إليه بعد موت نينا. هيو تايلور هو مَن أعطاه السيجارة الأولى. ارتسم على طرفَي فمه ما يشبه الابتسامة، لكنّها كانت كالحة وخالية من أيّة فكاهة. قال له وهو يشعل سيجارة جديدة: «أنت مَن أعدتَني للتدخين».

هزّ هيو رأسه موافقًا. إن كان في العالم إنسان بحاجة إلى سيجارة آنذاك، فهو ستيف بيترسون. والآن ابنه! تذكّر هيو كيف كان جالسًا مع ستيف إلى هذه الطاولة حين اتّصل روحانيّ مخبول ليقول إنّ نينا بعثت إليه برسالة. كانت الرسالة تقول: «قل لزوجي أن يحذر. ابني في خطر.» حدث ذلك صباح يوم جنازة نينا.

انقبض هيو حين تذكّر تلك الحادثة. كان يرجو ألاّ تمرّ في بال ستيف. درس الملاحظات التي دوّنها، وقال لستيف:

– في كشك خارجيّ في محطّة إكسون هاتف مدفوع، سنصله بجهاز تنصّت، وكذلك سنفعل بهاتف منزلك ومنزل الزوجين بيري. تذكّر حين تُحادث فوكسي أن تحاول إطالة المحادثة، ما يمنحنا الفرصة لتعقّب مصدرها وتسجيل صوته. فرصتنا الكبرى أن تستطيع السيّدة بيري تذكّر مَن هو إذا سمعت صوته مجدّدًا.

– أتظنّ حقًّا أنّها لا تتخيّل معرفتها بالصوت؟ رأيت كم كانت مستاءة.

مكتبة الرمحي أحمد

– كلّ شيء ممكن. لكنّها تبدو امرأة عاقلة، وهي واثقة جدًّا. بأيّة حال... تعاون معه. قل لفوكسي إنّك تريد دليلًا إلى أنّ شارون ونيل حيّان ولم يتعرّضا للأذى. وإنّك تريد رسالة منهما على كاسيت أو شريط تسجيل. مهما كان المبلغ الذي يطلبه، عِده بأنكّ ستؤمّنه له، لكنّ أصِرَّ على أنّك لن تدفعه له قبل أن تتلقّى الدليل.

تساءل ستيف عمّا إذا كان بوسعه أن يوحي للخاطف بأنّه على هذا القدر من البرودة وعدم الاكتراث. وسأل هيو:

– ألن يثير هذا الأمر عدائيّته؟

– لا، لكنّه سيساعدنا على ضمان عدم إصابته بالذعر و...

لم يكمل الجملة، لكنّه أدرك أن ستيف فهم ما يعنيه. أخذ دفتره، وقال:

– لنبدأ من جديد. كم شخصًا كانوا يعلمون ما سيحدث في هذا المنزل هذا المساء... أي أنّ الزوجين لوفتس كانا يخطّطان للخروج، وأنّ شارون آتية؟

– لا أعلم.

– الزوجان بيري؟

– لا، لم أرهما خلال الأسبوع الماضي إلّا لألوّح لهما بيدي.

– أي أنّ العارفين هم فقط الزوجان لوفتس وشارون مارتن وأنت...

– ونيل.

– صحيح. هل من احتمال بأنّ نيل أخبر أشخاصًا آخرين بقدوم شارون؟ كأصدقائه أو معلّميه في المدرسة؟

– هذا ممكن.

– ما جدّية علاقتك بشارون؟ آسف لسؤالي، لكنّ عليّ أن أطرحه.

– إنّها جدّية جدًّا، أخطّط لأسألها الزواج بي.

– علمت أنّك ظهرت والآنسة مارتن صباحًا في برنامج «اليوم»، وأنّكما اختلفتما في الرأي بشدّة حيال عقوبة الإعدام، خصوصًا وأنّها كانت في غاية الاستياء بشأن إعدام طومبسون.

– أنتم تعملون بسرعة.

– علينا أن نفعل ذلك يا سيّد بيترسون. كم أثّر ذلك الخلاف في علاقتكما الشخصيّة؟

– إلامَ تلمّح؟

– هذا فقط. أنت تعلم أنّ شارون مارتن بذلت قصارى جهدها لإنقاذ حياة رونالد طومبسون. سبق لها أن زارت منزل الزوجين بيري، ولعلّها دوّنت رقم هاتفهما. لا تنسَ أنّ الرقم غير مُدرج في دليل الهاتف. أتظنّ أنّ هناك احتمالًا بأنّ عمليّة الخطف هذه خدعة... وأنّها ترجو منها تأجيل عمليّة الإعدام بطريقة ما؟

– لا... لا... لا! هيو، أفهم أنّ عليك النظر إلى هذه الزاوية، لكن أرجوك، بالله عليك، لا تُضع وقتك عليها. بوسع كاتب تلك الرسالة أن يكون قد نسخ رقم هاتف الزوجين بيري. فهو مكتوب على اللوح بجانب رقم الطبيب. شارون أعجز من أن تقوم بأمر كهذا.

بدا هيو غير مقتنع. وقال:

– سيّد بيترسون، عرفنا في السنوات العشر الأخيرة أشخاصًا لا مجال للظنّ بهم أبدًا يخالفون القانون باسم قضايا يؤمنون بها. هذا ما أقوله لك: إذا كانت شارون مارتن مَن خطّطت لهذا الأمر، فابنك في أمان.

التمعت في ذهن ستيف بارقة أمل صغيرة. هذا الصباح قالت له شارون: «كيف يسعك أن تكون متأكدًا جدًا... وجازمًا جدًا... كيف يمكنك ألاّ تلين..؟» إذا كان هذا رأيها فيه، هل يمكنها... تلاشى أمله وقال بصوت لا تعبير فيه: «لا، هذا مستحيل».

– حسنًا، سندع الأمر عند هذا المستوى في الوقت الراهن. ماذا عن بريدك الإلكترونيّ؟ هل تلقّيت تهديدات أو رسائل كراهية أو أيّ شيء؟

– فقط بعض رسائل الكراهية بسبب موقف افتتاحيّاتي من عقوبة الإعدام، خصوصًا مع اقتراب إعدام طومبسون... لكن أليس هذا مفاجئًا؟

– ألم تتلقّ أيّة تهديدات مباشرة؟

أجاب ستيف عابسًا: «لا.»

سأله هيو بسرعة:

– فيمَ تفكّر؟

– استوقفتني والدة رون طومبسون الأسبوع الماضي. أنا آخذ نيل لتلقّي حقنة مضادّة للحساسية صباح كلّ سبت. كان في موقف سيّارات مبنى العيادات حين خرجنا. سألتني أن أتوسّل إلى الحاكمة للعفو عن طومبسون.

– بمَ أجبتَها؟

– قلت لها إنّني لا أستطيع القيام بشيء. كنت فقط أريد إبعاد نيل. طبعًا لم أرِده أن يعرف بأمر الأربعاء. أردته أن يدخل السيّارة بأسرع ما يمكن كي لا يسمع محادثتنا، فأدرت ظهري إليها. لكن بدت أنّها تظنّني أتجاهلها. قالت ما يعني: «ماذا سيكون شعورك لو أنّه ابنك الوحيد... ماذا سيكون شعورك؟» ثمّ سارت مبتعدة.

سجّل هيو ملاحظة في دفتره وقال: سنتحقّق من أمرها. ثمّ وقف وحرّك كتفيه، وهو يكاد لا يتذكّر أنّه منذ ساعات قليلة كان يتوق للنوم. وقال لستيف:

– سيّد بيترسون، حاول أن تتشبّث بفكرة أنّ سجلّنا في إنقاذ ضحايا الخطف جيّد جدًّا، وسنبذل كلّ ما بوسعنا. أقترح عليك أن تنام لساعات قليلة.

نظر إليه ستيف غير مصدّق، وقال: «أنام؟»

– إذًا خذ قسطًا من الراحة. اذهب إلى غرفتك واستلقِ في سريرك. سنكون هنا وسنناديك إذا كان من داع لذلك. إذا رنّ الهاتف،

أجب، نحن نتنصّت عليه الآن. لكنّني لا أظنّك ستسمع خبرًا جديدًا من الخاطف الليلة.

– حسنًا.

خرج ستيف متعبًا من غرفة الطعام. توقّف في المطبخ ليشرب كوب ماء، وندم على أنّه فعل ذلك. رأى على طاولة المطبخ فنجان الكاكاو وكأس النبيذ، وقد تلطّخا بالبودرة السوداء الخاصّة برفع البصمات.

شارون. منذ ساعات قليلة فقط كانت في هذا المنزل مع نيل. لم يدرك قطّ كم كان يريد من نيل أن يثق بشارون وأن يعجب بها حتّى الأسابيع الثلاثة الأخيرة حين افتقدها افتقادًا مؤلمًا.

غادر المطبخ بصمت ومضى إلى الردهة. صعد الدرج وسار في الرواق، فاجتاز غرفة نيل وغرفة الضيوف ووصل إلى غرفة النوم الرئيسيّة. سمع صوت خطوات في الأعلى. كان الزوجان لوفتس يسيران في غرفتهما في الطابق الثالث. من الواضح أنّهم أيضًا لم يكونا يستطيعان النوم.

أضاء النور في غرفته ووقف بقرب الباب، يدرس الغرفة. أعاد تأثيثها بعد موت نينا. لم يرد أن يبقى وسط الأثاث الأبيض القديم الذي كانت تحبّه كثيرًا. استبدل السرير المزدوج بسرير كبير الحجم ذي أعمدة نحاسيّة، واختار قماش التويد باللونين البنيّ والأبيض. أكّد له عامل متجر إعادة التأثيث أنّ تلك هي غرفة رجل.

لم يبالِ بالغرفة قطّ. كانت موحشة وعارية ولا شخصيّة لها، كغرفة في نزل. المنزل كلّه كان كذلك. اشترياه لأنّهما أرادا امتلاك عقار على الواجهة البحريّة. قالت له نينا: «للمنزل إمكانيّات حقيقيّة. مهلًا وسترى. امنحني فقط ستّة أشهر.» لم تحظَ إلّا بأسبوعين...

في آخر زيارة له إلى شقّة شارون، استسلم لأحلام يقظة حول تغيير ديكور هذه الغرفة، وهذا المنزل معها. كانت تعرف كيف تضفي على المنزل سحرًا وراحة وحفاوة. كان ذلك في الألوان التي تستخدمها والمساحات الخالية التي تريح النظر. وكان ذلك في حضورها.

نزع حذاءيه، ورمى بنفسه بتثاقل فوق السرير. أحسّ بالبرد فمدّ يده إلى الغطاء المطويّ ورفعه، ثمّ أطفأ ضوء المصباح فوق السرير.

غرقت الغرفة في ظلمة دامسة. في الخارج كانت الريح تصدم أغصان أشجار القرانيا بجدران المنزل، والثلج يقرع النوافذ وكأنّما بقفّاز من فرو.

أخذه النعاس في نوم قصير مضطرب. بدأ يحلم. شارون. نيل... أرادوه أن يساعدهما. كان يجري وسط ضباب كثيف... في رواق طويل. رأى غرفة، كان عليه الدخول إليها. مدّ يده وفتح الباب بقوّة. انقشع الضباب ثمّ زال تمامًا. رأى نيل وشارون يرقدان أرضًا وحول عنقيهما منديلان معقودان، وحول جثّتيهما رُسمت خطوط بطبشور مشعّ.

21

كان خطرًا جدًّا أن يراه أحدهم آتيًا من ناحية سكك ماونت فرنون وحيدًا في وقت متأخّر من الليل. فالحرّاس في المحطّة الطرفيّة السفلى يلاحظون تفاصيل كهذا. لهذا السبب ترك شارون والصبيّ عند الحادية عشرة إلّا دقيقتين. لأنّ قطارًا دخل المحطّة مقعقعًا في تمام الحادية عشرة واستطاع صعود المنحدر والدرج مع الثمانية أو العشرة أشخاص الذين خرجوا منه.

اقترب من ثلاثة بينهم مضوا إلى مخرج جادّة فاندربيلت. عرف أنّه كان بالنسبة إلى مَن يراقب مجرّد شخص من أربعة. انسلّ مبتعدًا عن الآخرين حين استداروا يسارًا نحو جادّة فاندربيلت. أمّا هو فقد استدار يمينًا، وألقى نظرة على الشارع وتوقّف في مكانه. رأى شاحنة قطر تابعة للشرطة، وعمّال يربطون إليها بالسلاسل سيّارة شفروليه بنيّة اللون في حال سيّئة. لقد كانوا على وشك أن يقطروا السيّارة ويذهبوا بها!

بدأ السير نحو أطراف المدينة، بمرحٍ لاهٍ. كان ينوي إجراء اتّصال هاتفيّ من كشك أمام متجر بلومينغدايلز. جعلته مسيرة

المربّعات الخمسة عشر عبر جادّة لكزنغتون يحسّ بالبرد، ويفقد بعضًا من الشعور النابض بالرغبة الذي انتابه حين قبّل شارون. وهي كانت تبادله القدر عينه من الرغبة. كان يشعر بذلك.

لولا الصبيّ لربّما مارس الحبّ مع شارون. برغم وجود العصابة، كانت للصبيّ عينان. ربّما كان بوسعه أن يرى من خلال العصابة. تلك الفكرة جعلته يرتجف.

تراجع انهمار الثلج قليلًا، لكنّ السماء لا تزال قاتمة اللون وملبّدة. قطّب حاجبيه حين تذكّر كم من المهمّ أن تكون الطرق سالكة حين يستلم المال.

كان يخطّط للاتّصال بمنزل الزوجين بيري، وإن لم يكونا في المنزل، فبمنزل بيترسون مباشرة. لكنّ في ذلك مخاطرة ربّما.

حالفه الحظّ. فقد أجابت السيّدة بيري على الهاتف من الرنّة الأولى. أدرك من صوتها أنّها متوتّرة الأعصاب جدًّا. لعلّ بيترسون اتّصل بهما حين اكتشف غياب الصبيّ وشارون. أبلغ السيّدة بيري الرسالة بالصوت المنخفض والأجشّ الذي تمرّن عليه. لكنّه انفجر غضبًا حين عجزت غلندا عن فهم الاسم الذي يقوله لها، ورفع نبرة صوته. ذلك كان تهوّرًا من جانبه! حماقة! لكن لعلّها كانت أشدّ استياءً من أن تلاحظ.

أعاد سمّاعة الهاتف برفق إلى مكانها، وابتسم. إذا تمّ الاتّصال بمكتب التحقيق الفدراليّ، فسيتنصّتون على الهاتف في محطّة إكسون. لهذا، سيقول في الصباح لبيترسون حينما يتّصل به إلى ذلك الهاتف، أن يذهب توًّا إلى الكشك في محطّة الخدمة التالية. ولن يتسنّى لهم الوقت لتركيب جهاز تنصّت عليه.

غادر كشك الهاتف وهو يشعر بالبهجة ويهنّئ نفسه على ذكائه الشديد. كانت فتاة تقف في مدخل متجر صغير للفساتين. وبرغم البرد كانت ترتدي تنّورة قصيرة، استكملتها بحذاءين أبيضين وسترة بيضاء من الفرو. وجدها جذّابة جدًّا. ابتسمت له. كان شعرها كثيفًا وأجعد حول وجهها. كانت في مقتبل العمر، لم تتجاوز عامها الثامن عشر أو التاسع عشر، وقد أعجبها. كان ذلك واضحًا له. ابتسمت له عيناها فبدأ السير نحوها.

لكنّه توقّف. كانت مومسًا بلا شكّ. وحتّى برغم أنّ إعجابها به كان جدّيًّا، ماذا لو أنّ الشرطة كانت تراقب، واعتقلت كليهما؟ نظر حوله بخوف. سبق أن قرأ عن فساد خطط كبيرة بفعل خطأ بسيط.

مرّ بها مجرّدًا من كلّ انفعال، وسمح لها بابتسامة هزيلة قبل أن يضع رأسه في الريح الباردة ويسرع إلى فندق بيلتمور.

أعطاه موظّف الاستقبال الليليّ المتهكّم نفسه مفتاح غرفته. لم يكن قد تناول العشاء وأحسّ بجوع شديد. سيطلب زجاجتين أو ثلاث من البيرة من خدمة الغرف أيضًا. كان دائمًا يعطش إلى الجعة في مثل هذا الوقت. لعلّها العادة.

في انتظار شطيرتَي الهمبرغر والبطاطا المقليّة وفطيرة التفّاح، جلس يستحمّ في مغطس الحمّام. تركت فيه غرفة المحطّة إحساسًا بالعفن والبرد والقذارة. بعدما جفّف نفسه، ارتدى ملابس النوم التي اشتراها لهذه الرحلة وتفحّص بزّته جيّدًا. لكنّها لم تكن متّسخة.

دفع بقشيشًا سخيًّا للنادل. إنّهم يفعلون هذا دائمًا في الأفلام. ابتلع زجاجة الجعة الأولى بشراهة. وشرب الثانية مع شطيرتَي الهمبرغر. راح يرتشف الثالثة وهو يصغي إلى أخبار منتصف الليل.

كان مزيد من الأخبار يرد حول قضيّة الفتى طومبسون. انتهت أمس آخر فرصة لوقف تنفيذ حكم الإعدام برونالد طومبسون. وكانت الخطط تُعدّ لتنفيذ الحكم غدًا عند الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، وفقًا للموعد المعيّن... لكنّ كلمة واحدة لم ترد بشأن نيل أو شارون. كانت الدعاية هي الأمر الوحيد الذي يخشاه، لأنّ أحدهم قد يبدأ بربط الخيوط واكتشاف الحقيقة.

قَتلُ الفتاتين الشهر الماضي كان خطأ. لكنّه لم يستطع لجم نفسه. لقد توقّف تمامًا عن التجوّل بالسيّارة، فذلك كان خطرًا جدًّا. لكن حين سمعهما تتكلّمان بالجهاز اللاسلكيّ... دفعه شيء ما إلى الذهاب نحوهما.

جعله التفكير في الفتاتين يصاب بالاشمئزاز، فأطفأ المذياع باضطراب. عليه ألاّ يفعل... قد يثيره هذا الأمر...

لكنّه كان مضطرًّا لذلك.

أخرج من جيب سترته المسجّلة الصغيرة الباهظة الثمن والكاسيتات التي يحملها دائمًا معه. اختار إحداها ووضعها في المسجّلة، ودخل السرير وأطفأ النور. غاص تحت أغطية السرير، شاعرًا بالارتياح للشراشف النظيفة، والملاءة والغطاء الدافئين. فكّر في أنّه وشارون سينزلان في كثير من الفنادق معًا.

وضع سمّاعة المسجّلة في أذنه اليمنى، وضغط بحذر على زرّ التشغيل في المسجّلة. طوال دقائق لم يُسمع سوى صوت محرّك سيّارة، ثمّ صرير خافت لمكابح، وصوت باب ينفتح، وصوته الودود الذي يعرض المساعدة وهو يخرج من سيّارة الفولكسفاغن.

ترك الكاسيت تدور حتّى وصل إلى الجزء الأفضل، الذي راح يستمع إليه مرّة بعد مرّة. أخيرًا اكتفى بما سمعه، فأطفأ المسجّلة وسحب السمّاعة وغطّ في نوم عميق، وصوت صرخة جين كارفولي الباكية... «لا... أرجوك، لا...» يرنّ في أذنيه.

22

أمضت ماريان وجيم فوغلر وقتًا طويلًا من الليل يتحادثان. برغم جهود جيم لتعزيتها، فقد اعترى روح ماريان ما يشبه اليأس.

قالت له:

– ما كنت لأبالي كثيرًا لو أنّنا لم ننفق كُل ذلك المال! أربعمئة دولار! لماذا لم يسرقوا السيّارة الأسبوع الماضي قبل أن نصلحها؟ كما أنّها كانت تسير جيّدًا، فقد أحسن آرتي إصلاحها. والآن، كيف سأذهب إلى منزل الزوجين بيري؟ سأخسر ذلك العمل!

– عزيزتي، لا تتركي العمل. سأجد مَن يقرضني بضع مئات من الدولارات وأبحث لك عن سيّارة قديمة أخرى غدًا.

– أحقًّا يا جيم؟

كانت ماريان تعرف كم يكره جيم أن يقترض من الأصدقاء، لكن لو أنّه يفعل ذلك هذه المرّة فقط...

كان الظلام أشدّ من أن يرى جيم وجهها لكنّه شعر باسترخاء طفيف في جسدها. قال لها مطمئنًا:

– عزيزتي، يومًا ما، سنضحك بسبب هذه الفواتير التافهة. وضعنا الماليّ سيتحسّن.

وافقت ماريان قائلة: «أظنّ ذلك.» وفجأة شعرت بتعب شديد وراحت عيناها تُغمضان. كانا يستسلمان للنوم حين رنّ جرس الهاتف، فجفّلهما رنينه. نهضت ماريان متّكئة إلى مرفقها، وراح جيم يبحث عن المصباح على طاولة السرير، ثمّ مدّ يده إلى الهاتف.

– آلو. نعم، أنا جيم... جايمس فوغلر. الليلة، نعم. أوه، هذا حسن! أين؟ متى يمكنني استعادتها؟ أنت تمزح. أنت تمزح! هذا أعظم ما سمعت! حسنًا... الشارع السادس والثلاثون غربًا بقرب الرصيف. أعرف. حسنًا. شكرًا.

ثمّ أقفل الخطّ. صاحت ماريان:

– السيّارة، لقد وجدوا سيّارتنا!

– نعم، في مدينة نيويورك. كانت مركونة بصورة غير قانونيّة في وسط المدينة فقطرها رجال الشرطة. يمكننا استعادتها في الصباح. قال الشرطيّ إنّ فتيانًا ربّما سرقوها للقيام بجولة مرح فيها.

– أوه، جيم، هذا رائع!

– ثمّة مشكلة.

– ما هي؟

ضاقت عينا جيم وتجعّدتا، وارتجفت شفتاه. قال لها:

– عزيزتي، هل تصدّقين؟ علينا أن ندفع مخالفة الوقوف غير القانونيّ البالغة خمسة وعشرين دولارًا، وكلفة القطر البالغة خمسين دولارًا؟

شهقت ماريان وقالت: «إنّه أجر أسبوعي الأوّل!» ثمّ راحا يتضاحكان من عجزهما.

في الصباح استقلّ جيم قطار السادسة والربع إلى نيويورك، وعاد بالسيّارة عند التاسعة إلّا خمس دقائق. كانت ماريان مستعدّة

للانصراف. عند التاسعة تمامًا وصلت إلى دريفتوود لاين. لم تتعرّض السيّارة للضرر بسبب رحلتها بعد سرقتها إلى مدينة نيويورك، وكانت تشعر بالامتنان لوجود إطارات الثلج الجديدة. إنّ الحاجة إليها ماسّة في طقس كهذا.

كانت سيّارة مركوري متوقّفة في طريق منزل الزوجين بيري. كانت تشبه تلك التي شاهدتها أمام المنزل المقابل في الشارع عينه حين أتت لمقابلة العمل الأسبوع الماضي. لا بدّ من أنّ لدى الزوجين بيري زوّارًا.

بشيء من الشكّ توقّفت بجانب سيّارة المركوري، حريصة على ألاّ تسدّ المدخل إلى المرآب. ثمّ تريّثت قبل أن تفتح الباب. كانت متوتّرة الأعصاب قليلًا. فقد عاشت كلّ تلك الإثارة في شأن السيّارة وهي تبدأ عملًا جديدًا. قالت لنفسها: «استجمعي نفسك. عدّي نِعمك، السيّارة عادت.» ثمّ ربّتت بحنان على المقعد بجانبها بيدها ذات القفّاز.

توقّفت يدها عن الحركة، فقد لامست إحدى أصابعها شيئًا صلبًا. نظرت إلى المقعد، ثمّ أخرجت بإصبعين شيئًا لمّاعًا كان مغروزًا بين المقعد ومسند الظهر.

كانت تلك جائزة سهلة لن تجد مَن يطالب بها. بالنسبة إليها، كان الخاتم لها، وتعويضًا عن الخمسة وسبعين دولارًا التي دفعها جيم بدلًا للمخالفة وكلفة القطر. نزعت قفّازها ووضعت الخاتم حول إصبعها، فناسبتها تمامًا.

كان ذلك فألًا حسنًا. مهلًا حتّى يكتشف جيم الأمر. شعرت ماريان بالثقة فجأة. فتحت باب السيّارة، وخرجت في الثلج، وسارت بسرعة إلى باب المطبخ في منزل الزوجين بيري.

23

رنّ الهاتف في الكشك الخارجيّ لمحطّة إكسون في تمام الساعة الثامنة. حاول ستيف أن يبتلع، برغم انقباض عضلات حلقه، الجفاف المفاجئ والكلّيّ في فمه. أخذ السمّاعة وقال «آلو». تناهى إليه صوت مخنوق جدًّا ومنخفض جدًّا بذل جهدًا ليسمعه:

– بيترسون.

– نعم.

– بعد عشر دقائق، سأتّصل بك عبر الهاتف العموميّ التابع لمحطّة الخدمة بعد المخرج 21.

– مهلًا... مهلًا...

لكنّ صوت طنين تيّار الهاتف ملأ أذنه بقوّة.

نظر بيأس إلى محطّة الخدمة. سبقه إليها هيو بدقائق قليلة. كان غطاء محرّك سيّارته مرفوعًا، ويقف في الخارج مع عامل المحطّة ويشير بيده إلى أحد الإطارات. عرف ستيف أنّه يراقبه. هزّ رأسه وعاد إلى سيّارته ومضى في اتّجاه الطريق العامّ. وقبل أن يستدير لمح هيو يقفز إلى سيّارته.

كانت السيّارات تتقدّم بحذر على الطريق الزلق. شدّد ستيف قبضته على المقود. لن يصل أبدًا إلى المحطّة التالية في عشر دقائق. أدار المقود وسار على مسلك الطوارئ الأيمن.

كاد ألاّ يسمع الصوت. لن يستطيع مكتب التحقيق الفدراليّ تعقّب الاتّصال أبدًا.

سيحاول هذه المرّة استبقاء فوكسي وقتًا أطول على الهاتف. لعلّه سيتعرّف إلى صوته أيضًا. تحسّس الدفتر والورق في جيبه. كان عليه أن يدوّن كلّ ما يقوله فوكسي. رأى في مرآة الرؤية الخلفيّة سيّارة خضراء تسير وراءه. كانت سيّارة هيو.

كانت الساعة الثامنة وإحدى عشرة دقيقة حين أوقف ستيف سيّارته في محطّة الخدمة التالية. سمع صوت الهاتف العموميّ يرنّ بلا توقّف، فهرع إلى داخل الكشك، وأمسك السمّاعة.

– بيترسون؟

هذه المرّة تكلّم المتّصل بصوت رقيق جدًّا لدرجة أن ستيف اضطرّ إلى أن يغطّي أذنه الثانية ليصمّها عن ضجيج الطريق العامّ.

– نعم.

– أريد اثنين وثمانين ألف دولار في أوراق من فئات العشرة والعشرين والخمسين دولارًا. لا أريد أوراقًا جديدة. كُن عند الثانية من صباح الغد بقرب الهاتف العموميّ عند الزاوية الجنوب شرقيّة لتقاطع الشارع التاسع والخمسين وشارع لكزنغتون في مانهاتن. جئ بسيّارتك الخاصّة. كُن وحيدًا. ستعرف أين تترك المال.

«اثنان وثمانون ألف دولار...» بدأ ستيف يكرّر التعليمات. فكّر بشكل محموم آمرًا نفسه: «الصوت... أصغِ إلى نبرته... حاول أن تتذكّرها... تمكّنْ من أن تقلّدها.»

– أسرِع يا بيترسون.

– أنا أدوّن ما تقول. سأحضر المال وآتي. لكن كيف أعلم أنّ ابني وشارون ما زالا حيّين؟ كيف أعلم أنّهما لديك؟ أريد دليلًا.

ردّ المتّصل بهمس بات الآن غاضبًا:

– دليل؟ أيّ دليل؟

– شريط تسجيل... أو كاسيت... شيء ما عليه صوتاهما.

– كاسيت!

هل كان الصوت المخنوق ضحكة؟ هل كان المتّصل يضحك؟ أصرّ ستيف: «يجب أن أحصل عليه.» وفكّر في نفسه راجيًا: «ربّاه، لا تدع هذا الأمر يكون خطأً.»

– ستحصل على كاسيت يا بيترسون.

ثمّ أُطبِقت السّماعة في الطرف الآخر بقوّة.

صاح ستيف: «مهلًا! مهلًا!»

وحلّ الصمت، ثمّ سُمع طنين تيّار الهاتف. فوضع ستيف السمّاعة من يده ببطء.

قاد سيّارته توًّا إلى منزل الزوجين بيري كما كان الاتّفاق ومكث ينتظر هيو. لم يستطع لشدّة اضطرابه أن يبقى في السيّارة فخرج منها ووقف في مدخل المنزل. جعلته الريح الجليديّة والملأى بالرطوبة يرتعد بردًا. ربّاه! هل هذا يحدث حقًّا؟ هل هذا الكابوس حقيقيّ؟

وصل هيو بسيّارته وأوقفها، ثمّ سأله: «ماذا قال؟»

أخرج ستيف الدفتر وقرأ التعليمات. تعمّق الشعور لديه بأنّ هذا الذي يجري أمر غير حقيقيّ. سأله هيو:

– ماذا عن الصوت؟

– أظنّه حاول التنكّر بصوته... كان منخفضًا جدًّا. لا أظنّ أحدًا يستطيع التعرّف إليه، حتّى ولو استطعتم التنصّت على الهاتف الثاني.

حملق ستيف ناحية الشارع من غير أن يرى شيئًا، باحثًا عمّا يهدّئ روعه، ووجد خيطًا رفيعًا، فقال:

– وعدني بإحضار الكاسيت. هذا يعني أنّهما ربّما لا يزالان حيّين.

– لا شكّ عندي بذلك.

لم يبُح هيو بالقلق الذي ينهشه وهو أنّه من شبه المستحيل أن تصل الكاسيت إلى ستيف قبل أن يدفع الفدية. لم يكن هناك وقت لإرسالها بالبريد، حتّى بصيغة التسليم الخاصّ. أمّا خدمة البريد الخاصّ فمن السهل جدًّا تعقّبها. لم يرد الخاطف أن يدري أحد بأمر الخطف، لذلك فمن المستبعد أن يترك كاسيتًا في جريدة أو محطّة إذاعة.

سأل ستيف:

– ماذا عن الفدية؟ أيمكنك تدبّر اثنين وثمانين ألف دولار اليوم؟

– لا يمكنني، أنا شخصيًّا، تدبّر خمسة سنتات. استثمرتُ كثيراً في المجلّة ولم يبقَ معي شيء. كما أنّ منزلي مقيَّد برهن ثانٍ. أنا مدين بكلّ ما قد يخطر ببالك من ديون. لكن، بفضل والدة نيل، يمكنني تدبّر هذا المبلغ الكبير.

– والدة نيل؟

– ورثت عن جدّتها خمسة وسبعين ألف دولار قبيل وفاتها. وضعتها في حساب ائتمان لتسديد أقساط نيل الجامعيّة. وهي في مصرف في نيويورك. مع الفائدة، سيزيد المبلغ عن اثنين وثمانين ألف دولار قليلًا.

– سيزيد المبلغ عنِ اثنين وثمانين ألف دولار قليلًا؟ سيّد بيترسون، كم شخصًا على علم بذلك الحساب؟

– لا أعلم. لا أحد ما خلا محاميّ ومحاسبي... أمور كهذا لا تُذاع كيفما كان.

– ماذا عن شارون مارتن؟

– لا أتذكّر أنّني ذكرت لها الأمر.

– هل من الممكن أنّك أخبرتها؟

– لا أظنّني فعلتُ.

بدأ هيو يصعد درجات شرفة المدخل، وقال بتأنٍّ:

«سيّد بيترسون، عليك أن تتذكّر كلّ مَن يعلم بأمر ذلك المال. لا دليل لدينا سوى ذلك، واحتمال أن تتمكّن السيّدة بيري من التعرّف إلى صوت الخاطف.»

حين رنّا جرس الباب الأماميّ، فتح روجر لهما بسرعة ووضع إصبعًا على شفتيه أثناء دخولهما. كان وجهه شاحبًا ومجهدًا وكانت كتفاه منحنيتين. قال لهما:

– لقد انصرف الطبيب منذ قليل بعد أن أعطى غلندا منوّمًا. إنّها ترفض الذهاب إلى المستشفى لكنّه يظنّها على وشك الخضوع لجراحة قلب جديدة.

– آسف يا سيّد بيري، لكن عليّ أن أسألها الإصغاء إلى تسجيل الاتّصال الأوّل الذي أجراه الخاطف هذا الصباح.

– لا تستطيع! هي لا تستطيع ذلك الآن! هذا الأمر يقتلها. يقتلها!

شدّ على قبضتيه، وابتلع ريقه وقال: «ستيف، أنا آسف... ماذا جرى؟»

بشكل آليّ، شرح له ستيف ما جرى. لم يكن قد زال عنه الشعور بأنّ ما يجري غير حقيقيّ، وبأنّه متفرّج، يتفرّج على مأساة تجري أحداثها من غير أن تكون لديه القدرة على التدخّل.

بعد صمت طويل قال روجر ببطء:

– رفضت غلندا الذهاب إلى المستشفى لأنّها علمت أنّك ستطلب منها الاستماع للشريط. الطبيب أعطاها مهدّئًا قويًّا. لو ندعها تنام لفترة قصيرة... أيمكنك إحضاره لاحقًا؟ إنّها لا تستطيع مغادرة السرير أبدًا.

قال هيو: «طبعًا.»

سُمعت أنغام الجرس تصدح، فقال روجر:

– إنّه الباب الخلفيّ، مَن هذا الذي... ربّاه! إنّها مدبّرة المنزل الجديدة، نسيتُ أمرها تمامًا.

سأله هيو بسرعة:

– كم ستبقى هنا؟

– أربع ساعات.

– هذا غير جيّد. قد تسمع شيئًا ما. قدِّمني إليها على أنّني الطبيب. وحين نذهب، اصرفها. قُل لها إنّك ستتّصل بها بعد يوم أو اثنين. من أين هي؟

– من كارلي.

سُمع صوت الجرس من جديد.

– هل سبق أن أتت إلى هذا المنزل؟

– الأسبوع الماضي.

– قد يكون علينا التحقّق من أمرها.

– حسنًا.

أسرع روجر إلى الباب الخلفيّ وعاد ومعه ماريان. تفحّص هيو بتأنٍّ ملامح المرأة ذات المظهر اللطيف.

قال روجر:

شرحتُ للسيّدة فوغلر أنّ زوجتي مريضة. سيّدة فوغلر... أقدّم لك جاري السيّد بيترسون، و... الدكتور تايلور.

قالت بصوت دافئ، خجول قليلًا.

– أوه يا سيّد بيترسون، هل سيّارة مركوري لك؟

– نعم.

– إذًا فلا بدّ من أنّ ذلك الصبيّ كان ابنك. كم هو لطيف. كان في الخارج حين أتيت إلى هنا الأسبوع الماضي، ودلّني إلى منزله. كم كان دمث الأخلاق. لا شكّ بأنّك فخور جدًّا به.

كانت ماريان تنزع قفّازها، وتمدّ يدها إلى ستيف لتصافحه.

– أنا فخور بنيل.

أدار ستيف ظهره لها بشكل مفاجئ، ومدّ يده إلى مقبض الباب الأماميّ. احترقت عيناه بدموع ساخنة. ربّاه... رجاءً...

بسرعة اعترض هيو يد ماريان، محاذرًا لئلاّ يشدّ على الخاتم المألوف الذي كان حول إصبعها. فكّر في أنّ الخاتم أثمن من أن تقوم صاحبته بالعمل مدبّرة منزل. تغيّر تعبيره قليلًا وقال:

– أظّن أنّ وجود السيّدة فوغلر هنا فكرة حسنة. أنت تعرف كم تشغل تفاصيل المنزل بال زوجتك. أفضّل أن تبدأ العمل اليوم مثلما خطّطتَ له في البدء.

حدّق روجر في هيو وقال له وقد فهم ما يلمّح إليه: «أوه... فهمت... حسنًا.» هل كان هيو يظنّ أنّ لهذا المرأة صلة باختفاء نيل؟

وسط حيرتها، لم تنظر ماريان إلى هيو وروجر، بل إلى ستيف يفتح الباب الأماميّ. لعلّه ظنّ أنّ مدّ يدها إليه لتصافحه وقاحة. ربّما كان عليها الاعتذار. الأجدى بها أن تتذكّر أنّها مدبّرة المنزل هنا. بدأت تلمس كتفه، ثمّ عدلت عن ذلك، وفتحت الباب بصمت لهيو. شعرت بالإحراج ثمّ أوصدت الباب بصمت خلفهما. أثناء ذلك، رنّ خاتم حجر القمر رنّة خفيفة حين لامس المقبض.

24

لم يُرد أن يكون طفلًا بكّاء. كان يحاول جاهدًا ألاّ يبكي لكنّ الأمر أشبه بتعرّضه لأزمة الربو. لم يكن يستطيع إيقافه. فيحسّ بالغصّة في حلقه ويسيل أنفه، وتبلّل دموع الأطفال وجهه. كان يبكي كثيرًا في المدرسة. كان يعلم أنّ الأولاد الآخرين يظنّونه طفلًا، وكذلك كانت المدرّسة تفعل، برغم أنّها لم تهزأ به لذلك.

لكنّ أمرًا بداخله كان لا ينفكّ يزعجه باستمرار. إنّه شعور بالخوف والقلق. بدأ ذلك كلّه في ذلك اليوم حين تعرّضت أمّه لإصابة وذهبت إلى السماء. كان يلعب بقطاراته، وبعد ذلك لم يعد يلعب بها أبدًا.

كان التفكير في ذلك اليوم يجعل أنفاس نيل تتسارع. منعته الكمامة من التنفّس من فمه. وبدأ صدره يعلو وينخفض. غصّ حلقه فدخلت قطعة من الكمامة فمه. أحسّ بمذاقها كثيفة وخشنة على لسانه. حاول أن يقول: «لا أستطيع أن أتنفّس.» لكنّ الكمامة دخلت في فمه أكثر. كان فمه مسدودًا، وسيبدأ بالبكاء...

«نيل، توقّف عن هذا.» كان صوت شارون مضحكًا وطريفًا وأبحّ وكأنّها تتكلّم من مكان منخفض في حلقها. لكنّ وجهها كان قريبًا جدًّا

من وجهه، ومن خلال القماش، كان يحسّ بوجهها يتحرّك حين تتكلّم. لا بدّ من أنّ حول فمها ما يكمّمها هي الأخرى.

أين كانا؟ كان هذا المكان باردًا جدًّا وبشع الرائحة. وكان فوقه شيء ما، ظنّ أنّه غطاء كريه الرائحة. كانت عيناه مشدودتين كثيرًا والظلام حالكًا.

كان الرجل قد فتح الباب، ورمى به. ثمّ قيّدهما وحمل شارون وابتعد بها. ثمّ عاد وأحسّ نيل بنفسه يُحمَل ويُحشَر في كيس. ذات مرّة، عندما كان في منزل ساندي، لعبوا لعبة الغمضيّة فاختبأ في كيس ورقيّ كبير عثر عليه في المرآب. إنّه يشعر الآن بما شعر به آنذاك. لم يتذكّر شيئًا بعد أن وضعه الرجل في الكيس، حتّى راحت شارون تخرجه منه. تساءل لماذا لم يتذكّر... كان ذلك كما حدث حين سقطت أمّه.

لم يرد التفكير في ذلك. كانت شارون تقول له: «تنفّس ببطء يا نيل... لا تبكِ يا نيل، أنت شجاع.»

لعلّها أيضًا كانت تظنّه طفلًا بكّاءً. حين أتت إلى المنزل هذا المساء كان يبكي. حين لم يأكل الخبز المحمّص والشاي اللذين أعدّتهما له السيّدة لوفتس، قالت له هذه: «يبدو أنّ علينا أن نأخذك إلى فلوريدا حين نذهب يا نيل. يجب أن نجعلك تسمن قليلًا بطريقة ما.»

ذلك كان الدليل. إذا تزوّج أبوه شارون، فسيحدث ما قالته ساندي. لا أحد يرغب في أطفال مرضى. سيجعلانه يرحل مع الزوجين لوفتس.

بدأ يبكي.

لكنّ شارون لم يبدُ عليها الغضب الآن لأنّه مريض. كانت تقول له بذلك الصوت المضحك: «إلى الداخل... إلى الخارج... ببطء... تنفّس... عبر... أنفك...» حاول أن يطيعها... إلى الداخل... إلى الخارج... أضافت: «أنت شجاع يا نيل، فكّر كيف ستروي هذا الأمر لأصدقائك.»

أحيانًا كانت ساندي تسأله عن اليوم الذي تعرّضت فيه أمّه للإصابة. قالت له: «إذا حاول أحدهم أن يؤذي أمّي، فسأوقفه.»

ربّما كان عليه أن يكون قادرًا على إيقاف الرجل. أراد أن يسأل أباه عن هذا الأمر، لكنّه لم يسأله قطّ. كان أبوه يقول له ألاّ يعود إلى التفكير في ذلك اليوم أبدًا.

لكنّه كان أحيانًا لا يستطيع منع نفسه من التفكير.

إلى الداخل... إلى الخارج... كان شعر شارون على خدّه. بدت غير منزعجة من أنّه منحشر بها. لماذا جاء بهما ذلك الرجل إلى هنا؟ كان يعرف مَن هو. سبق له أن رآه منذ أسابيع قليلة حين أخذه السيّد لوفتس إلى حيث يعمل الرجل.

منذ ذلك اليوم بدأت كوابيس كثيرة تراوده. بدأ مرّة يروي تلك القصّة لأبيه لكنّ السيّدة لوفتس دخلت، فشعر أنّه يبدو أحمقَ وتوقّف عن الكلام. كانت السيّدة لوفتس تطرح دائمًا الكثير من الأسئلة الغبيّة: هل نظّفت أسنانك؟ هل تركت منديلك حول رقبتك ساعة الغداء؟ هل أنت بخير؟ هل نمت جيّدًا؟ هل أكلت غداءك كلّه؟ هل تبلّلت قدماك؟ هل علّقت ثيابك؟ وفي الحقيقة لم تكن تدعه يجيب أبدًا. كانت فقط تبحث في علبة غدائه لترى إن كان قد أكل، أو ترغمه على فتح فمه لتنظر إلى حلقه.

حين كانت أمّه موجودة، اختلف الأمر. كانت السيّدة لوفتس تأتي فقط يومًا واحدًا في الأسبوع للتنظيف. بعدما ذهبت أمّه إلى السماء، انتقلت والسيّد لوفتس للسكن في الطابق الثالث، وآنذاك تغيّر كلّ شيء.

ساعده التفكير في ذلك كلّه، والإصغاء إلى شارون، في جعل الدموع تزول تلقائيًا. كان خائفًا الآن، لكنّ خوفه الآن ليس كخوفه حين سقطت أمّه وبقي وحيدًا.

كان الأمر مختلفًا...

الرجل...

من جديد، تسارعت أنفاسه، بشكل خانق. قالت له شارون وهي تفرك وجهها بوجهه:

- نيل، حاول أن تفكّر في حين نخرج من هنا. سيكون أبوك مسرورًا جدًّا برؤيتنا. لا شكّ بأنّه سيصحبنا في نزهة. أتعرف؟ أودّ الذهاب للتزحلق على الجليد معك. لم ترافقنا عندما أتى أبوك إلى نيويورك. كنّا ننوي أن نأخذك بعد ذلك إلى حديقة الحيوانات القريبة من حلبة التزحلق...

كان يصغي.

بدت شارون صادقة في ما تقول. كان يخطّط للذهاب يومذاك، لكن حين أخبر ساندي بذلك قالت ساندي بأنّ شارون ربّما لم ترغب في وجوده، بل حاولت فقط إرضاء أبيه بدعوته لمرافقتهما.

قالت له شارون:

- يقول لي أبوك إنّه يريد أن يبدأ باصطحابك إلى مباريات كرة القدم الأميركيّة في برينستون في الخريف المقبل. في الجامعة، كنت

أذهب إلى مباريات دارتموث دائمًا. كانوا في كلّ عام يلعبون ضدّ برينستون، لكنّ أباك كان قد تخرّج حينذاك. وأنا ذهبت إلى جامعة خاصّة بالفتيات، ماونت هوليوكي. كانت فقط على مسافة ساعتين من دارتموث، وكانت مجموعة منّا تذهب إلى هناك في نهايات الأسبوع أحيانًا، وخصوصًا في موسم مباريات كرة القدم الأميركّية.

بدا صوتها مضحكًا جدًّا. شعر نيل بأنّه دمدمة هامس. تابعت تقول:

– كان رجال كثيرون يصطحبون عائلاتهم لحضور المباريات. أبوك فخور جدًّا بك. يقول إنّك شجاع جدًّا حين تتلقّى حقن الربو. قال إنّ معظم الأطفال يتذمّرون من التعرّض للحَقن كلّ أسبوع، لكنّك لا تشتكي ولا تبكي أبدًا. وتلك شجاعة كبيرة...

كان التكلّم صعبًا جدًّا، حاولت أن تبتلع. أضافت:

– نيل، خطّطِ الآن. هذا ما أفعله حين أكون خائفة أو مريضة. أخطّط لشيء لطيف، أعرف أنّه سيكون طريفًا. العام الماضي حين كنت في لبنان – وهو بلد على مسافة نحو خمسة آلاف كيلومتر من هنا – كنت أكتب موضوعًا حول الحرب التي عانوها... كنت أقيم في مكان قذر... وشعرت بالمرض ذات ليلة. أصبت بالزكام والحمّى وكنت وحيدة، وكان كلّ شيء فيّ يؤلمني... ذراعاي وساقاي... كما تؤلمني الآن بسبب القيود. أرغمت نفسي على التفكير في أمر لطيف أقوم به حين أعود إلى دياري. تذكّرت لوحة أردتُ شراءها. لوحة مرفأ فيه قوارب شراعيّة. وقد وعدت نفسي بأنّني حالما أعود إلى دياري، فسأكافئ نفسي بشراء تلك اللوحة. وهذا ما فعلته.

كان صوتها ينخفض. كان عليه الإصغاء جاهدًا لفهم كلّ كلمة.

– أظنّ أنّ علينا التفكير بمكافأة جميلة لك، بمكافأة جميلة جدًّا. تعرف أنّ أباك يقول إنّ الزوجين لوفتس يتحرّقان حاليًا للانتقال إلى فلوريدا.

شعر نيل وكأنّ قبضة عملاقة أطبقت على صدره.

– مهلًا يا نيل! تذكّر...، إلى الداخل، إلى الخارج... تنفّس ببطء... حين قادني أبوك في جولة على منزلكم ونظرت من النافذة، كان المنظر شبيهًا تمامًا بلوحتي. لأنّ المنظر الذي ينبسط أمام العينين هو للمرفأ والمراكب وشاطئ ساوند والجزيرة. ولو كنت مكانك، حين يرحل الزوجان لوفتس إلى فلوريدا، لأخذتُ تلك الغرفة لنفسي، ولوضعت فيها مكتبة ورفوفًا لألعابك ومكتبًا. حتّى أنّ فجوة الكتب في الجدار كبيرة جدًّا ويمكنك أن تضع فيها سككًا لقطاراتك. كانت لديّ قطارات في طفولتي. الواقع أنّه كانت لديّ قطارات رائعة من ماركة ليونيل، كانت لأبي قبلي. إنّها قطارات قديمة جدًّا، سأعطيك إيّاها.

حين يرحل الزوجان لوفتس إلى فلوريدا... حين يرحل الزوجان لوفتس إلى فلوريدا... لم تكن شارون تتوقّع منه أن يرحل معهما. ترى شارون أنّ في وسعه أن يأخذ غرفتهما.

– أنا الآن خائفة وغير مرتاحة، وأتمنّى لو أنّني لست هنا، لكنّني مسرورة بأنك معي، وسأخبر أباك كم كنتَ شجاعًا، وكم تنبّهتَ إلى أن تتنفّس ببطء لئلاّ تختنق.

انزاحت قليلًا الصخرة السوداء التي كانت جاثمة دومًا على صدر نيل. تمامًا مثلما يهزهز المرء سنّ طفل رخوة، كان صوت شارون يهزهز تلك الصخرة. فجأة شعر نيل بالنعاس الشديد. كانت يداه مقيّدتين لكنّه استطاع تحريك أصابعه على طول ذراع شارون حتّى وجد ما

يبحث عنه: وجد جزءًا من كمّها يستطيع إمساكه. ضمّ أصابعه حول الصوف الناعم، واستغرق في النوم.

تتابع تنفّس نيل الصعب والأجشّ في نمط متواصل. أنصتت شارون بخوف إلى الصفير الكثيف، وشعرت بحركة صدر نيل المتعبة. كانت هذه الغرفة شديدة البرد، وشديدة الرطوبة، وكان نيل مصابًا بالزكام. لكنّ رقودهما متقاربين بهذا القدر جعل تقاسم الحرارة يبعث بعض الدفء في جسديهما.

كم كانت الساعة؟ لقد وصلوا إلى هذا المكان بعيد السابعة والنصف. لقد بقي الرجل – أي فوكسي – بضع ساعات على الأقلّ معهما. كم مضى على رحيله؟ لا بدّ من أنّ الساعة تجاوزت منتصف الليل. هذا يوم الثلاثاء. قال فوكسي إنّهما سيبقيان هنا حتّى الأربعاء. أين سيجد ستيف مال فدية بقيمة اثنين وثمانين ألف دولار في يوم واحد؟ ولماذا هذا الرقم الغريب؟ هل سيحاول الاتّصال بوالديها؟ سيكون ذلك صعبًا وهما الآن يعيشان في إيران. حين يستيقظ نيل ستخبره ذلك كما ستخبره أنّ والدها مهندس.

«صباح الأربعاء، نرحل، أنت وأنا، وسأدلّهم إلى المكان حيث يمكنهم العثور على الصبيّ.» فكّرت في الوعد. سيكون عليها التصرّف وكأنّها تريد مرافقته. وحالما يصبح نيل في مأمن ولا يبقى في المحطّة سواها والخاطف، ستبدأ بالصراخ. مهما قد يفعله بها، عليها أن تجازف.

لماذا، بالله، قد خطفهما؟ كان ثمّة سرّ في نظرته إلى نيل. وكأنّه يكرهه وكان... خائفًا منه. لكنّ ذلك كان مستحيلًا.

هل أبقى العصابة على عينَي نيل لأنّه خشي أن يتعرّف إليه؟ لعلّه كان شخصًا يسكن في محيط كارلي؟ إذا كان ذلك صحيحًا، كيف

يدع نيل حيًّا؟ شاهده نيل حين اقتحم المنزل. حدّق فيه. سيتعرّف إليه إذا رآه مجدّدًا. كانت متأكّدة من ذلك. لا بدّ من أنّه يدرك ذلك أيضًا. هل يخطّط لقتل نيل حالما يحصل على المال؟

نعم، هو يخطّط لذلك.

حتّى لو أخرجها من ذلك المكان، فقد يكون الأوان قد فات بالنسبة إلى نيل.

اجتاحها شعور هائل بالخوف والغضب وجعلها تلتصق بنيل، وتثني ساقيها حوله، محاوِلةً ضمّه في داخل القوس الذي صنعته بجسدها.

غدًا. الأربعاء.

لا بدّ من أنّ هذا ما تشعر به السيّدة طومبسون الآن، في هذه الدقيقة. هذا الإحساس بالسخط والخوف والعجز، هذه الحاجة البدائيّة للأمّ في حماية صغارها. كان نيل ابن ستيف، وقد عانى ستيف الكثير حتّى الآن. لا شكّ بأنّه يعيش جنونًا محمومًا الآن. كان والسيّدة طومبسون يعيشان احتضارين متطابقين.

لم تلُم السيّدة طومبسون على انفعالها تجاهها. لم تعنِ ما قالته، لا يمكنها أن تعنيه. رون كان مذنبًا. لا أمل في أن يصدّق أحد عكس ذلك. هذا ما لم تفهمه السيّدة طومبسون: أنّ الأمل الممكن الوحيد في إنقاذه هو في إطلاق صرخة كبرى ضدّ حكم الإعدام.

على الأقلّ، هي، شارون حاولت مساعدته. راحت تبكي بصمت وتفكّر: «ستيف، أوه يا ستيف، هل تفهم الآن؟ هل ترى الآن؟»

حاولت أن تحفّ معصميها بالجدار. كانت حجارة الإسمنت خشنة ومسنّنة لكنّ الحبل كان مربوطًا حول معصميها بشكل جعل مفاصل أصابعها وجانب يديها تتلقّى خشونة الاحتكاك.

حين يعود فوكسي، ستخبره أنّها مضطرة إلى استعمال المرحاض. سيكون عليه أن يفكّ وثاقها. ربّما حينذاك بطريقة ما...

تلك الصور. لقد قتل أولئك النساء. وحده رجل مجنون يلتقط صورًا لضحاياه وهو يقتلهنّ ثمّ يكبّر الصور بهذا الحجم.

لقد التقط صورتها.

تلك القنبلة. ماذا لو أنّ أحدهم اقترب من تلك الغرفة؟ إذا انفجرت تلك القنبلة، هي ونيل وكم شخصًا آخر ستقتل؟ ما قوّة تلك القنبلة؟

حاولت أن تصلّي، لم تستطع سوى أن تكرّر: «أرجوك يا ربّ، ساعد ستيف على العثور علينا في الوقت المناسب، أرجوك، لا تحرمه ابنه».

لا بدّ من أنّ هذه كانت صلاة السيّدة طومبسون: «اعفُ عن ابني.»

أنا ألومك يا آنسة مارتن.

كان الوقت يتقدّم بوتيرة مؤلمة جدًّا. استسلمت ذراعاها وساقاها بفعل الألم إلى تخدير مفاجئ. المعجزة أنّ نيل كان نائمًا. كان يئنّ أحيانًا فتتسارع أنفاسه ويشهق، لكنّه يعود إلى النوم المتقطّع.

لا بدّ من أنّ الصباح يقترب. فقد ازدادت وتيرة أصوات القطارات. في أيّ وقت كانت المحطّة تفتح؟ الخامسة صباحًا؟ لا بدّ من أنّها الخامسة الآن.

عند الثامنة، ستكون هذه المحطة الطرفيّة تعجّ بالناس. ماذا لو انفجرت القنبلة؟

اضطرب نيل في نومه، وتمتم شيئًا ما، لم تفهمه. كان يفيق من نومه.

حاول نيل أن يفتح عينيه فلم يستطع. كان عليه دخول المرحاض. وكانت يداه وساقاه تؤلمانه. كان صعبًا عليه أن يتنفّس. ثمّ تذكّر ما حدث. لقد ركض إلى الباب وقال: «لا بأس» وفتح الباب. لماذا قال ذلك؟

تذكّر.

شعر بالصخرة تتحرّك من جديد في صدره. أحسّ بأنفاس شارون على وجهه. سُمع في البعيد صوت قطار.

صوت قطار.

أمّي. عليه أن ينزل مسرعًا.

الرجل ترك أمّه تسقط واستدار نحوه.

ثمّ انحنى الرجل فوق أمّه وكان يتصبّب عرقًا ويبدو خائفًا.

لا.

الرجل الذي دفع باب المنزل ليلة الأمس، والذي وقف فوقه ونظر إليه من الأعلى.

سبق أن فعل هذا. لقد أتى نحوه. ترك أمّه تسقط وأتى نحوه. مدّ يديه ونظر إليه من الأعلى.

وحدث شيء ما.

رنّة الجرس. رنّة جرس الباب الأماميّ.

هرب الرجل. نظر إليه نيل يهرب.

لهذا لم يستطع التوقّف عن الحلم بذلك اليوم. بسبب الجزء الذي نسيه... الجزء المخيف حين أتى الرجل نحوه يمدّ يديه، وانحنى صوبه...

الرجل...

الرجل الذي كان يكلّم السيّد لوفتس...

أتى ليلة الأمس واقتحم باب المنزل ووقف فوقه.

«شارون.» كان صوت نيل مخنوقًا وأبحّ وهو يحاول الكلام من خلال صفيره الكثيف...

– نعم يا نيل، أنا هنا.

– شارون، ذلك الرجل، الشرّير الذي قيّدنا...

– نعم يا عزيزي... لا تخف، أنا سأهتمّ بك.

– شارون، إنّه الرجل الذي قتل أمّي.

25

الغرفة. كان على لالي أن تذهب إلى غرفتها. لم يكن مهمًّا كم كانت باردة. فالجرائد بين بطّانيَّتَيْها كفيلة بأن تدفّئها. لقد اشتاقت إليها كثيرًا. المنامة التي لجأت وروزي وبعض الرفاق الآخرين إليها معظم الشتاء كانت مزدحمة جدًّا. كانت بحاجة إلى وقت تقضيه بمفردها. كانت بحاجة إلى مكان تحلم فيه.

منذ أعوام، حين كانت لالي لا تزال شابّة، وبعدما قرأت مقالات لويلا بارسونز وهيدا هوبر، كانت تستسلم للنوم زاعمة لنفسها بأنّها ليست مدرّسة غير جذّابة وعانسًا، بل نجمة سينمائيّة تأتي إلى محطّة قطارات غراند سنترال، حيث ينتظرها المراسلون الصحفيّون والمصوّرون.

كانت ترى نفسها أحيانًا في معاطف من فراء الثعالب البيضاء، تخرج من قطار الركّاب الفخم «توينتييث سنتشوري ليمتد»، أو في بزّة حريريّة خيطت خصيصًا لها، وهي تحمل معطفًا من الفرو الرمليّ اللون، فيما تحمل لها سكرتيرتها حقيبة ملابسها ومجوهراتها.

تخيّلت ذات مرّة أنّها ترتدي فستان سهرة لأنّها ستقصد برودواي لمشاهدة العرض الأوّل من فيلمها. ولم يكن ذلك غير فستان الحفلة الراقصة الذي ارتدته جينجر روجرز في فيلم «توب هات».

بعد فترة، تلاشت أحلامها واعتادت الحياة كما كانت، كئيبة ورتيبة وموحشة. لكنّها حين وصلت إلى نيويورك وبدأت تقضي كلّ وقتها في محطّة غراند سنترال، بدا لها وكأنّها استعادت أيّام عزّها كنجمة سينمائيّة من دون الحاجة إلى أيّ زعم أو تخيّلات على الإطلاق.

وحين أعطاها راستي مفتاح الغرفة، وبات بوسعها أن تنام بهناء في محطّتها، وهي تصغي إلى الصوت الخافت لقطاراتها تجيء وتروح... بات كلّ شيء كاملًا.

عند الثامنة والنصف من صباح الأربعاء، تسلّحت بأكياس التسوّق التي لا تفارقها، ومضت نحو المحطّة الطرفيّة السفلى إلى سكّة ماونت فرنون. كانت تنوي أن تقضي بعض الوقت على المنحدر حيث تختلط بالأشخاص الذين يستقلّون قطار الثامنة وخمسين دقيقة، لتتسلّل بعد ذلك إلى غرفتها. في طريقها، توقّفت في مقهى نيديكس في الممرّ القادم من فندق بيلتمور، وطلبت قهوة وفطائر دونات، بعدما أخذت جريدتَي تايمز ونيوز من سلّة مهملات.

كان الرجل الواقف أمامها عند طاولة التسليم في المقهى يبدو مألوفًا على نحو غامض. إنّه هو مَن أفسد خطّتها مساء أمس بذهابه إلى منصّة ماونت فرنون ومعه الفتاة في المعطف الرماديّ! امتعضت وهي تسمعه يطلب فنجانَي قهوة ولفافات عجائن محلاّة وحليبًا. نظرت إليه بعينين عدائيّتين يدفع فاتورته ويحمل رزمته. تساءلت عمّا إذا كان يعمل في المحطّة. لكنّها ولسبب ما لم تظّنه كذلك.

بعدما غادرت نيديكس، تعمّدت إضاعة الوقت عبر المحطّة الطرفيّة لكي لا يظنّها أفراد الشرطة الذين يعرفونها تقوم بأمر غير مألوف. لكنّها، وعلى الأقلّ، كانت على المنحدر المؤدّي إلى سكّة ماونت فرنون. كان القطار يمتلئ بالركّاب الذين باتوا يصلون مسرعين. واكبت لالي حركتهم مسرورة، وسارت عبر المنصّة. فيما اندفع الآخرون إلى داخل القطار، تسلّلت حول العربة الأخيرة واستدارت يمينًا. وما هي إلّا لحظة حتّى تغيب عن الأنظار.

آنذاك شاهدته. الرجل الذي اشترى منذ قليل القهوة والحليب والعجائن. الرجل الذي أتى إلى هنا ليلة الأمس. كان يدير ظهره ناحيتها، ويتوارى في حلكة أعماق المحطّة الطرفيّة الخافقة.

من هناك، لا يمكنه الذهاب إلّا إلى مكان واحد.

غرفتها.

لقد وجدها! لهذا السبب سار في المنصّة ليلة الأمس. لم يكن ينتظر القطار، لقد ذهب إلى الغرفة ومعه الفتاة. وهو يحمل الآن فنجانَي قهوة وحليبًا وأربع لفافات عجائن. أي أنّ الفتاة هناك الآن بلا شكّ.

ترقرقت عينا لالي بدموع المرارة والخيبة! ثمّ أنقذتها قدرتها القديمة على الخروج من المصاعب. كان بوسعها أن تعالج هذا الأمر. ستتخلّص منهما! ستراقبه، وحين تتأكّد من خروجه، ستدخل الغرفة وتنذر الفتاة بأنّ أفراد الشرطة على علم بوجودهما هنا وسيأتون لاعتقالهما. وهذا كفيل بأن يخيفها ويجعلها ترحل بسرعة. كان الرجل ذا مظهر شرّير، لكنّ الفتاة لم تكن ممّن يتسكّعون في المحطّات. لعلّها لعبة ما يقومان بها هناك. وقد ترحل الفتاة بسرعة وتأخذه معها.

شعرت لالي برضا مقيت لفكرة أن تخدع الدخيلين، ثمّ استدارت ومضت نحو قاعة الانتظار في الطابق الأعلى. قفزت مخيّلتها إلى الفتاة، التي ربّما كانت مستلقية الآن على سريرها هي، في انتظار أن يأتي صديقها بالفطور. فكّرت لالي: «لا تستسلمي كثيرًا للراحة هناك يا آنستي، فعمّا قريب ستأتيك زائرة.»

26

جلس ستيف وهيو والزوجان لوفتس والعميل هانك لامونت إلى طاولة غرفة الطعام. كانت دورا لوفتس قد أحضرت إلى الطاولة إبريقًا من القهوة وحلوى مافن بالذرة مخبوزة حديثًا. نظر إليها ستيف بغير اكتراث. كان يلقي بذقنه على يده. قبل ليالٍ غير بعيدة، قال له نيل: «تقول لي دائمًا ألاّ أضع مرفقيّ على الطاولة، فيما أنت تجلس دائمًا هكذا يا أبي.»

طرد من ذهنه تلك الفكرة. لا جدوى من ذلك، لا جدوى. يجب التركيز على ما يمكن القيام به. راح يتفحّص بيل لوفتس بعناية. لا شكّ بأنّ بيل عزّى نفسه بالكحول خلال الليل. كانت عيناه حمراوان كالدم ويداه ترتجفان.

سمعوا شريط الاتّصال الهاتفيّ الأوّل المؤلّف من خمس عشرة كلمة. كان الصوت مخنوقًا وغير واضح، ومن المستحيل التعرّف إليه واعتباره مألوفًا. أعاد هيو تشغيل الشريط ثلاث مرّات ثمّ أوقفه. وقال:

– حسنًا، سنأخذه إلى السيّدة بيري حالما يتّصل بنا زوجها، ونرى ما تقوله بشأنه. من المهمّ جدًّا الآن أن نتّفق على بعض الأمور.

تحقّق من اللائحة الموضوعة أمامه. وأضاف:

– أوّلًا، سيبقى عميل من مكتبنا هنا على مدار الساعة حتّى تسوية الأمر. أظنّ الرجل الذي يدعو نفسه فوكسي أذكى من أن يتّصل بهذا الهاتف أو بهاتف الزوجين بيري. سيحزر أنّنا وضعنا أجهزة تنصّت عليهما. لكنّ الاحتمال وارد...

وأضاف:

– على السيد بيترسون الذهاب إلى نيويورك. لذلك إذا رنّ الهاتف، عليك أن تجيبي في الحال يا سيّدة لوفتس. سيكون العميل لامونت مصغيًا عبر جهاز الهاتف الآخر، كما سنسجّل المكالمة. لكن إذا اتّصل الخاطف، يجب ألاّ تضطربي وتستعجلي في الكلام، يجب أن تحاولي استبقاءه على الهاتف لأطول فترة ممكنة. أيمكنك فعل ذلك؟

أجابت دورا مرتعشة:

– سأحاول.

– ماذا عن مدرسة نيل؟ هل اتّصلت بهم لتبرّري غيابه بسبب المرض؟

– نعم، في تمام الثامنة والنصف، تمامًا كما قلت لي.

– حسنًا.

التفت هيو إلى ستيف وسأله:

– هل اتصلت بمكتبك يا سيّد بيترسون؟

– نعم، اقترح ناشر الجريدة أن آخذ نيل في إجازة لأيّام قليلة حتّى ما بعد... إعدام طومبسون غدًا. تركت له رسالة بأنّني سأفعل ذلك.

التفت هيو إلى بيل لوفتس، وقال له:

– سيّد لوفتس، أودّ منك البقاء في المنزل لليوم على الأقلّ. هل سيستغرب أحد ذلك؟

ضحكت زوجته ضحكة تخلو من البهجة وقالت:

– فقط الزبائن الدائمون في حانة ميل.

– حسنًا، أشكر كليكما.

جعلت نبرة هيو الزوجين لوفتس ينصرفان. فنهضا ودخلا المطبخ، بعد أن أغلقا الباب جزئيًا خلفهما. آنذاك مال هيو وأغلقه تمامًا بحركة حازمة. ثمّ نظر إلى ستيف رافعًا أحد حاجبيه وقال له معلّقًا:

– لا أظنّ الزوجين لوفتس يفوتهما الكثير ممّا يُقال في هذا المنزل، يا سيّد بيترسون.

هزّ ستيف كتفيه وقال:

مكتبة الرمحي أحمد

– أعلم، لكن منذ أن تقاعد بيل في بداية هذا العام، بات مكوثهما هنا خدمة يقدّمانها لي. إنّهما يتحرّقان للذهاب إلى فلوريدا.

– هل قلت إنّهما هنا منذ عامين؟

– بل منذ أكثر من ذلك بعض الشيء. كانت دورا عاملة التنظيف لدينا. واعتادت أن تأتي للعمل هنا يومًا في الأسبوع منذ ما قبل ولادة نيل. منزلنا السابق كان على مسافة مربّعات ستّة فقط من هنا. كانا يدّخران المال لتقاعدهما. لم تكن فترة طويلة قد انقضت على انتقالنا إلى هنا حين قُتلت نينا، وكان يجب أن آتي بمن يعتني بنيل. اقترحتُ عليهما الإقامة في الغرفة الكبيرة في الطابق الثالث. هكذا يستطيعان توفير النفقات التي يدفعانها، وأدفع لدورا ما كانت تتقاضاه لقاء كلّ أعمال التنظيف التي تقوم بها في المنازل الأخرى.

– كيف سار الأمر؟

– سار على نحو معقول، كلاهما مولع بنيل، وهي تعتني به بحذر شديد... بل ربّما بحذر مبالغ به. دائمًا ما تبالغ في الاهتمام بالتفاصيل المتعلّقة به. لكن منذ أن بدأ بيل يقضي وقتًا في المنزل بلا عمل، راح يسرف في معاقرة الخمر. وبصراحة، سأكون مسرورًا حين يرحلان.

سأله هيو بنبرة حادّة:

– ما الذي يعيقهما؟ المال؟

– لا، لا أظن ذلك. تودّ دورا أن تراني تزوّجت مرّة ثانية لكي يصبح لنيل أمّ مجدّدًا. دورا صاحبة روح رائعة.

– وهل تقترب من الزواج بشارون مارتن؟

قال ستيف وقد علت وجهه ابتسامة كئيبة: «أرجو ذلك.» ثمّ نهض بعد أن عجز عن البقاء في مكانه وسار إلى النافذة. عاد الثلج إلى السقوط متهاديًا، صامتًا. بدا له أنّ سيطرته على حياته لا تزيد عن سيطرة أيٍّ من ندف الثلج هذه على وجهتها الأخيرة... أن تسقط، وتحطّ على شجيرة أو على العشب أو على الطريق، أو أن تذوب أو تتجمّد حين تصل، أو تُجرف، أو تسحقها إطارات السيّارات أو أحذية المشاة.

كان يستسلم للتخيّلات، وأحسّ بذهنه يتوه بعيدًا. تعمّد العودة به إلى الحاضر. لا يمكنه أن يبقى عاجزًا، منتظرًا هنا من دون أن يأتي حركة واحدة. كان عليه أن يفعل شيئًا ما. فقال لهيو:

– سآتي بدفتر الحساب المصرفيّ وأنطلق إلى نيويورك.

– مهلًا يا سيّد بيترسون، هناك بضعة أمور علينا أن نتناقشها.

مكث ستيف منتظرًا.

– ماذا يحدث إذا لم تحصل على شريط لصوت ابنك وشارون؟

– لقد وعدني...

– قد لا يستطيع أن يفي بوعده. كيف سيوصل الشريط إليك، هذا إذا افترضنا أنه قد سجّله؟ السؤال هو: هل أنت مستعدّ لدفع المبلغ من دون الدليل؟

فكّر ستيف قليلًا وأجاب:

– نعم. لن أجازف بإثارة عدائيّته تجاهي. قد يترك شريط تسجيل أو كاسيتًا في مكان ما حيث يتوقّع العثور عليهما... وإذا لم أتبع تعليماته...

– حسنًا، سنواجه هذا الأمر لاحقًا. إذا لم يأتِ الشريط قبل الثانية صباحًا، أي حين يتّصل بك إلى الهاتف المدفوع في الشارع التاسع والخمسين، يمكنك التفكير في المماطلة... قل له إنّك لم تحصل على الشريط. إذا زعم أنّه تركه في مكان ما، فمن السهل الوصول إليه.

تابع هيو قائلًا:

– والآن إلى الاعتبار التالي. أتريد أن تعطيه مالًا حقيقيًّا؟ يمكننا أن نتدبّر مالًا مزوّرًا يسهل تعقّبه.

– لن أجازف بذلك، المال في حساب ائتمان لدراسة نيل. إذا حدث له شيء ما...

– حسنًا، ستسحب المال من حسابك. احصل على شيك مصرفيّ واذهب به إلى «فدرال ريزرف بنك» سيكون رجالنا هناك يصوّرون أوراق الفدية الماليّة. على الأقلّ، بهذه الطريقة يمكننا الحصول على سجلّ ما...

قاطعه ستيف قائلًا:

– لا أريد وضع علامات على الأوراق الماليّة.

– لا أتحدّث عن علامات عليها. محال أن يعرف الخاطف أنّنا قد صوّرناها. لكنّ ذلك سيستغرق وقتًا. اثنان وثمانون ألف دولار بأوراق من فئات العشرة والعشرين والخمسين دولارًا تعني أوراقًا كثيرة.

– أعلم.

– سيّد بيترسون، هناك تدابير احترازيّة كثيرة سأحثّك على أخذها. أوّلًا، دعنا نركّب كاميرات في سيّارتك. بهذه الطريقة قد يكون لدينا دليل نتعقّبه بعدما تلتقي الخاطف. قد نستطيع التقاط صورة له، أو تدوين رقم لوحة تسجيل السيّارة التي يقودها. نودّ أيضًا تركيب جهاز طنّان في سيّارتك كي نستطيع اللحاق بك من مسافة بعيدة. أؤكّد لك أنّ من المستحيل اكتشاف هذه الأجهزة. وأخيرًا – وهذا الأمر يعود إليك تمامًا – نرغب في إخفاء جهاز تعقّب إلكترونيّ في الحقيبة مع المال.

– افترِض أنّ الخاطف اكتشف الجهاز، سيعرف أنّني اتّصلت بكم.

– افترِض أنّك لم تضعه، ولم تعد إلى سماع خبر منه عن ابنك أو شارون. ستكون قد دفعت المال، وفقدتهما إلى الأبد. صدّقني يا سيّد بيترسون، همّنا الأوّل هو استعادتهما سالمين. بعد ذلك سنبذل قصارى جهدنا للعثور على الفاعلين. لكنّ الأمر يعود إليك.

– ماذا كنت أنت لتفعل لو أنّ المخطوفين كانا ابنك و... زوجتك؟

– سيّد بيترسون، نحن لا نتعامل مع نبلاء. الأمر ليس ببساطةِ «إدفَع، تسترجعهما». ربّما يطلقون سراحهما. ربّما. ولكنّهم قد

يتركونهما في مكان ما عاجزين عن تحرير نفسيهما. يجب التفكير في ذلك. على الأقلّ يمكن تضييق المنطقة إذا استطعنا تعقّب الخاطف إلكترونيًّا.

هزّ ستيف بكتفيه عاجزًا، وقال:

– افعل ما عليك فعله، سآخذ سيّارة بيل إلى نيويورك.

– لا، أقترح عليك أن تذهب بسيّارتك وتركنها في الموقف القريب من المحطّة كالعادة. من المحتمل جدًّا أن تكون تحرّكاتك تحت المراقبة. سنكلّف عميلًا بمراقبتك من مسافة بعيدة. دع مفاتيحك أرضًا. سنأخذ السيّارة ونركّب الأجهزة، ونعيدها إلى مكانها قبل أن تعود. إليك الآن أين تذهب بالمال...

استقلّ ستيف قطار العاشرة والأربعين دقيقة إلى محطّة غراند سنترال. كان القطار متأخّرًا عشر دقائق عن موعده، وصل إلى المحطّة الطرفيّة عند الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة. اختار السير إلى بارك أفنيو، وكان يحمل في يده حقيبة كبيرة فارغة.

تعمّق شعوره بالخيبة والبؤس فيما راح يجتاز متعبًا المربّعات الواقعة بين المحطّة الطرفيّة والشارع الواحد والخمسين. في اليوم الثاني من العاصفة الثلجيّة، قام النيويوركيّون باستعراض قدرتهم المألوفة على التكيّف والظروف الصعبة، وخرجوا إلى الشوارع من جديد. كان هناك أيضًا مرح في سيرهم على الأرصفة المتجمّدة، والتفافهم حول أكوام الثلج. صباح أمس وقف وشارون تحت الثلج المتساقط على مسافة قريبة من هنا، وحمل وجهها بيديه وقبّلها مودّعًا. لم تستجب شفتاها، تمامًا كما لم تستجب شفتاه لنينا حين قبّلته مودّعة في ذلك اليوم الأخير.

وصل إلى المصرف. هناك، قوبل خبر رغبته في سحب اثنين وثمانين ألف دولار من حساب نيل باستغراب وتساؤل. تركت أمينة الصندوق مكتبها واستشارت نائبًا لرئيس المصرف، الذي أسرع نحو ستيف وسأله:

– سيد بيترسون، هل من مشكلة؟

– لا يا سيّد ستراوس، أرغب فقط في سحب المبلغ.

– عليّ أن أطلب منك ملء قسائم خاصّة بالولاية وأخرى فدراليّة. إنّها مطلوبة لكلّ عمليّة سحب بهذا الحجم. أرجو أنّ السبب ليس استياءً من إدارتنا لحساب ابنك.

بذل ستيف جهدًا للمحافظة على توازن نبرة صوته وتعبيره، وقال:

– لا، إطلاقًا.

– جيّد جدًّا.

ثمّ تابع نائب الرئيس بنبرة احترافيّة هادئة:

– يمكنك ملء القسائم اللازمة في مكتبي. اتبعني من فضلك.

دوّن ستيف بشكل آليّ المعلومات اللازمة. وحين انتهى، حملت أمينة الصندوق الشيك المصرفيّ إلى المكتب.فوقّعه السيّد ستراوس بسرعة، وأعطاه إيّاه ووقف. دلّ وجه الرجل على استغراقه في التفكير. ثمّ سأل ستيف:

– لا أقصد التطفّل يا سيّد بيترسون، لكن هل هناك من مشكلة؟ هل يمكننا المساعدة بشكل ما؟

وقف ستيف وأجاب:

– لا، لا، شكرًا يا سيّد ستراوس.

رنّت كلماته متعَبة وغير مقنعة في أذنيه. قال له ستراوس:

– أرجو ذلك. نحن نقدّرك كثيرًا، كعميل للمصرف، وكصديق، كما أرجو. إذا كانت هناك مشكلة وفي وسعنا المساعدة، أرجو أن تمنحنا الفرصة لذلك.

مدّ إليه يده مصافحًا، فتلقّفها ستيف، وقال له:

– أنت لطيف جدًّا، لكنّني أؤكّد لك أنّ كلّ شيء على ما يُرام.

حمل الحقيبة وخرج، ونادى سيّارة أجرة وطلب من سائقها الاتّجاه إلى مصرف «فدرال ريزرف بنك». هناك اقتيد إلى غرفة حيث كان عملاء متجهّمو الوجوه، تابعون لمكتب التحقيق الفدراليّ، منشغلين في عدّ وتصوير المال الذي سيستبدل به الشيك الذي يحمله. راح ستيف يتفرّج عليهم منقبض الصدر.

«كان الملك في بيت المال، وكان يعدّ ماله.» مرّ لحن أغنية الأطفال هذا في ذهنه. كانت نينا تدندنه لنيل حين كانت تهيّئه للنوم.

عاد إلى محطّة غراند سنترال ليجد أنّ قطار الثالثة وخمس دقائق قد فاته. أمّا القطار التالي فلن ينطلق قبل ساعة. اتّصل بالمنزل. ردّت دورا، وتحدّث العميل لامونت من الجهاز الثاني. لا أخبار جديدة. لا أثر لكاسيت. حين يصل سيكون هيو تايلور قد عاد.

أثار احتمال قضاء ساعة في الانتظار القاتل رعب ستيف. كان رأسه يؤلمه ألمًا بطيئًا حارقًا، بدأ من وسط جبهته وامتدّ إلى صدغيه يضغط عليهما كملزمة لا تنفكّ تشتدّ. وأدرك أنّه لم يأكل شيئًا منذ غداء الأمس.

أويستر بار. سيذهب إلى هناك ويطلب طبقًا من يخنة المحار وكأسًا. مرّ بجانب الهاتف الذي استخدمه ليلة الأمس حين حاول الاتّصال بشارون. كانت تلك بداية كابوسه. حين لم يلقَ جوابًا، علم أنّ هناك خطبًا ما. حدث ذلك منذ عشرين ساعة فقط، بدت عمرًا.

عشرون ساعة. أين كان نيل وشارون؟ هل أكلا؟ البرد شديد جدًّا في الخارج. هل كانا في مكان دافئ؟ إذا تسنّى لشارون أن تعتني بنيل فستفعل، كان يدرك ذلك. لنفترض أنّ شارون أجابت على الهاتف حين اتّصل بها أمس. لنفترض أنّ الثلاثة أمضوا الأمسية معًا كما خطَطوا. بعدما يأوي نيل إلى الفراش، كان سيقول لها: «لن تنالي الكثير يا شارون. قد تجدين مَن هو أفضل منّي كثيرًا إذا انتظرت. لكن لا تنتظري، تزوّجيني. نحن متناسبان».

لعلّها كانت سترفض طلبه. كانت تمقت موقفه من عقوبة الإعدام. في هذا الشأن كان متأكّدًا جدًّا، لا يلين، وواثقًا جدًّا من أنّه على صواب.

هل هذا ما كانت والدة رونالد طومبسون تشعر به في هذه الدقيقة؟ حتّى حين ينتهي الأمر بالنسبة إلى ذلك الفتى، ستقضي هي بقيّة حياتها في العذاب.

وهذا سيكون شأنه أيضًا، إذا حدث مكروه لشارون أو نيل.

كانت وتيرة النشاط في المحطّة الطرفيّة تتسارع. سار إداريّو الشركات الذين ينصرفون باكرًا لتجنّب ازدحام الركّاب إلى قطارات نيو هافن التي ستقلّهم إلى ويستشستر وكونكتيكت. اجتازت النساء اللواتي أتين لقضاء يوم من التسوّق المحطّة الطرفيّة، ورحن يراجعن جداول الرحلات، يستعجلن العودة إلى منازلهنّ في الوقت المناسب لإعداد العشاء.

نزل ستيف إلى الدرج نحو الطابق الأسفل ودخل أويستر بار. كان شبه خالٍ. فازدحام ساعة الغداء قد انتهى منذ وقت بعيد، وموعد ازدحام الشراب والعشاء لا يزال بعيدًا. جلس إلى البار وطلب ما يريد، وهو حريص على إبقاء الحقيبة تحت قدمه.

الشهر الماضي، التقى شارون هنا لتناول الغداء. كانت شديدة الابتهاج بسبب الاستجابة الهائلة التي لقيتها حملتها لتخفيف عقوبة طومبسون إلى الحبس المؤبّد. قالت له بثقة: «سننجح يا ستيف.» كانت في غاية السعادة. كانت شديدة الاهتمام. تحدّثت عن رحلتها المقبلة لجمع المزيد من التأييد.

قال لها:

– سأشتاق إليك.

– سأشتاق إليك أيضًا.

«أحبّك يا شارون.» «أحبّك يا شارون.» «أحبّك يا شارون.» هل قال لها ذلك حينئذ؟

ابتلع كأس المارتيني التي وضعها الساقي أمامه.

جلس في أويستر بار، ولم يلمس طبق يخنة المحار الساخن الذي يغلي، ثمّ دفع فاتورته عند الرابعة إلّا خمس دقائق، ومضى إلى المحطّة الطرفيّة العليا، ورصيف قطار كارلي. لم يلاحظ أنّه وفيما كان يشقّ طريقه نحو العربة التي يتصاعد منها الدخان، كان رجل جالس في مؤخّرة المقطورة التي دخلها قد أخفى رأسه خلف جريدة. وفقط بعد مروره خُفضت الجريدة قليلًا وراحت عينان لمّاعتان تتابعان تقدّمه عبر المقطورة حاملًا الحقيبة الثقيلة.

خرج الراكب نفسه في كارلي، لكنّه انتظر بحذر على المنصّة حتّى دخل ستيف موقف السيّارات، وابتعد بسيّارته التي خُبّئت في مصابيحها الأماميّة وخلف مرآة الرؤية الخلفيّة كاميرات قويّة.

27

نامت غلندا بيري حتى الساعة الواحدة ظهرًا. صوت سيّارة ماريان تخرج من أمام المنزل هو ما أيقظها تمامًا. قبل أن تفتح عينيها ظلّت ترقد هادئة، تنتظر. لكنّها لم تحسّ بالألم الذي يرافق الحركة الأولى عادة. كان الألم شديدًا جدًّا في الليل، أسوأ ممّا باحت به لروجر. غير أنّه ربّما حزر ما بها، وقد علمت أنّ نتيجة تخطيط القلب أقلقت الطبيب.

كانت ترفض الذهاب إلى المستشفى. سيخدّرونها كثيرًا لدرجة أنّها ستصبح بلا فائدة. لن تسمح بحدوث ذلك. كانت تعلم لما ازدادت وتيرة الآلام مؤخّرًا. بسبب الفتى طومبسون. كان فتيًّا جدًّا، وقد ساعدت شهادتها على إدانته.

– لقد أسقطك أرضًا يا سيّدة بيري.

– نعم، كان يفرّ من المنزل.

– كان الظلام قد حلّ يا سيّدة بيري. هل أنت متأكّدة من أنّ الهارب لم يكن شخصًا آخر؟

- متأكّدة، لقد تـردّد في المدخل قبل اصطدامه بي. وكان مصباح المطبخ مضاء.

والآن نيل وشارون. ربّاه، دعني أتذكّر. عضّت شفتها... أحسّت ببعض الألـم... لا، لا تستائي. هذا غير مفيد. بربّك فكّري. وضعت حبّة نيتروغليسرين تحت لسانها، إنّها كفيلة بطرد الألم قبل أن يشتدّ. فوكسي. الطريقة التي لفظ الكلمة بها. ما الرابط؟ لم يكن ذلك منذ فترة بعيدة أيضًا.

انفتح الباب قليلًا ورأت روجر ينظر ناحيتها. قالت له: «لا بأس يا عزيزي، أنا مستيقظة.»

أسرع إلى السرير ولمس يدها، وسألها:

- كيف تشعرين؟

- لا بأس، كم مضى على نومي؟

- أكثر من أربع ساعات.

- سيّارة مَن رحلت منذ قليل؟

- سيّارة السيدة فوغلر.

- نسيت، ماذا فعلت؟

- بـدا أنّها أشغلت نفسها تمامًا في المطبخ. تسلّقت سلّمًا وأخذت أشياء من الرفوف العليا.

- الحمد لله. كنت أخشى الصعود لأخذها، كما أنّ الغبار يعلوها كلّها. روجر، ماذا حدث؟ هل تكلّم ستيف إلى... فوكسي؟

شرح لها روجر، وأنهى كلامه قائلًا:

- لم تكن سوى كلمات قليلة. هل تستطيعين الاستماع إلى الشريط؟

– نعم.

بعد خمس عشرة دقيقة، كانت غلندا جالسة في سريرها مستندة إلى وسائد، وفي يدها فنجان شاي، حين رأت هيو تايلور يدخل غرفة نومها.

– هذا لطف منك، يا سيّدة بيري، أعرف أنّ الأمر مجهد بالنسبة إليك.

بدرت من بيدها حركة تصرف بها هذا القلق وقالت له:

– سيد تايلور، أشعر بالخجل لأنني أهدرت الصباح كله. أرجو منك أن تشغّل المسجّلة.

شغّل هيو الكاسيت وراحت تصغي بانتباه شديد. ثمّ قالت:

– الصوت منخفض جدًّا، هذا مستحيل.

تبدّد التوقّع الذي كان مرسومًا بتوتّر على وجه هيو. وقال بصوت خلا من أيّ انفعال:

– شكرًا جزيلًا على إصغائك يا سيدة بيري، سنحلّل نمط الصوت في هذا الشريط. لا يعتبر هذا دليلًا مقبولًا، لكنّنا حين نقبض على الخاطف قد يساعدنا الأمر على تأكيد هويّته.

حمل هيو المسجّلة فوضعت يدها على الآلة وسألته:

– لا، مهلًا! هل هذا تسجيلك الخاصّ للاتصال؟

– لا، سجّلنا شريطًا وكاسيتًا خلال عمليّة التنصّت.

– هل تترك هذه معي؟

– لماذا؟

– لأنّني أعرف الشخص الذي كلّمته ليلة البارحة. أعرفه. سأحاول الآن أن أتذكّر كلّ أمر فعلته في الأسابيع القليلة الماضية. لعلّي أتذكّر شيئًا. وسأستطيع أن أسمع ذلك الشريط مجدّدًا.

– سيدة بيري، ليتك فقط تتذكّرين...

لكنّ نظرة تحذير محدّجة من روجر بيري جعلت هيو يعضّ شفته ويصمت. ثمّ غادر الغرفة بسرعة وتلاه روجر.

حين نزلا، سأله روجر:

– لماذا جعلتني أستبقي السيّدة فوغلر هنا اليوم؟ طبعًا أنت لا تشكّ...

– لا يمكننا إهمال أي احتمال، لكنّها لا تثير الشكوك. فهي ذات طبع حسن، ووضعها العائليّ جيّد، ومحبوبة جدًّا. وحديثها عن نيل هذا الصباح مجرّد صدفة. وعل كلّ حال فهي وزوجها يملكان أفضل حجّتَي غياب.

– وما هما؟

– شاهدها أمين الصندوق في السينما تدخل صالة العرض وتخرج منها. كما أنّ الجيران شاهدوا زوجها في المنزل مع أولادهما. وبُعَيْد السابعة مساء كانا في مركز الشرطة يبلغان عن سرقة سيّارتهما.

– نعم، لقد ذكرت ذلك. لحسن حظّها أنّها استعادتها.

– نعم. هي تجد سيّارة سيّئة الحال يعود طرازها إلى 8 سنوات، أمّا نحن فلم نعثر على أثر لضحيّتَي خطف. سيّد بيري، ما هو انطباعك بشأن شارون مارتن؟ أتظّنها قادرة على التخطيط لهذا الأمر؟

فكّر روجر في الأمر ثمّ أجاب:

– كلّ غريزة لديّ تقول لا.

– كيف تقيّم علاقتها بالسيّد بيترسون؟

تذكّر روجر حين قام ستيف وشارون بزيارتهما. بدت حينذاك مكتئبة قليلًا، وسألتها غلندا ما إذا كانت تعاني خطبًا ما. آنذاك دخل

ستيف المطبخ ليحضر بعض مكعّبات الجليد، فقالت شارون: «نيل يقفل عليّ كلّ باب للتقرّب منه». آنذاك عاد ستيف ولامس شعرها أثناء مروره بها. تذكّر روجر الانطباع على وجه كليهما، وقال:

– أظّنهما كانا... بل هما... متحابّان كثيرًا، أكثر ممّا يدركه أيّ منهما. أظّنها اضطربت لرفض نيل إيّاها، وطبعًا هذا الأمر كان يقلق ستيف أيضًا. كما أنّه في وضع ماليّ سيئ جدًا، فهو استثمر كلّ ما يملكه في مجلّة «الأحـداث» أنا واثق من أنّ استثماره سيعود عليه بالأرباح، لكنّ الأمر أقلقه. هذا ما قاله لي.

– وهناك موضوع إعدام طومبسون.

– نعم، كنّا نأمل، غلندا وأنا، في أن تنجح شارون في إنقاذه. غلندا تعاني مرض القلب بسبب دورها في تلك القضيّة.

– هل أرادت شارون أن يتدخّل السيّد بيترسون لدى الحاكمة؟

– أظنّها أدركت أنّه لن يفعل ذلك، وأنّ الحاكمة ستمتعض من أيّ مناشدة على أساس العواطف فقط. لا تنسَ أنّها تعرّضت للانتقاد الشديد بسبب تأجيلَي الحكم اللذين سبق أن منحتهما لطومبسون.

– سيّد بيري، ما رأيك بالزوجين لوفتس؟ هل من المحتمل أنّ لهما دورًا في هذه العمليّة؟ إنّهما يحاولان ادّخار المال، ويعرفان رقم هاتفك الخاصّ. ولعلّهما عرفا بأمر حساب الائتمان.

هزّ روجر رأسه بالنفي وقال:

– محال، إذا اشترت دورا شيئًا ما لغلندا من المتجر، تقضي عشرين دقيقة لتتأكّد من أنّها أعادت لها قيمة الفكّة الصحيحة. وهو أيضًا هكذا. أحيانًا يأخذ سيّارتي للصيانة ويفاخر دائمًا بما يوفّره عليّ. لا يستطيع أيّ منهما إلّا أن يكون صادقًا على نحو مؤثر.

– حسنًا، أعرف أنّك ستتّصل بنا إلى منزل بيترسون حالًا إذا كان لدى السيّدة بيري... ما تقوله لنا.

كان هانك لامونت ينتظر هيو. نمّ سلوكه عن أنّ لديه أخبارًا. لم يضيّع هيو الوقت في المقدّمات، فسأله:

– ماذا لديك؟

– السيّدة طومبسون...

– ما بها؟

– ليلة أمس، كلّمت شارون مارتن!

– ماذا؟!

– الفتى طومبسون أخبرنا. دون وستان استجوباه في زنزانته. قلنا له إنّ ثمّة تهديدات ضدّ ابن بيترسون وقلنا له محذّرين إنّ الأجدى، إذا ما كان أصدقاؤه يعدّون لشيء ما، أن نعرف أسماءهم قبل أن يتورّطوا في مشاكل عميقة.

– أما أخبراه بأنّ نيل وشارون مخطوفان؟

– طبعًا لا.

– ماذا قال؟

– لا غبار عليه. لم يزره في العام الماضي سوى والدته ومحاميه وكاهن الرعيّة. أقرب أصدقائه في الثانويّة باتوا الآن في الجامعات. أعطانا أسماءهم. جميعهم مسافرون. لكنّه أخبرنا أنّ شارون اتّصلت بأمّه.

– هل كلّما الأمّ؟

– نعم. إنّها تقيم في نزل بقرب السجن. لقد وجداها.

– في النزل؟

– لا، في الكنيسة. كان الله في عونها. وجداها راكعة في الكنيسة تصلّي. ترفض أن تصدّق بأنّ الفتى سيُعدَم غدًا. ترفض أن تصدّق. قالت إنّ شارون اتّصلت بها عند السادسة إلّا دقائق. أرادت أن تعرف إن كان بإمكانها أن تفعل شيئًا. اعترفت بأنّها انفجرت بها غضبًا، ولامتها على إعلانها في طول البلاد وعرضها أنّ الفتى مذنب. وهدّدت بأنّها لا تعلم ما قد تفعله بشارون إذا ما مات ابنها. ما رأيك؟

قال هيو:

– لنجرّب هذا الافتراض: استاءت شارون مارتن من الاتصال الهاتفيّ... ولعلّها تظنّ حتّى أنّ في ما تقوله الأمّ بعض الصحّة. كانت يائسة فاتّصلت بمَن يأتي لخطفها وخطف الصبيّ. خطّطت لعمليّة ضخمة... تجعلها تبدو كعمليّة خطف حقيقيّة، ومن ثمّ لاستبقاء نيل رهينة في مقابل حياة طومبسون.

– هذا احتمال ممكن.

تصلّبت قسمات هيو، وقال:

– أظنّه أكثر من احتمال. أظنّ أنّ ذلك الرجل المسكين، بيترسون، يتمزّق ألمًا، وأنّ السيّدة بيري على وشك الخضوع لجراحة في القلب، لأنّ شارون مارتن تظنّ نفسها قادرة على التلاعب بالعدالة.

– ماذا نفعل الآن؟

– نواصل التعامل مع هذه القضيّة وكأنّها عمليّة خطف حقيقيّة. ولنبحث عن كلّ ما يمكننا العثور عليه حول شركاء شارون مارتن، وخصوصًا كلّ شخص تعرفه في هذه المنطقة. ليت السيّدة بيري تتذكّر أين سمعت ذلك الصوت، فتنفتح لنا ثغرة في القضيّة.

كانت غلندا في غرفتها تشغّل الكاسيت وتصغي إليه مرّة بعد مرّة. «بعد عشر دقائق، سأتّصل بك عبر الهاتف العموميّ التابع لمحطّة

الخدمة بعد المخرج 21.» هزّت رأسها قانطة وأوقفت المسجّلة. هذه ليست الطريقة الصحيحة للقيام بذلك. عليها أن تبدأ بتذكّر أحداث الأسبوعين الأخيرين. لكن، ماذا في تلك الكاسيت؟

أمس لم تغادر المنزل قطّ. اتّصلت هاتفيًا بالصيدليّة... وبأغنس ثمّ بجولي بشأن فوائد المستشفى... تشيب وماريا اتّصلا بها من كاليفورنيا وأسمعاها صوت الطفل. كانت تلك آخر مرّة تتحدّث فيها بالهاتف أمس إلى أن اتّصل فوكسي.

يوم الأحد، ذهبت وروجر بالسيّارة إلى نيويورك بعد الكنيسة مباشرة وتناولا فطورًا متأخّرًا في مطعم «بيار»، ثمّ ذهبا إلى «كارنيغي هول» لسماع سركين. يومذاك لم تكلّم أحدًا بالهاتف على الإطلاق.

يوم السبت، زارت مهندس الديكور لمحادثته في أمر أغطية الأثاث. وقصدت مزيّن الشعر، أم كان ذلك يوم الجمعة؟ هزّت رأسها من شدّة نفاد صبرها. تلك لم تكن الطريقة الصحيحة للقيام بالأمر. غادرت سريرها وسارت ببطء إلى مكتبها وبحثت عن دفتر مواعيدها. كانت قد سألت روجر أن يأتيها بالروزنامة عن جدار المطبخ أيضًا. فهي أحيانًا تكتب عليها بعض الملاحظات السريعة. وإيصالات مدفوعاتها أيضًا، كانت تحتفظ بها، وكلّها تحمل تواريخ. قد تساعدها على أن تتذكّر الأمكنة التي توقّفت فيها. وأيضًا دفتر شيكاتها. أخرجت دفتر الشيكات من أحد أقسام المكتب وإيصالات المدفوعات من درج.

حملت تلك الأوراق وعادت إلى سريرها، وتنهّدت فيما اعتصر صدرها انقباض تحوّل إلى ألم حادّ. مدّت يدها إلى حبّة النتروغليسرين فيما كانت تضغط على زرّ المسجّلة وراحت تستمع إلى الشريط. من جديد ملأ أذنها الهمس الصادر عن الحلق: «بعد عشر دقائق، سأتّصل بك عبر الهاتف العموميّ التابع لمحطّة الخدمة بعد المخرج 21.»

28

عاد من كشك الهاتف، وكان يفكّر في الشريط. بيترسون يريده أن يسجّل صوت شارون والصبيّ، هل عليه أن يفعل ذلك؟

لمَ لا؟

مضى توًّا إلى محطّة غراند سنترال. الأفضل له أن يذهب إليهما فيما لا تزال ثمّة حركة ركّاب. فالحرّاس كانوا ذوي حاسّة سادسة في مجال اكتشاف الدخلاء على المحطّة الطرفيّة.

لعلّ شارون والصبيّ لم يتناولا عشاءً أمس، ولا بدّ من أنّهما جائعان. لم يردها أن تكون جائعة، لكنّها قد لا تأكل إن لم يُطعم الفتى أيضًا. التفكير في الصبيّ كان يثير توتّره دائمًا. كاد الهلع يصيبه منذ أسابيع قليلة حين نظر إلى الخارج فرأى الصبيّ يحدّق فيه من السيّارة. تمامًا كما فعل في الحلم، تانك العينان المستديرتان البنّيتان والبؤبوان الواسعان جدًّا لدرجة أنّهما بدوا أسودين، وكأنّما يوجّهان إليه الاتّهام، الاتّهام دائمًا.

غدًا سينتهي كلّ شيء. سيكون عليه شراء تذكرة سفر بالطائرة لشارون. لم يكن آنذاك يملك المال الكافي لذلك، لكنّ هذا الأمر

سيتغيّر بعد هذا المساء. يستطيع أن يحجز تذكرة سفر. لكن أيّ اسم سيستخدم؟ عليه أن يبتكر لها اسمًا.

أمس، في برنامج «اليوم»، قُدّمت إلى المشاهدين على أنّها المؤلّفة وكاتبة المقالات. كانت مشهورة جدًّا ومحبوبة جدًّا، ولهذا السبب من الرائع جدًّا أن تكنّ له كلّ هذا الحبّ.

كانت مشهورة جدًّا، وقد ظهرت في برنامج «اليوم» التلفزيونيّ. لا بدّ من أن يتعرّف إليها الكثيرون. قطّب جبينه عابسًا وتوقّف في مكانه، فاصطدمت به امرأة كانت تمرّ بجانبه مسرعة. نظر إليها متجهّمًا فقالت له «أوه، اعذرني.» ثمّ مضت مسرعة نحو الشارع. لانت مشاعره، فهي لم تقصد أن تكون فظّة معه. حتّى أنّها ابتسمت له، ابتسمت له حقًّا. إنّ نساء كثيرات قد يبتسمن له بعد الآن حين يعرفن حجم ثروته.

عاد للسير ببطء على جادّة لكزنغتون. كانت الحافلات قد سحقت الثلج الذي سقط وحوّلته إلى قذارة. راح كلّ الثلج يتجمّد ما خلا ما هو مباشرة في طريق الحافلات والسيّارات. تمنّى لو أنّه يذهب إلى فندق بيلتمور. تلك الغرفة كانت مريحة للغاية. لم يسبق له أن دخل مكانًا كهذا قطّ.

كان ينوي البقاء مع شارون والصبيّ حتّى بعد الظهر. ثمّ يمضي بالقطار إلى كارلي، فيذهب إلى منزله ليرى إنْ كان ثمّة رسائل له. لا جدوى من إثارة تساؤل الناس حول غيابه. حاول جاهدًا التفكير أين يترك الكاسيت، فلعلّ بيترسون لن يدفع المال إن لم يحصل عليها.

كان يجب أن يحصل على المال، فقد بات من الخطر الشديد بالنسبة إليه أن يبقى في مقاطعة فيرفيلد الآن. كما أنّ لديه سببًا

وجيهًا ليرحل، والجميع يتوقّع منه الرحيل. فكّر في نفسه أنّ كلّ رحيل غير متوقّع في هذه المنطقة قد يثير تساؤلات رجال الشرطة. لكنّ تلك لم تكن حاله، فهو يتذمّر منذ فترة من أنّه سيخسر منزله، وقد توسّل إلى العجوز ليجدّد له عقد الإيجار...

لكنّ ذلك كان قبل مقتل الامرأتين الأخيرتين. كانت الجرائد تدعوه «مجرم الأجهزة اللاسلكيّة» لو أنّها كانت تعرف... لقد ذهب حتّى إلى جنازة الفتاة كالاهان. إلى جنازتها!

فجأة أدرك أين عليه أن يترك الكاسيت، أين يمكنه التأكّد من أنّه سيتمّ العثور عليها وتسليمها في ذاك المساء. فبيترسون قد لا يدفع إذا لم يحصل عليها.

سار مسرورًا إلى مقهى نيديكس، وطلب قهوة وحليبًا ولفافات عجائن محلاّة. سيبقى في الغرفة لبعض الوقت، لذا لمَ لا يتناولا بعض الطعام في الحال، والبعض الاخر لاحقًا قبل انصرافه؟ لم يرد أن تظنّه شارون مجرّدًا من اللطف.

حين غادر المنطقة نحو سكّة ماونت فرنون، خامره شعور غريب بأنّه مراقَب. كان ذا حدس لا يخطئ، فتوقّف وأصغى. ظنّ أنّه سمع شيئًا فعاد على رؤوس أصابعه إلى الخلف، لكنّه لم يرَ سوى عجوز متشرّدة تسير على منحدر المحطّة الطرفيّة. ظنّ في نفسه أنّها كانت تنام على المنصّة.

بكثير من العناية، أزال السلك الذي كان مربوطًا بباب الغرفة، ثم أخرج مفتاحه وأدخله في القفل بحذر. راح يفتح الباب دافعًا إيّاه إلى الداخل مسافة شعرة بعد شعرة، لمنع السلك من الانقطاع، ثمّ انسلّ إلى داخل الغرفة وأقفل الباب.

أضاء المصابيح الفلورية ثمّ صدر عنه نخير يدلّ عن الرضا. لا تزال شارون والفتى كما تركهما. لم يكن الصبيّ المعصوب العينين يستطيع رؤيته طبعًا، لكنّ شارون رفعت رأسها من ورائه. وضع الرزمة من يده ومضى نحوها مسرعًا وانتزع الكمامة من فمها.

قال لها، وقد ظنّ أنّ في عينيها نظرة لوم: «لم تكن الكمامة شديدة جدًّا هذه المرّة».

لا، لقد كانت متوتّرة الأعصاب. متوتّرة على نحو مختلف. كانت عيناها خائفتين جدًّا آنذاك. لم يردها أن تكون خائفة منه. فقال لها بصوت لطيف جدًّا:

– هل أنت خائفة يا شارون؟

– أوه... لا، لا أبدًا.

– أحضرت لكما طعامًا.

– يسرّني ذلك، لكن هلاّ تزيل كمامة نيل... وهلاّ تفكّ وثاقنا، ولو فقط أيدينا... كما فعلت من قبل؟

ضاقت عيناه. كان فيها شيء مختلف. أجاب: «طبعًا يا شارون» ثمّ اقترب وجهه من وجهها حتى لامسه بأنفه. كانت أصابعه قويّة جدًّا وبوسعه فكّ العقد بسرعة كبيرة. وما هي إلّا دقيقة حتّى تحرّرت يداها، ثمَ اقترب من الصبيّ الذي اقترب بجسده أكثر نحو شارون. فقالت له:

– لا بأس يا نيل، تذكّر ما تحدّثنا به.

– بمَ تحدّثتما يا شارون؟

– بأنّ والد نيل سيعطيك المال الذي تريده، وأنّك ستقول لأبيه غدًا أين يجده. قلت له إنّني سأرحل معك، لكنّ أباه لن يلبث أن يصل إلى هنا بعد رحيلنا. أليس هذا صحيحًا؟

كان الصوت ينمّ عن تفكير عميق، وكانت العينان البرّاقتان تنمّان عن التساؤل.

– هل أنت متأكّدة من أنّك تريدين الرحيل يا شارون؟

– أوه، أجل، كثيرًا، فأنا... أنا معجبة بك يا فوكسي.

– أحضرت لك بعض اللفافات المحلاّة والقهوة، وحليبًا للصبيّ.

– كم هذا لطيف منك.

أخذت تحرّك أصابعها. راقبها وهي تفرك معصمَي نيل، فيما راحت تزيح شعره عن جبينه. كانت تضغط على يدَي الصبيّ بما يشبه الإشارة، أو الاتّفاق السريّ.

قرّب صندوق البرتقال ووضع الكيس فوقه. سألته: «أين حليب نيل؟» أعطاها الحليب، ونظر إليها وهي تضعه في يد نيل. قالت له: «هاك كوب الحليب. احمله يا نيل، واشربه ببطء.» كان الصبيّ يتنفّس بصعوبة وبصوت يبعث على القلق والاضطراب ويثير الذكريات.

أخرج لفافات العجائن المحلاّة التي طلبها بكثير من الزبدة، كما يحبّها. قطعت شارون إحداها وأعطتها للصبيّ قائلة: «خذ يا نيل، هذه لفافة محلّاة». كان صوتها مهدّئًا، وكأنّها والصبيّ يتآمران ضدّه. نظر إليهما يأكلان وهو متجهّم الوجه، وابتلع قهوته بسرعة وهو يكاد لا يتذوّق طعمها. أكل كلاهما لفافة واحدة، وأنهيا القهوة والحليب.

لم يكن قد نزع معطفه، فالبرد كان قارصًا في هذه الغرفة، كما أنّه في كلّ حال لم يرد أن تتّسخ بزّته الجديدة. أبعد صندوق البرتقال، ووضع الكيس وفيه اللفافات الباقية على الأرض، وجلس على الصندوق وأخذ يحدّق بهما.

حين انتهيا من الأكل، جذبت شارون نيل إلى حضنها. كان صوت تنفّس الصبيّ مرتفعًا جدًّا ومتعبًا، فأثار حنق فوكسي وتوتّر

أعصابه. لم تنظر إليه شارون على الإطلاق، بل راحت تفرك ظهر الصبيّ وتحدّثه برفق، وتسأله أن يحاول النوم. راقبها فوكسي وهي تقبّل جبين نيل، ثم تضع رأسه على كتفها.

فكَر فوكسي في أنّها فتاة محبّة جدًّا، وفي أنّها تحاول أن تكون لطيفة مع الصبيّ، لا أكثر. ربّما عليه أن يتخلّص من الفتى في الحال ويدعها تبدأ بملاطفته هكذا. تغيّر التعبير في عينيه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة فيما راح يفكّر كيف يمكن لشارون أن تلاطفه. ملأ التوقّع جسده بالدفء. وأدرك أنّ شارون كانت تحدّق به آنذاك، فنظر إلى ذراعيها تطوّقان الصبيّ بقوّة. أراد أن تطوّقه هو تانك الذراعان. نهض متّجهًا إلى السرير.

اصطدمت رجله بالمسجّلة. المسجّلة! الكاسيت التي طالب بها بيترسون. لم يحن الوقت بعد للتخلّص من الفتى. عاد للجلوس وهو يشعر بالخيبة والغضب. قال لشارون:

– عليكما أن تسجّلا صوتكما لبيترسون الآن.

– نسجّل صوتنا؟

كان صوت شارون سريعًا ومتوتّرًا. قبل ثانية، كادت تقسم يمينًا على أنّه يضمر لهما شرًّا. كان ذلك واضحًا في نظرته إليهما، في تعبير وجهه. حاولت أن تفكّر: هل من فرصة؟ هل من طريقة؟ منذ أن أخبرها نيل أنّ هذا الرجل هو قاتل أمّه، ازداد تصميمها المحموم على أن تجد طريقة للخروج من هذا المكان. غدًا قد يكون الأوان فات لرونالد طومبسون كما لنيل. لم تكن تعلم متى ينوي فوكسي العودة لأخذها. لا بدّ من أن يدرك بأنّ الآخرين سيتعرّفون إليها عاجلًا أم آجلًا. كانت ذكرى سعيها إلى إنقاذ رونالد تعذّبها وتهزأ بها. لقد كانت أمّه على حقّ، فهي، وبالإصرار على أنّه مذنب، ساعدت على إدانته. لم يكن

يهمّها سوى إنقاذ حياة نيل وحياة رونالد. إنّها تستحقّ كلّ ما حدث لها. وهي التي قالت لستيف إنّه يحاول أن يحلّ محلّ الله.

كان فوكسي يحمل مسدّسًا في جيب معطفه. إذا حاولت حمله على أن يطوّقها بذراعيه... فقد تنجح في أخذ المسدّس.

إذا تسنّت لها فرصة واحدة، أهي قادرة على قتله؟

نظرت إلى نيل، وفكّرت في الفتى المدان في الزنزانة. نعم، هي قادرة على قتله.

نظرت إليه وهو يجهّز المسجّلة بطريقة توحي بالخبرة في ذلك، ويُدخل فيها الكاسيت. كانت الكاسيت من ماركة TWX وهي شائعة جدًّا، لن يستطيعوا تعقّب مصدرها أبدًا.

قال لها: «اقرأي هذه يا شارون.» كان قد كتب رسالة وفيها: «ستيف، ادفع الفدية إذا أردتَ عودتنا. يجب أن يكون المبلغ بأوراق ماليّة من فئة العشرة والعشرين والخمسين دولارًا. اثنان وثمانون ألف دولار. أمّنْها. يجب ألاّ تحمل علامات. اذهب إلى كشك الهاتف عند تقاطع الشارع التاسع والخمسين وشارع لكزنغتون. كُن وحيدًا ولا تبلّغ الشرطة.»

نظرت إليه وسألته:

– أيمكنني أن أضيف شيئًا؟ أعني، لقد تشاجرنا، وقطعنا علاقتنا... ربّما، ربّما لن يدفع فدية لاستعادتي، إذا لم أعتذر. إنّه عنيد جدًّا. لعلّه لن يدفع سوى... نصف المبلغ... لأجل نيل... لأنّه يعرف أنّني لا أحبّه. لكنّنا بحاجة إلى كلّ المبلغ، أليس كذلك؟

– ماذا تريدين أن تقولي يا شارون؟

هل كان يلاعبها؟ هل صدّقها؟

– مجرّد اعتذار، لا أكثر.

حاولت أن تبتسم، فأبعدت نيل عن حضنها، ومدّت يدها لتلامس يد فوكسي.

– لا أخاديع يا شارون.

– لماذا سأخدعك؟ ماذا تريد من نيل أن يقول؟

– ليقل فقط إنّه يريد العودة إلى المنزل. لا شيء آخر.

كان يضع إصبعه على زرّ التسجيل، وقال:

– ابدأي الكلام، حين أضغط الزرّ. الميكروفون في داخل المسجّلة.

بلعت ريقها، وانتظرت أن تبدأ المسجّلة بالدوران وقالت: «ستيف...» كانت تقرأ ببطء محاولة أن تشتري الوقت، محاولة أن تفكّر في ما ستقوله بعد ذلك. انتهت من قراءة الرسالة قائلة «لا تبلّغ الشرطة»، ثمّ توقّفت.

كان ينظر إليها نظرة طويلة. كان عليها أن تقول شيئًا، فأضافت:

– ستيف، سيكلّمك نيل. لكن أوّلًا... لقد أخطأتُ... أرجو أن تسامحني...

أطفِئت المسجّلة وهي على وشك أن تقول: «لقد ارتكبتُ خطأً فظيعًا...»

قال لها فوكسي: «هذا اعتذار كافٍ يا شارون.» وأشار إلى نيل. وضعت شارون ذراعها حول الصبيّ وقالت له:

– حسنًا يا نيل. كلّم أباك الآن.

زاد جهده للكلام من صفير تنفّسه. وقال: «أنا بخير يا أبي. شارون... تعتني بي. لكنّ أمّي ما كانت لتريدني أن أكون هنا يا أبي.»

توقّفت المسجّلة. لقد حاول نيل إيصال رسالة إلى ستيف. حاول أن يربط بين خطفهما وموت والدته.

أعاد الرجل شريط الكاسيت إلى الخلف، وسمعه مجدّدًا. ثمّ ابتسم لشارون وقال:

– هـذا جميل. لو كنت بيترسون، لدفعت الفدية لاستعادة كليكما.

– حسن. يسرّني أنّك رضيت.

تساءلت شارون: هل كان يتعمّد إلقاء طعم لها؟

أمسك نيل بكمّ معطف شارون وشدّه، وقال لها:

– شارون، عليّ أن...

قاطعه فوكسي بصوت فيه واقعيّة:

– هل عليك دخول المرحاض يا غلام؟ أظنّ الوقت حان لذلك.

مشى إلى نيل وحمله وسار معه إلى المرحاض ثم أقفل الباب. تجمّدت شارون وهي تنتظر، لكنّه لم يلبث أن عاد حاملًا نيل تحت ذراعه. لاحظت أنّه أبعد وجه نيل عنه، وكأنّه يخشى أن يرى نيل من خلال الكمامة. رمى نيل على السرير، وكان يرتجف. قال لها الصبيّ: «شارون؟» فأجابته وهي تمرّر يدها على ظهره: «أنا هنا».

سألها الخاطف وهو يشير برأسه ناحية المرحاض:

– أتريدين يا شارون؟

– نعم.

أخذها من ذراعها وسار بها وهو يكاد يحملها إلى الجحر الرطب والعفن. حزّ الحبل في ساقيها وكاحليها ما جعلها تجفل ألمًا. قال لها:

– في الداخل مزلاج يا شارون. حتّى أنّني سأدعك تستعملينه، إذا شئِت، فيما تكونين في الداخل، لأنّ الباب لا يوصد بدونه. لكنّ الأجدى بك أن تخرجي بسرعة.

ثم أضاف ويده تداعب خدّها:

– لأنّك إذا لم تفعلي وغضبتُ، فالصبيّ سيدفع الثمن.

ثمّ خرج وأغلق الباب خلفه. زلجت شارون الباب بسرعة ونظرت من حولها. وفي ظلمة الحجرة الصغيرة، مررت يدها على أنبوب فوجدت شيئًا حادًا. ثم تحسّست الأرض.

– أسرعي يا شارون

– حسنًا...

حين بدأت بفتح الباب، أحسّت بالمقبض مرتخيًا في يدها، فحاولت أن تديره دورة كاملة. فكّرت في أنّها إذا استطاعت أن تقتلعه فقد تضعه في جيب تنّورتها العميق، لعلّ له حافّة حادّة. لكنّها لم تنجح في ذلك.

– اخرجي من هناك!

بات صوته حادًّا. فتحت الباب بسرعة وحاولت الخروج فتعثّرت وأمسكت بإطار الباب المعدنيّ. تعمّدت أن تضع ذراعيها حول عنقه. لجمت تقزّزها منه وقبّلت عنقه وشفتيه. اشتدّت ذراعاه. أحسّت بالتسارع المفاجئ لضربات قلبه... ربّاه، رجاءً...

مرّرت ذراعيها حول كتفيه وظهره. داعبت أصابعها عنقه برفق. ثمّ اقتربت يدها اليمنى إلى الأمام وانسلّت إلى جيب معطفه وأحسّت بالفولاذ. لكنّه دفعها إلى الخلف فارتطمت بالأرض الإسمنتيّة وقد انثنت ساقاها تحتها. أحسّت بألم شديد يخترق كالرصاصة كاحلها الأيمن.

صرخ بها: «أنت كالآخرين يا شارون.» كان يقف فوقها. ومن الأرض، من أمواج الألم التي كانت تدفع إلى حلقها الطعام الذي تناولته

قبل قليل، كانت تستطيع أن تراه. بدا وجهه وكأنّه من خارج جسده فيما انحنى فوقها. كان النبض تحت عينيه يتردّد بقوّة. وأبرزت بقع حمراء خطوط خدّه الحادّة. كانت عيناه حفرتين ضيّقتين سوداوين تقذفان الغضب حممًا، وقال لها: «أيّتها الساقطة، أيّتها الساقطة!»

شدّها بعنف ودفعها على السرير ثمّ ضمّ ذراعيها بوحشيّة خلفها. لفّها الألم الهائل بسواد ضبابيّ. «كاحلي.» هل كان هذا صوتها؟

قال نيل بصوت مرتعب: «شارون... شارون... ماذا حدث؟»

كتمت شارون أنّة ألم وقالت بجهد كبير: «لقد وقعتُ».

– كالآخرين كلّهم... تتظاهرين... بل وأسوأ... تحاولين خداعي... عرفت أنّك تخدعينني... أنّك تكذبين... عرفت...

شعرت بيدين قريبتين من عنقها. ربّاه! كانت أصابع قويّة تشدّ على خناقها... ربّاه... ساعدني...

«لا.» تلاشى الضغط. وسقط عنقها إلى الخلف.

كان نيل يبكي بصوت مضطرب ومخنوق ويناديها: «شارون، شارون».

شهقت الهواء وقرّبت وجهها من وجهه. كان جفناها ثقيلين جدًّا ففتحتهما بالقوّة. ورأت فوكسي واقفًا عند المغسلة الصدئة يرشّ الماء على وجهه. لا شكّ بأنّ الماء كان مثلجًا. راقبته بخوف وهو يحاول أن يهدّئ نفسه بعد أن كان على وشك أن يقتلها. ما الذي منعه؟ لعلّه خاف لأنّه ما زال بحاجة إليها.

عضّت شفتها لمقاومة الألم. لم يكن لديهما من مخرج على الإطلاق. وغدًا حين يحصل على المال، سيقتلها ويقتل نيل. وسيموت

رونالد طومبسون لأجل جريمة لم يقترفها. وحدهما، هي ونيل، يستطيعان إثبات براءته. كان كاحلها يتورّم ويضغط على الحذاء الجلديّ، فيما خناق الحبل يشتدّ عليه. أرجوك يا ربّ. جعلها الألم ترتعد كما جعل وجهها يتصبّب عرقًا.

راقبته وهو يجفّف وجهه بمنديل. سار إليهما وعاد إلى تقييد يدي نيل بشكل محكم، ثمّ كمّمهما بشدّة. ضبط السلك بين الحقيبة والباب، وقال وهو يخرج:

– سأنصرف يا شارون. سأعود غدًا، سأعود مرّة واحدة فقط...

لم يكن ينوي الانصراف باكرًا، لكنّه أدرك أنّه سيقتلها إذا ما بقي في تلك الغرفة وقتًا أطول، وهو قد يحتاج إليها مجدّدًا. قد يطالبونه بمزيد من الإثباتات إلى أنّها والصبيّ حيّان. كان يجب أن يحصل على المال. لم يستطيع المجازفة بقتلها بعد.

كان قطار يصل من ماونت فرنون عند الحادية عشرة، وسيكون عليه الانتظار دقائق قليلة قبل وصوله. بقي بقرب مدخل النفق، حيث المكان مظلم.

سمع صوت خطوات فألصق جسده بالحائط وحدّق بحذر. رأى حارسا! نظر الرجل حوله بعناية، سار في المكان ذهابًا وإيابًا، وأمعن النظر بفضول إلى الأنابيب والصمّامات، وألقى نظرة على السلّم المفضي إلى الغرفة، ثمّ سار ببطء عائدًا إلى منصّة ماونت فرنون.

شعر بالعرق البارد يتصبّب من كلّ جسده. كان حظّه ينفد. شعر بذلك. عليه أن ينتهي من هذا الأمر كلّه ويهرب. ثمّ سمع هديرًا وزعيق مكابح. دار بحذر حول المهاوي والمجارير وبلغ المنحدر حيث اختلط، يخامره كثير من الشعور بالارتياح، بالركّاب الذين يغادرون القطار.

كانت الساعة الحادية عشرة فقط. لم يرد الجلوس في غرفة الفندق، فقد كان يشعر بكثير من الاضطراب. سار غربًا عبر الشارع الثاني والخمسين، ودخل إلى قاعة للسينما حيث جلس أربع ساعات ونصف يشاهد مأخوذًا ثلاثة أفلام خلاعيّة دغدغت حواسّه وأشبعت حاجاته. وعند الرابعة وخمس دقائق كان على متن القطار المتّجه إلى كارلي.

لم يرَ ستيف بيترسون حتّى جلس في القطار. وقد صدف أن مرّ بيترسون فيما كان هو يرفع نظره. لكّن وجهه كان ولحسن الحظ قد توارى خلف الجرائد، محاذرًا بذلك أن يتعرّف إليه أحد أو يجلس بجانبه شخص ما يعرفه.

كان ستيف يحمل حقيبة ثقيلة. إنّه المال! لقد أدرك ذلك! وهذا المال سيكون معه هذا المساء. زال عنه الشعور بالكارثة الموشكة على الوقوع وغادر محطّة كارلي بكثير من الثقة والشعور بالارتياح بعدما تأكّد من انصراف ستيف بالسيّارة. حثّ خطواته وسار عبر الثلج مسافة المربّعات الثمانية ليصل إلى منزله، في مرآب حقير في شارع مسدود، وعلى لافتته عبارة «إيه.آر تاغرت – تصليح سيّارات».

فتح قفل الباب ودخل بسرعة. لم يكن تحت الباب من رسائل. هذا جيّد. لم يأتِ أحد بحثًا عنه. لكن حتّى لو أتى أحدهم، فلن يكون من غير المألوف ألاّ يجده، لأنّه غالبًا ما كان يذهب لكي يصلح سيّارات الأشخاص أمام منازلهم.

بدا المرآب باردًا ووسخًا، وليس أفضل بكثير من تلك الغرفة في محطّة غراند سنترال. ولا شكّ بأنّه لطالما عمل في الجحور القذرة.

كانت سيّارته هناك، مستعدّة للانطلاق. سبق له أن ملأها وقودًا من مضخّة الوقود عند الزاوية. كان تركيب تلك المضخّة أفضل فكرة

تفتّقت له. كان ذلك مفيدًا للزبائن، فقد أحبّوا تلك اللمسة الإضافيّة بملء سيّاراتهم وقودًا، ومفيدًا له أيضًا، فهو يسهّل له التجوال على الطرق العامّة ليلًا. «نفد منك الوقود يا سيّدتي. في صندوق سيّارتي وقود. عملي تصليح السيّارات.» كان في السيّارة لوحتا تسجيل قديمتان سبق أن غيّرهما لزبون منذ أعوام قليلة. فقط تحسّبًا لقيام أحد المتجسّسين بتدوين رقم السيّارة هذا المساء.

انتزع جهازه اللاسلكيّ ووضعه في علبة على المقعد الأماميّ.

تخلّص من كلّ لوحات التسجيل الأخرى التي جمعها على مرّ السنوات الستّ الأخيرة، ومفاتيح السيّارات الإضافيّة الأخرى التي صنعها، ورمى كلّ شيء في مكبّ للنفايات بقرب بوكيبسي.

كان على الرفوف أدوات غريبة وقطع غيار، وفي الزاوية كومة من الإطارات. قال في نفسه: «ليهتمّ العجوز مونتغومري بالتخلّص منها. بأيّة حال، هو ينوي هدم هذا المكان، وسيكون لديه الكثير من الخردة لرميه بعيدًا.»

كانت هذه آخر مرّة يأتي فيها إلى هنا. وهذا أمر حسن، فهو لم يستطيع العمل كثيرًا في الشهرين الأخيرين بعد أن اشتدّ اضطراب أعصابه. لحسن الحظّ أنّه قام بإصلاح سيّارة الزوجين فوغلر، كان ذلك عملًا كبيرًا أنقذه من محنته الماليّة.

كان هذا كلّ شيء.

دخل الغرفة الصغيرة الحقيرة في مؤخّرة المرآب، وأخذ حقيبة رثّة من تحت السرير الفرديّ. ومن خزانة متزعزعة من خشب القيقب، أخذ مجموعته الهزيلة من الملابس الداخليّة والجوارب ووضعها في الحقيبة. رفع عن تعليقة خلف الباب سترة رياضيّة حمراء سيّئة القصّة

وبالية وسـروالًا من القماش المربّع النقش وطواهما ووضعهما في الحقيبة. رمى لباس العمل القذر بالشحم على السرير. قرّر أن يتركه هنا، فمع المبلغ الكبير الذي سيحصل عليه، لن يحتاج إليه من جديد.

أخذ المسجّلة من جيب معطفه وأصغى مجدّدًا إلى الكاسيت الذي سجّله بصوتَي شارون ونيل. كانت مسجّلته الأخرى وهي من نوع «سوني» فوق الخزانة. وضعها على السرير، وفتّش بين كاسيتاته واختار إحداها، ثمّ شغّلها. كان فقط بحاجة إلى البداية.

عـاد إلى تشغيل الكاسيت التي تحمل صوتَي شـارون ونيل، وتركها حتّى انتهى صوت نيل، ثمّ ضغط على زرّ التسجيل. وفي الآلة الأخرى، أي «سوني»، ضغط زرّ التشغيل.

لـم يستغرق الأمـر سوى دقيقة. حين انتهى، أعـاد تشغيل الكاسيت التي راجعها والتي سيرسلها إلى بيترسون. ممتاز. لفّها بقطعة من الورق الأسمر، وشدّها بشريط لاصق. وبقلم عريض أحمر كتب رسالة على مقدّمة الرزمة.

وضع الكاسيتات الأخرى والمسجّلتين الأخريين في الحقيبة بين ثيابه المطويّة، ثمّ أغلق الحقيبة وأقفلها وحملها إلى السيّارة.

سيكون له ما يكفيه لوضع حقيبة المال في مقصورة الركّاب في الطائرة. أمّا هذه الحقيبة وعلبة الجهاز اللاسلكيّ فيمكنهما أن تدخلا مخزن الأمتعة.

فتح باب المرآب، ودخل السيّارة وأدار المحرّك. وقبل أن ينطلق بها، ابتسم ابتسامة سرّية متفكّرة، وقال: «حان الوقت الآن لزيارة إلى الكنيسة ولكوب جعة».

29

قال ستيف لهيو بدون حماسة:

– لا أصدّق هذا. كما أنّك تعرّض حياة نيل وشارون للخطر إذا تعاملت مع هذه القضيّة على أنّها خدعة مدبّرة.

كان ستيف قد عاد لتوّه من نيويورك، وراح يذرع أرض غرفة العائلة جيئة وذهابًا، ويداه في جيبيه. نظر إليه هيو بمزيج من التعاطف والغضب. كان الرجل المسكين يسيطر على نفسه بقوّة حديديّة، لكنّه شاخ عشر سنوات في عشر ساعات. حتّى منذ الصباح وإلى الآن، رأى هيو خطوطًا جديدة من القلق حول عينَي ستيف وفمه.

قال بحزم:

– سيّد بيترسون، أؤكّد لك أنّنا نعتبر عمليّة الخطف هذه عمليّة حقيقيّة. إلّا أنّنا بدأنا نظنّ أنّ... اختفاء... نيل وشارون... سيُربط بصورة مباشرة بمحاولة للمساومة على عفو لرونالد طومبسون.

– وأنا أقول لك إنّ ذلك لن يحدث! أما من خبر من غلندا؟

– أخشى أن لا.

– أما من إشارة إلى شريط أو كاسيت من... فوكسي؟

– آسف.

– إذًا لا يمكننا سوى الانتظار.

– نعم. خير لك أن تعدّ نفسك لمغادرة نيويورك بحلول منتصف الليل.

– لن يرد الاتّصال الهاتفيّ قبل الثانية.

– سيّد بيترسون، إنّ حال الطرقات سيّئة.

– أتظنّ فوكسي قد يخشى لقائي، خوفًا من أن يعجز عن الهرب؟

هزّ هيو رأسه وأجاب:

– لستُ أفضل منك تخمينًا. وضعنا جهازًا للتنصّت على الهاتف في الشارع التاسع والخمسين طبعًا. لكنّني أخشى أنّه سيرسلك إلى كشك هاتف آخر، تمامًا كما فعل من قبل. لا يمكننا المجازفة بوضع ميكروفون في سيّارتك، لأنّه قد يخطّط للصعود معك فيها. سنضع عملاء في المباني المحيطة يستطيعون متابعة حركتك. وسنغطّي المنطقة بالسيّارات التي لن تدعك تبتعد عن أنظار مَن فيها، ثمّ نتّصل بسيّارات أخرى لتواصل المراقبة. لا تقلق، لن يظهر أنّنا نلاحقك، وسيسمح لنا الجهاز الطنّان في الحقيبة بتعقّبك ضمن مسافة مربّعات قليلة.

أطلّت دورا برأسها من باب غرفة المعيشة وقالت بصوت متهيّب: «معذرة». كان في سلوك هيو الفولاذيّ البارد ما يخيفها. لم تكن تحب إصراره على تفحّصهما، بيل وهي. أن يكون بيل محبًّا للخمر لا يعني أنّه ليس رجلًا صالحًا. كان جهد الساعات الأربع والعشرين الماضية أقوى من أن تتحمّله. السيّد بيترسون سيعيد نيل وشارون سالمين، كان عليها أن تصدّق ذلك. كان رجلًا طيّبًا جدًّا ولا يستحقّ أن يعاني أكثر ممّا عاناه في العامين الماضيين.

كما أنّها وبيل على وشك الرحيل، فقد حان الوقت للرحيل إلى فلوريدا. لم يعد عمرها وإحساسها بالتعب يسمحان لها بالاهتمام بطفل وبهذا المنزل. كان نيل بحاجة إلى شخص في مقتبل العمر، إلى شخص يمكنه محادثته. كانت تعلم أنّها تبالغ في الاهتمام به، ولا يفيد طفلًا أن يهبّ شخص إليه كلّما نشق بمنخريه.

أوه يا نيل. كم كان طفلًا سعيدًا حين كانت أمّه حيّة. لم يُصب حينذاك بنوبة ربو قطّ، ونادرًا ما أصابه الزكام. كانت عيناه الكبيرتان البنّيتان تلتمعان دائمًا، ولم تعرفا الشرود والحزن اللذين يظهران فيهما الآن.

يجب ألاّ يتأخّر السيّد بيترسون في الزواج. إن ليس بشارون، فبمَن تجعل من هذا المنزل منزلًا حقيقيًّا.

لاحظت دورا أنّ ستيف ينظر إليها نظرة تساؤل، وأنّها كلّمته. كلّ ما في الأمر أنّها لم تكن تستطيع العمل وسط هذا الشعور بالقلق، فلم يغمض لها جفن طوال الليل.

ماذا أرادت أن تقول له؟ نعم. فقالت:

– أيمكنني أن أعدّ لك وللسيّد تايلور شريحتَي لحم؟

– لا أريد يا دورا، شكرًا. ربّما السيّد تايلور...

– من فضلك، أعدّي لكلينا شريحة لحم يا سيّدة لوفتس.

وضع هيو يده على ذراع ستيف وقال له:

– اسمع، أنت لم تأكل شيئًا منذ الأمس، ولن تنام طوال الليل. يجب أن تبقى متيقّظًا لتستطيع قيادة السيّارة واتّباع التعليمات.

– أظنّك على حقّ.

ما كادا يصلان إلى طاولة غرفة الطعام حتّى رنّ جرس الباب. قفز هيو واقفًا وقال: «أنا سأجيب».

كوّم ستيف في يديه فوطة المائدة التي كان يوشك على وضعها في حجره. هل أتى الدليل الذي طلبه؟ هل سيسمع صوت نيل... وصوت شارون؟

عاد هيو يتبعه شابّ أسود الشعر. كان وجهه مألوفًا... طبعًا، إنّه كورنر، محامي الدفاع عن رونالد طومبسون. ذاك كان اسمه، روبرت كورنر. بدا مضطربًا، سيّئ المظهر قليلًا. كان معطفه مفتوحًا، وبزّته متغضّنة وكأنّه نام فيها. أمّا وجه هيو فكان غامضًا لا يُقرأ.

لم يعتذر بوب عن مقاطعته عشاءهما. قال:

– سيّد بيترسون، عليّ أن أكلّمك عن ابنك.

– ابني؟

شعر ستيف بنظرة التحذير التي أطلقها نحوه هيو. وكوّم يديه تحت الطاولة فأصبحتا قبضتين.

– ما به ابني؟

– سيّد بيترسون، أنا كنت محامي الدفاع عن رون طومبسون، وقد فشلت في مهمّتي.

– ليس خطأك أنّ رونالد طومبسون قد أدين.

قال ستيف ذلك وهو لا ينظر إلى الشابّ. بل خفض رأسه وحدّق في شريحة اللحم، فيما أخذت فقاقيع الدهن على أطرافها تتجمّد. دفع الشريحة بعيدًا. هل كان هيو على حقّ؟ هل كانت عمليّة الخطف خدعة في النهاية؟

– سيّد بيترسون، رون لم يقتل زوجتك. لقد أدين لأنّ معظم المحلّفين ظنّوا، في وعيهم أو لا وعيهم، أنّه قتل أيضًا الفتاة كارفولي والسيدة وايس.

– كان صاحب سجلّ...

– إنّها حادثة واحدة حين كان قاصرًا.

– هاجم فتاة من قبل، وهمّ بخنقها...

– سيّد بيترسون، كان فتى في الخامسة عشرة من عمره، في حفلة. وشارك في مسابقة لشرب الجعة. أيّ فتى لا يفعل ذلك في مرحلة ما من أعوامه في الثانويّة؟ وحين أخذه السكر تمامًا، دسّ له أحدهم الكوكايين. لم يكن يدري ما يفعل، وهو لا يتذكّر أبدًا أنّه لمس تلك الفتاة. كلّنا يعرف ما تأثير مزيج الكحول والمخدّرات في العقل. كان رون فتى سيّئ الحظّ بأن تورّط في مشكلة كبيرة في المرّة الأولى والوحيدة التي سكر فيها. حتّى أنّه لم يعد قطّ إلى شرب الجعة طوال عامين. كما عانى أيضًا الحظّ السيّئ على نحو لا يصدّق بأن دخل منزلك بعيد قتل زوجتك.

أضاف بوب بصوت مرتجف، وكلماته تخرج متسارعة:

– سيّد بيترسون، كنت أدرس نصّ المحاكمة. وأمس جعلتُ رون يردّد مرّة بد مرّة كلّ شيء قاله أو فعله بين حديثه إلى السيّدة بيترسون في متجر تيمبرلي وساعة عثوره على جثّتها. ولاحظتُ خطأً ارتكبتُه. أخبرك ابنك يا سيّد بيترسون، نيل، أنّه نزل من غرفته حين سمع شهيق زوجتك ورأى رجلًا يخنقها، ثمّ رأى وجه الرجل...

– وجه رونالد طومبسون.

– لا! لا! ألا تلاحظ؟ هاك، انظر إلى النصّ.

ألقى بوب بالحقيبة على الطاولة. ثمّ أخرج حزمة من الأوراق القانونيّة، وقلّبها بسرعة حتّى وصل إلى ورقة في نحو وسط الحزمة. وقال:

– ها هي. سأل المدّعي العامّ نيل عن سبب تأكّده من أنّه رون، فأجاب نيل: «لقد أضيء النور، لذلك أنا واثق.» لقد فاتني الأمر. فاتني

تمامًا. لأنّ رون، حين أعاد شهادته مرّة بعد مرّة أمس، قال إنّه رنّ جرس الباب الأماميّ، ثمّ انتظر دقيقتين ورنّه من جديد. لم يقل نيل كلمة واحدة عن سماعه أنغام الجرس. لم يُشر إلى الأمر قطّ.

قاطعه هيو قائلًا:

– هذا لا يثبت شيئًا. كان نيل في غرفته في الأعلى يلعب بقطاراته. لعلّه كان مأخوذًا بها ولعلّ صوت القطارات كان صاخبًا.

– لا... لا... لأنّه قال «لقد أضيء النور.» هذا ما أعنيه يا سيّد بيترسون. رنّ رون جرس الباب الأماميّ. ثمّ انتظر، ورنّه من جديد، وسار حول المنزل. فأعطى القاتل وقتًا ليهرب. لهذا السبب كان الباب الخلفيّ مفتوحًا. ألا ترى؟ أضاء رون مصباح المطبخ. وسبب رؤية نيل وجه رون بوضوح هو أنّ الضوء كان يأتي من المطبخ. سيّد بيترسون، هرع صبيّ صغير من غرفته في الطابق الثاني إلى الأسفل ليرى أمّه تُخنق. كانت غرفة المعيشة مظلمة، وقد تذكّر نيل هذا. وحده ضوء الردهة كان مضاءً. أليس من الممكن أنّه عانى صدمة ما؟ وأنّه ربّما غاب عن الوعي حتّى؟ يُعرف عن البالغين تعرّضهم لذلك. وحين دخل، رأى – رأى – لأنّ الضوء أتى آنذاك من المطبخ عبر غرفة المعيشة، رأى نيل شخصًا منحنيًا فوق أمّه، يعبث بعنقها. كان رون يحاول رفع المنديل لكنّ ذلك كان مستحيلًا لأنّه معقود بشدّة. أدرك أنّها قد ماتت وما سيبدو الأمر عليه من أنّه قاتِلها، فأصابه الهلع وهرب. لو أنّه قاتل، هل كان ليترك شاهدًا مثل نيل؟ هل كان ليترك السيّدة بيري حيّة مدركًا أنّها ربّما عرفته؟ فهي تتسوّق في متجر تيمبرلي. القاتل لا يترك شهودًا يا سيّد بيترسون.

مكتبة الرمحي أحمد

هزّ هيو رأسه وقال:

– هذه القصّة غير متينة، ولا تعدو كونها تخمينًا ولا دليل فيها.

قال له بوب متوسّلًا:

– لكنّ نيل يستطيع أن يعطينا الدليل. سيّد بيترسون، هل توافق على تنويم نيل مغنطيسيًّا؟ حدّثت اليوم عدّة أطبّاء، وقالوا إنّه بحال كان الصبيّ يخفي شيئًا فالتنويم المغنطيسيّ قد يستطيع كشفه.

صاح ستيف: «مستحيل!» ثمّ عضّ على شفته بعد أن كاد يقول له «لا يمكنك أن تنوّم مغنطيسيًّا صبيًّا مخطوفًا» وقال:

– اخرج. فقط اخرج من هنا.

– لا، لن أخرج.

تردّد بوب، ثمّ مدّ يده إلى حقيبته من جديد، وقال لبيترسون:

– آسف لأنني أريك هذه الصور، يا سيّد بيترسون. لم أرد ذلك، لكنّني كنت أتفحّصها. إنّها الصور التي التُقطت لهذا المنزل بعد الجريمة.

مدّ هيو يده إلى الصور وصاح:

– هل جننت؟ من أين لك بها؟ إنّها أدلّة تملكها الولاية.

– دعك من أين لي بها. انظر إلى هذه الصورة. انظر: هذا هو المطبخ. مصباح السقف بلا كرة زجاجيّة حوله، ما يعني أنّ الضوء ربّما كان قويًّا على نحو استثنائيّ.

فتح بوب باب المطبخ بقوّة، وكاد أن يُسقط أرضًا دورا وبيل لوفتس اللذين كانا واقفين خلفه. تجاهلهما وجرّ كرسيًّا إلى تحت ضوء السقف، وقفز عليها وفكّ الكرة الزجاجيّة بسرعة، فشعّ في الغرفة ضوء قويّ. عاد مسرعًا إلى غرفة الطعام وأطفأ مصباحها بسرعة، ثمّ أسرع إلى الردهة وأضاء مصباحها. وأخيرًا أطفأ مصابيح غرفة المعيشة. وقال:

– انظر... انظر إلى غرفة المعيشة. بات ممكنًا تمامًا الآن أن نرى ما فيها. والآن، انتظر.

عاد مسرعًا إلى المطبخ وأطفأ المصباح. جلس ستيف وهيو متسمّرين إلى المائدة وهما يراقبانه. كانت صورة جثّة نينا تحت يد ستيف. قال بوب بما يشبه التوسّل:

– انظر. حين ينطفئ ضوء المطبخ، تكون غرفة المعيشة شبه مظلمة. هب أنّك طفل ينزل على الدرج. رجّاء... قف في الردهة على منبسط الدرج، وانظر إلى غرفة المعيشة. ماذا رأى نيل؟ لم يرَ أكثر من طيف شخص يهاجم أمّه، فغاب عن الوعي. لم يسمع صوت جرس الباب قطّ. تذكّر هذا: لم يسمع صوت جرس الباب قطّ. هرب القاتل. حين رنّ رون جرس الباب، وانتظر ثمّ رنّه من جديد وسار حول المنزل، كان القاتل قد رحل. ولعلّ رون أنقذ حياة ابنك بمجيئه إلى هنا في ذلك اليوم.

تساءل ستيف في نفسه: هل هذا ممكن؟ هل من الممكن أن يكون ذلك الفتى بريئًا؟ وقف في الردهة وحدّق في غرفة المعيشة. ما القدر الذي رآه نيل؟ ألعلّه غاب عن الوعي لبعض الوقت؟

مرّ هيو بقربه في غرفة الجلوس، وأضاء مصباحًا ثمّ قال بصوت خالٍ من أيّ انفعال:

– هذا غير كافٍ. إنّه تخمين، مجرّد تخمين، ولا دليل يؤيّده.

– نيل هو مَن يستطيع إعطاءنا الدليل. إنّه أملنا الوحيد. سيّد بيترسون، أتوسّل إليك أن توافق على إخضاعه للاستجواب. كلّمت الدكتور مايكل لاين بالهاتف، وهو مستعدّ للقدوم هذا المساء لاستجواب نيل. إنّه من أطبّاء مستشفى «جبل سيناء» رجاءً يا سيّد بيترسون، امنح رون هذه الفرصة.

نظر ستيف إلى هيو، ورأى حركة رأسه الضعيفة التي تشير إليه بالرفض. إذا أقرّ بأنّ نيل مخطوف، فسيتمسّك المحامي بهذا العذر

ليشير إلى صلة الخطف بموت نينا. وهذا سيعني انتشار خبر الخطف، وقد يعني موت كلّ أمل باستعادة نيل وشارون حيّين. فقال ستيف:

– ابني ليس هنا... وردت تهديدات... إليّ... بسبب موقفي من عقوبة الإعدام. ولن أفشي لأحد بمكان وجود ابني.

– لن تفشي لأحد بمكان وجود ابنك! سيد بيترسون، إنّ فتى بريئًا في التاسعة عشرة من عمره سيموت غدًا لأجل جريمة لم يرتكبها!

أجاب ستيف بكلمات هادئة وسريعة:

– لا يمكنني أن أساعدك. اخرج من هنا. اخرج وخذ معك تلك الصور اللعينة.

أدرك بوب أن لا أمل له. سار في غرفة الطعام ودفع نصّ المحاكمة إلى داخل حقيبته، كما وضع فيها الصور. بدأ بإقفال الحقيبة، ثمّ عاد إليها وسحب نسخ الإفادات التي أعدّها رون في اليوم السابق، ورمى بها على الطاولة، ثمّ قال:

– اقرأ هذه الأوراق يا سيّد بيترسون. اقرأها وحاول أن ترى إذا كانت هذه كلمات قاتل. حُكم على رون بالإعدام بالكرسيّ الكهربائيّ لأنّ مقاطعة فايرفيلد روّعتها صدمة جريمتَي قتل كارفولي وو ايس كما جريمة قتل زوجتك. وقعت جريمتا قتل أخريان لامرأتين وحيدتين في سيّارتيهما على طرق موحشة في الأسابيع القليلة الماضية. أنت تعرف هذا. أقسم بالله على أنّ بين تلك الجرائم الأربع صلة، كما أقسم على أنّ لجريمة قتل زوجتك صلة ما بها. هؤلاء النساء خُنقن بمناديلهنّ أو بأحزمتهنّ. لا تنس ذلك. الفرق الوحيد هو أنّ القاتل ولسبب ما اختار المجيء إلى منزلك. لكنّ أولئك النساء كلهنّ متن بطريقة واحدة.

خرج بوب وأقفل خلفه الباب بقوّة. نظر ستيف إلى هيو، وطرح عليه سؤالًا فيه اتّهام:

– ماذا عن نظريّتك الآن؟ النظريّة القائلة إنّ للخطف صلة بتنفيذ حكم الإعدام غدًا؟

هزّ هيو رأسه بالنفي، وقال:

– نعرف فقط أنّ كورنر ليس جزءًا من أيّة مؤامرة، لكنّنا لم نشكّ قطّ في أنّه كان كذلك.

– هل من احتمال، أيّ احتمال على الإطلاق، بأن يكون على حقّ في مسألة موت نينا؟

– إنّه يتعلّق بحبال الهواء. كلّ ما قاله لا يعدو كونه تخمينًا. ليس سوى محامٍ يحاول إنقاذ موكّله.

– لو كان نيل هنا لسمحت لذلك الطبيب بمكالمته، وبتنويمه مغنطيسيًا إذا دعت الضرورة. لا تنفكّ الكوابيس تلاحقه منذ تلك الليلة، وفقط في الأسبوع الماضي عاد للحديث عنها.

– ماذا قال؟

– تحدّث عن أنّه خائف ولا يستطيع أن ينسى. وقد كلّمت في الواقع طبيبًا نفسيًّا أشار إليّ إلى أنّه ربما يكبت شيئًا. قل لي بصدق يا هيو، هل أنت مقتنع بأنّ رونالد طومبسون قتل زوجتي؟

هزّ هيو بكتفيه وأجاب:

– سيّد بيترسون، حين تكون الإثباتات واضحة تمامًا كما هي حالها في هذه القضيّة، من المستحيل الوصول إلى أيّ استنتاج آخر.

– لم تجب عن سؤالي.

– أجبت عنه بالطريقة الوحيدة التي أستطيع فيها الإجابة. رجاءً، لعلّ شريحة اللحم هذه لم تعد صالحة للأكل الآن. لكن، كل شيئًا.

ذهبا إلى غرفة الطعام. أكل ستيف قطعة من لفافة عجين ومدّ يده ليشرب القهوة. لكنّه رأى نصوص إفادة رون عند مرفقه، فأخذ الورقة الأولى، وبدأ يقرأ:

«كنت في حالة إحباط شديد لخسارتي وظيفتي، لكنني فهمت أنّ السيد تيمبرلي بحاجة إلى مَن يستطيع العمل ساعات أكثر. علمتُ أنّ وجودي في المنتخب الرياضيّ قد يساعدني على دخول الجامعة وربّما على نيل منحة. لذلك لم أستطع العمل أكثر. سمعت السيّدة بيترسون السيّد تيمبرلي. قالت إنّها آسفة وإنّني كنت دائمًا في غاية اللطف لأنّني أحمل أغراضها إلى السيّارة. سألتني عن الأعمال التي مارستها، فقلت إنني عملت في دهان المنازل في الصيف. كان ذلك حين خرجنا سائرين إلى السيّارة. قالت لي إنّ عائلتها انتقلت مؤخّرًا إلى منزل جديد وإنّ لديهم أعمال دهان كثيرة... داخل المنزل وخارجه... وسألتني القدوم لإلقاء نظرة على المنزل. كنت أضع البقالة في صندوق السيّارة. قلت لها إنّني أظنّه يوم سعدي، لأنّه وكما تقول أمّي دائمًا، فقد يتحوّل سوء الحظّ إلى حسن حظّ. ثمّ ضحكنا لأنّها قالت إنّه أيضًا يوم سعدها. على الأقلّ، صندوق السيّارة يتّسع لكلّ هذه البقالة. قالت إنّها تمقت حقًّا شراء البقالة، ولهذا السبب كانت دائمًا تشتري كمّيات كثيرة جدًّا دفعة واحدة. كانت الساعة الرابعة آنذاك، وبعدئذ...»

توقّف ستيف عن القراءة. يوم سعد نينا، يوم سعدها! دفع نصّ الإفادة بعيدًا.

رنّ جرس الهاتف، فقفز ستيف وهيو معًا. هرع ستيف إلى هاتف المطبخ فيما أسرع هيو إلى جهاز الهاتف في غرفة المكتب. قال ستيف بصوت حذر «ستيف بيترسون» راجيًا أن يكون خبرًا سارًّا.

– سيّد بيترسون، أنا الأب كينيدي من كنيسة سانت مونيكا. أخشى أنَ أمرًا غير اعتياديّ قد حدث.

أحسّ ستيف بأنّ عضلات حلقه قد أغلِقت، فبذل جهدًا ليتكلّم:

– ما الأمر يا أبتِ؟

– منذ عشرين دقيقة، حين قصدتُ المذبح للاحتفال بقدّاس المساء، وجدت رزمة صغيرة ملقاة عند باب الدير. دعني أقرأ لك ما كتب عليها حرفيًّا: «التسليم لستيف بيترسون في الحال. مسألة حياة أو موت.» وعليها رقم هاتفك، أهي دعابة ما؟

سمع ستيف بحّة صوته، وأحسّ بتصبّب العرق في يديه، وأجاب:

– لا... ليست دعابة، قد يكون الأمر مهمًّا. سآتي حالًا لاستلامها يا أبت، وأرجو منك عدم إخبار أحد بالأمر.

– طبعًا يا سيّد بيترسون. سأنتظرك في بيت الكاهن.

حين عاد ستيف إلى المنزل بعد نصف ساعة، كان هيو ينتظره ومعه المسجّلة. مالا متجهّمي الوجه فوق الآلة فيما بدأت تدور.

لم يسمعا لفترة سوى صوت خشن مكتوم، تلاه صوت شارون. شحب وجه ستيف، فأمسك هيو ذراعه. سمع الرسالة، كانت تكرّر الرسالة التي تلاها عليه الخاطف. ماذا عنت بأنّها كانت على خطأ؟ علامَ كان عليه أن يسامحها؟ توقّفت عن الكلام بشكل مفاجئ، وكأنّما مُنعت من إكماله. نيل... ذلك كان الصوت الخشن. إنّه صوت نيل يخنقه الربو. أصغى ستيف إلى صوت ابنه المتلعثم. كانت شارون تعتني به. لماذا ذكر أمّه؟ لماذا الآن؟

شدّ على قبضتيه حتّى أصبحت مفاصل أصابعه بيضاء اللون، فحملها إلى شفتيه حتّى يخنق الشهقات التي أحسّ بأنّها تهزّ صدره.

قال هيو: «هذا كلّ شيء.» ثمّ مدّ يده لتشغيل المسجّلة ثانية قائلًا: «سنسمع الشريط من جديد.» وآنذاك سُمع الصوت. كان صوتًا دافئًا، مليئًا بالحياة، موسيقيًا، مرحّبًا. كان يقول:

– كم هذا لطيف منك. تفضّل بالدخول.

قفز ستيف واقفًا فيما خرجت من شفتيه صرخة قلق.

صاح هيو: «ما الأمر؟ مَن هذه؟»

صرخ ستيف:

– ربّاه... ربّاه! هذه زوجتي... هذه نينا!

30

ركن هانك لامونت سيّارته أمام حانة «ميل تافرن» في جادّة فايرفيلد في كارلي. عاد الثلج للانهمار بقوّة وراحت عصفات الريح الشديدة تقذف به على الزجاج الأماميّ. ضاقت عيناه الكبيرتان البريئتا المظهر فيما راح يدرس داخل الحانة الضعيف الإنارة. بدا المكان خاليًا. لعلّ الطقس السيّئ أبقى الناس في منازلهم، إلّا أنّه استحسن ذلك لأنّ فرصة أكبر ستتسنّى له لمكالمة الساقي، وقد أمل أن يكون ممّن يحبّون الثرثرة.

ترجّل من السيّارة وأحسّ ببرودة الطقس الشديدة. كانت تلك ليلة سيّئة جدًّا. وسيكون من الصعب بعد قليل تعقّب سيّارة بيترسون. لعلّ السيّارات التي ستسير على الطريق ستكون قليلة جدًّا، لدرجة أنّها ستبرز للناظرين بوضوح تامّ.

فتح باب الحانة ودخلها، فأحسّ بهواء دافئ وملأت أنفه رائحة محبّبة من الجعة والطعام. فتح عينيه وأغمضهما مرّات ليتخلّص من الثلج ونظر نحو البار. كان أربعة رجال فقط يجلسون إليه. مضى نحوهم، وجلس على إحدى الكراسي العالية وطلب جعة ميتشلوب.

راح لامونت يشرب الجعة فيما نقّل عينيه بسرعة من جهة إلى أخرى. كان اثنان من الزبائن يشاهدان مباراة في الهوكي، وعند منتصف البار لفت نظر هانك رجل أنيق الملابس يشبه إداريّي الشركات، ذو عينين زائغتين. قال له الرجل، من غير داعٍ:

– أتوافق معي يا سيّدي على أنّ من دلائل العقل أن لا يقود رجل سيّارته مسافة عشرة أميال في طقس رديء كهذا، وأنّ الأنسب له أن يطلب سيّارة أجرة؟

أجاب هانك بودّ:

– أنت على حقّ يا سيّدي، لقد أتيت بسيّارتي من بيتربورو، وكانت الطرق سيّئة للغاية.

وابتلع رشفة كبيرة من الجعة.

كان الساقي يجفّف أكواب الشراب، فسأله:

– أنت من بيتربورو، لم أرَك هنا قطّ، أليس كذلك؟

– لا، أنا مارّ من هنا، ليس إلّا. أردتُ أن أستريح قليلًا فتذكّرتُ صديقي القديم بيل لوفتس. يقول إنّه عادة ما يكون هنا في مثل هذا الوقت.

قال الساقي موافقًا:

– نعم، بيل يأتي إلى هنا كلّ ليلة تقريبًا، لكنّ الحظّ قد لا يحالفك اليوم. لم يأتِ أمس لأنّه صحب زوجته لمناسبة عيد زواجهما إلى العشاء خارج المنزل، ثم إلى السينما. خلنا أنّه قد يوصلها إلى المنزل ثمّ يأتي لشرب كأس لكنّه لم يأت قطّ. من المفاجئ حقًّا أنّه لم يأتِ هذا المساء أيضًا، إلّا إن عادت إلى تقريعه. وإن عادت إلى ذلك، فسنسمع الخبر، أليس كذلك يا آرتي؟

التفت الزبون الآخر الجالس وحيدًا إلى كوب جعة إلى الساقي وأجاب:

– سيدخل الخبر من أذن ليخرج من الأخرى، من يرغب في سماع أخبار كتلك؟

ضحك هانك وقال:

– ما جدوى الحانة إن لم يستطع المرء التذمّر فيها بحرّية؟

أطفأ مشاهدا مباراة الهوكي التلفزيون وعلّق أحدهما قائلًا: «مباراة فاشلة». فأجابه الآخر موافقًا: «تافهة.»

قال الساقي وهو يشير برأسه إلى هانك: «هذا الرجل صديق لبيل لوفتس».

قال الرجل الأطول قامة: «ليس واتكنز.»

أجاب هانك كاذبًا: «بيت ليرنر.»

تطوّع الرجل البدين بالكلام وقال: «جو رينولدز. ما عملك يا بيت؟»

– أعمل في شركة توريد لمستلزمات السمكرة في نيوهامبشاير، وأذهب إلى نيويورك لشراء بعض العيّنات. ما رأيكم في أن أقدّم للجميع الجعة على حسابي؟

مرّت ساعة. عرف هانك خلالها أنّ ليس وجو يعملان بائعين في متجر «موديل» للحسومات في الطريق 7، وأنّ آرتي يصلح سيّارات. أمّا الرجل الأصلع ذو مظهر الإداريّين ويدعى ألن كروغر، فيعمل في وكالة إعلانات.

حال الطقس دون حضور عدد من الزبائن الدائمين، مثل بيل فينيلي أو دون برانيغان. عادة ما كان تشارلي بينشر يمرّ بالحانة، لكنّه

وزوجته ناشطان في فرقة ممثّلين مسرحيّين، ولعلّهما يتمرّنان على مسرحيّة جديدة.

وصلت سيّارة الأجرة التي ستقلّ كروغر. وكان ليس سيوصل جو إلى منزله، فطلبا فاتورتهما. نهض آرتي للانصراف، أبعد الساقي ماله وقال له: «هذا الكوب على حسابي، سنشتاق إليك».

قال ليس:

– هذا صحيح، حظًّا سعيدًا يا آرتي. أطلعنا على أحوالك.

– شكرًا. إذا لم ينجح الأمر، سأعود وأستلم العمل لدى شو، فهو لا ينفكّ يلاحقني للعمل معه.

قال ليس:

– لماذا لا يفعل؟ إنّه يعرف ميكانيكيًّا جيّدًا.

سأله هانك:

– أين تذهب؟

– إلى رود آيلاند... في بروفيدانس.

علّق جو قائلًا:

– مؤسف أنّه لم تتسنّ لك فرصة توديع بيل.

ضحك آرتي مستهزئًا وقال:

– رود آيلاند ليست أريزونا. سأعود. الأجدى بي أن أنام قليلًا، يجب أن أنهض باكرًا في الصباح.

سار ألن مترنّحًا نحو الباب، وقال:

– أريزونا، وطن «الصحراء المرسومة».

خرج الرجال الأربعة معًا، فدخلت عصفة ريح شديدة القوّة إلى الحانة. تمعّن هانك في آرتي أثناء خروجه، ثمّ سأل الساقي:

– هل آرت صديق مميّز لبيل لوفتس؟

هزّ الساقي رأسه بالنفي وقال:

– لا، كلّ إنسان ذي حاسّة سمع صالحة هو صديق لبيل بعدما يشرب كوبَي جعة بالويسكي. لا شكّ بأنّك تعرف ذلك. أدرك الرجال أنّ زوجة بيل تثرثر في أذنه طوال اليوم، ويأتي هو ليلًا ليثرثر في آذان الجميع.

– فهمت.

دفع هانك كوبه عبر البار، وقال للساقي:

– اشرب كوبًا.

– لا أمانع ذلك. في العادة لا أشرب إذا كانت الحانة مزدحمة، لكنّها خالية تمامًا. إنّها ليلة سيّئة جدًّا، وتثير القشعريرة. أظّن الجميع يشعر بهذا. ذلك الفتى طومبسون... أمّه تسكن على مسافة قريبة من منزلي.

ضاقت عينا هانك، وقال:

– هذا ما يحدث لمَن يقتل الآخرين.

هزّ الساقي رأسه، وقال:

– معظمنا لا يسعه أن يتخيّل أنّ ذلك الفتى قد يقتل إنسانًا. طبعًا، لقد تمادى ذات مرّة، لذا فكلّ شيء ممكن. يقولون إنّ بعض أشدّ القاتلين وحشيّة هم أناس عاديّون جدًّا في ما يظهر من حياتهم.

– هذا ما أسمعه.

– تعرف، بيل وزوجته يقطنان في منزل المرأة القتيلة... منزل آل بيترسون.

– نعم، أعلم هذا.

– كان وقع الأمر شديدًا عليهما. عملت دورا لوفتس لدى عائلة بيترسون لسنوات. ويقول بيل إنّ الطفل بات أشبه بشبح لنفسه، ويبكي كثيرًا ويعاني الكثير من الكوابيس.

عقّب هانك موافقًا: «هذا أمر صعب.»

– بيل وزوجته يريدان حقًّا الذهاب إلى فلوريدا، لكنّهما يلازمان المنزل على أمل أن يتزوّج والد بيل. إنّه على علاقة بكاتبة جميلة على حدّ قول بيل. كانت تنوي المجيء إلى المنزل مساء أمس.

– حقًّا؟

– نعم. الصغير غير متحمّس لها، ولعلّه يخشى حلولها محلّ أمّه. هذه حال الصغار.

– أظنّ ذلك.

– الوالد هو رئيس تحرير مجلّة «الأحداث»، تلك المجلّة الحديثة التي لا يزيد عمرها عن عامين. أظنّه بذل فيها الكثير من المال، فقد رهن منزله مرّة ثانية، وقيّد نفسه بالتزامات كثيرة، لكنّ أحواله الآن تتحسّن. أظنّني سأبدأ بإقفال الحانة، من المؤكّد أنّ أحدًا آخر لن يأتي هذا المساء. أتريد كوبًا آخر؟

فكّر هانك، كان بحاجة إلى أجوبة، ولم يكن هناك مزيد من الوقت لهدره. وضع كوبه من يده، ومدّ يده إلى محفظته، وأظهر شارته وقال: «مكتب التحقيق الفدراليّ».

عاد بعد ساعة إلى منزل بيترسون. وبعدما اختلى بهيو اتّصل بمركز مكتب التحقيق الفدراليّ في مانهاتن. تأكّد من أنّ باب غرفة المكتب مقفل وراح يتكلّم بصوت خافت عبر الهاتف:

– كان هيوغي على حقّ. بيل لوفتس ثرثار كبير. كلّ مَن في حانة «ميل تافرن» عرف أنّه والسيّدة لوفتس سيغادران المنزل ليلة

الأمس، وأنّ بيترسون يعقد اجتماعًا متأخّرًا، وأنّ شارون مارتن ستأتي إلى المنزل. أعطاني الساقي لائحة بعشرة زبائن دائمين يكلّمون بيل دائمًا. بعضهم كان هناك هذا المساء، وبدوا كلّهم لا غبار عليهم. لكنّ بوسعكم التحقيق في أمر تشارلي بينشر. هو وزوجته يعملان في فرقة مسرحيّة، لعلّ أحدهما قادر على تقليد صوت سمعه منذ أعوام. وهناك آرتي تاغرت الذي سيرحل غدًا إلى رود آيلاند. يبدو رجلًا غير مؤذٍ. وبائعان: ليس واتكنز وجاي رينولدز... لستُ لأضيّع الوقت عليهما. هذه هي بقيّة الأسماء.

حين انتهى من لائحة الأسماء، أضاف:

– هناك أمر آخر. بيل لوفتس أخبر جميع مَن في الحانة أمر حساب الائتمان الخاصّ بنيل منذ أقلّ من شهر، بعد أن استرق السمع إلى حديث بيترسون مع محاسبه. أي أنّ جميع من يرتادون حانة «ميل تافرن»، والله يعرف مَن أيضًا، باتوا على علم بالموضوع. حسنًا، سأبدأ بالكاسيت. هل اتّصلت بجيم أوينز؟

أقفل الخطّ وخرج مفكّرًا من غرفة المعيشة. كان هيو تايلور وستيف يتكلّمان بصوت خافت، وكان ستيف يرتدي معطفه. كانت الساعة تقارب منتصف الليل وقد حان الوقت ليذهب إلى موعده مع فوكسي.

31

كانت لالي شديدة الاستياء من مسألة الدخلاء في غرفتها لدرجة أنّها، وحين التقت روزي في قاعة الانتظار الرئيسيّة، باحت لها بالحكاية في الحال، وسرعان ما ندمت على ذلك. أنهت حديثها قائلة بنبرة واهية: «إنّه مكان مميّز بالنسبة إليّ.» وفكّرت: ماذا ستقول الآن إذا أرادت روزي أن تقاسمها إيّاها؟ لا تستطيع السماح لها بذلك، لا تستطيع. لكن قلقها كان بغير داع، فقد سألتها روزي، غير مصّدقة:

– أتعنين أنّك تنامين في «سينغ سينغ»؟ لن تستطيعي اقتيادي ولو بالقوّة إلى هناك. تعرفين كم أكره القطط.

طبعًا، لم يخطر ذلك ببال لالي قطّ. كانت القطط تثير رعب روزي، التي قد تجتاز الشارع لتتجنّب المرور بإحداها.

قالت لالي: «أنت تعرفينني، أنا أحبّها. تلك المخلوقات المسكينة تجوع كثيرًا.» وأضافت مبالِغة: «بات التّسلّل في ذلك النفق أكثر تسبّبًا بالانزلاق ممّا كان عليه في أيّ وقت مضى.» فأخذت روزي قشعريرة. ختمت لالي كلامها قائلة:

– أظنّ أنّ الاثنين يقيمان هناك. وحين يخرج، سأخيف الفتاة فترحل.

فكّرت روزي مليًّا، ثمّ قالت:

– افترضي أنّك ارتكبت خطأ، افترضي أنّه كان هناك. تقولين إنّه يبدو شرّيرًا.

– أكثر من شرّير. ربّما، ربّما تستطيعين مساعدتي على مراقبته.

كانت روزي تحبّ المؤامرات، فابتسمت ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان مكسّرة صفراء، وقالت: «طبعًا».

أنهتا القهوة، ووضعتا بعناية بقايا قطع الدونات في أكياسهما، ومضتا إلى الطابق الأسفل. قالت لالي مستاءة: «قد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.» فأجابتها روزي: «غير مهمّ، سوى أنّ أولندورف يعمل اليوم.»

كان أولندورف أحد الحرّاس الأكثر صرامة. لم يكن يحبّذ ترك النزلاء الدائمين في المحطّة، فكان يطاردهم بلا توقّف ويراقبهم ليتأكّد من أنّهم لا يستعطون أو يرمون الأوساخ.

بشيء من التوتّر، وقفت المرأتان بقرب واجهة «الكتاب المفتوح». مرّ الوقت، وهما تنتظران بصبر، بدون حراك تقريبًا. أعدّت لالي حكاية تقولها لأولندورف إذا ما أتى إليهما. ستقول له إنّ صديقتها آتية إلى نيويورك، وقد وعدتها بلقائها في هذا المكان. لكنّ الحارس تجاهلهما وبدأت قدما لالي وساقاها تنتفضان تعبًا. كانت على وشك أن تقترح على روزي إنهاء المراقبة حين صعد عدد من الأشخاص درج منصّة ماونت فرنون. كان أحدهم ذا شعر أسود، ويمشي متصلّبًا. فتمسّكت بذراع روزي وصاحت: « هذا هو. انظري، إنّه يتّجه إلى الدرج، ويرتدي معطفًا بنيًّا وسروالًا أخضر.

ضاقت عينا روزي وقالت: «نعم، رأيته».

قالت لالي مبتهجة: «الآن يمكنني النزول.»

بدت روزي مشكّكة فأجابتها:

– لا أنصحك بذلك بوجود أولندورف في المكان، لستُ لأفعل ذلك. منذ قليل فقط نظر إلى هنا.

لكنّ إقناع لالي لم يكن ممكنًا. انتظرت حتّى رأت أولندورف ينصرف في ساعة الغداء، ثمّ انسلّت متّجهة إلى المنصّة. كان قطار الثانية عشرة وعشر دقائق يمتلئ، وعلمت أنّها لم تكن مثيرة جدًّا للشبهات. توارت متّجهة إلى الناحية الأخرى من السكّة، وسارت على المنحدر بأسرع ما تسمح به ركبتاها المصابتان بداء المفاصل. كانت حقًّا لا تشعر أنّها بصحّة جيّدة، فهذا الشتاء كان الأقسى عليها على الإطلاق، وقد امتدّ داء المفاصل إلى ظهرها وعقبيها، فباتت تحسّ بالألم الشديد في جسدها كلّه. كانت تتحرّق إلى أن تستلقي وتستريح على سريرها. في الدقيقتين المقبلتين، ستكون قد طردت الفتاة من هناك. كانت تنوي أن تقول لها: «آنستي، أفراد الشرطة أذكياء، وهم آتون لاعتقالك. اخرجي وأنذري صديقك.» تلك الكلمات كانت ستفي بالغرض.

تجاوزت مولّد الكهرباء، ودارت حول أنابيب المجارير. بدا النفق مظلمًا وساكنًا في أقصى المنطقة. رفعت عينيها ونظرت إلى باب غرفتها وابتسمت فرِحة. سارت ثماني خطوات أخرى فصارت عند قاعدة السلّم المفضي إلى الغرفة. علّقت حمّالتي كيسها بذراع واحدة، وبحثت عن مفتاحها فأخرجته من جيبها. وباليد الأخرى، تمسّكت بحاجز السلّم وراحت تشدّ نفسها لتصعد الدرجات الشديدة الزاوية.

– أين تظنّين نفسك ذاهبة يا لالي؟

كان الصوت حادًّا. صدرت عن لالي صرخة فزع وكادت تتعثّر وتسقط إلى الوراء. استعادت توازنها، واستدارت، وهي تحاول كسب الوقت، لتواجه الشرطيّ أولندورف الذي وقف مهدّدًا. إذًا، فقد كان يراقبها كما حذّرتها روزي، وحاول خداعها بزعمه الانصراف إلى الغداء. تركت مفتاحها ينزلق إلى الكيس. هل رآه؟

– سألتك أين تذهبين يا لالي.

كانت المولّدات الكهربائيّة تخفق بالقرب منها، وسُمع صوت صرير مسرع فيما دخل قطار محطّة في مكان ما فوقهما. وقفت صامتة عاجزة.

ثمّ سُمع من زاوية مظلمة صوت بصق حادّ ومفاجئ، ومواء مزمجر، فالتمعت فكرة في رأس لالي. «القطط!» وأشارت بيد مرتجفة إلى الأشكال الهزيلة التي تتحرّك. أضافت: «إنّها تتضوّر جوعًا، أردت أن آتيها بطعام، وكنت أخرجه من الكيس لتأكل.» ثمّ سحبت بحماسة الفوطة المضمومة والتي تحوي بقايا الدونات.

نظر الحارس إلى الفوطة المشبعة بالدهن باشمئزاز، لكنّ نبرة صوته كانت أقلّ عدائيّة حين عاد للكلام.

– أنا أيضًا أشعر بالأسف لأجلها، لكن لا شأن لك هنا. ارمي هذا الطعام لها وارحلي.

انتقلت عيناه منها إلى السلّم، وصعدت لتتوقّف في نظرة تفكير عند باب غرفتها. كان قلب لالي يخفق بشدّة. حملت كيسها ومضت إلى القطط، ورمتها بالبقايا القليلة، وشاهدتها تتقاتل للفوز بها.

قالت له بصوت مهادن: «أترى كم هي جائعة؟ ألديك هررة في المنزل يا سيّد أولندورف؟» كانت تغادر المكان راغبة في أن يتبعها.

ماذا لو أنّه استعمل مفتاحه المشترك ليتفقّد غرفتها؟ إذا وجد الفتاة، فمن المؤكّد أنّهم سيغيّرون قفل الباب، وقد يركّبون قفلًا إضافيًّا.

تردّد قليلًا، ثمّ هزّ كتفيه وقرّر أن يتبعها. أجابها:

– كان لديّ هررة، لكنّ زوجتي لم تعد ترغب في اقتنائها، بعدما فقدنا الهرّة التي كانت مولعة بها.

عادت لالي بأمان إلى غرفة الانتظار، وقلبها لا يزال يخفق بشدّة. حسمت أمرها: لن تقترب من ذلك المكان مجدّدًا قبل المساء حين يعود أولندورف إلى منزله. وشكرت حظّها على أنّ القطط تقاتلت، ثمّ مضت إلى سلّة مهملات وأخذت منها نسخة مستعملة من مجلّة «الشعب»، والجزء المتجعّد الأوّل من «صوت القرية».

32

علم نيل أنّ شارون مصابة، ولم يصدّقها حين قالت له إنّها وقعت. لا بدّ من أنّ الرجل دفعها أرضًا. أراد أن يكلّمها لكنّ الكمامة المشدودة جدًّا على وجهه منعته. أراد أن يقول لشارون كم هي شجاعة لمحاولتها مقاتلة ذلك الرجل، وهو الذي خاف كثيرًا أن يقاتله حين كان يؤذي أمّه. لكن حتّى شارون التي كادت توازي الرجل طولًا لم تكن قويّة كفاية لتتغلّب عليه.

أخبرته شارون أنّها ستحاول الحصول على مسدّس الرجل، وقالت له:

– لا تخف إذا سمعتَني أقول إنّني سأتركك. لن أتركك، لكن إذا استطعت الحصول على مسدّسه فقد نرغمه على إخراجنا من هنا. كلانا ارتكب خطأ، ونحن الوحيدان القادران على إنقاذ رونالد طومبسون.

حين حاولت أن تتكلّم بدا صوتها مضحكًا ومهمهمًا، وكذلك كان صوته، لكنّه استطاع أن يخبرها الأمر... كيف قالت له ساندي إنّه كان عليه أن يساعد أمّه، وكيف ما انفكّ يحلم بذلك اليوم وكيف سأله الأولاد عمّا إذا أراد لرونالد طومبسون أن يُشوى.

برغم صعوبة الكلام بوجود الكمامة، فقد سهل عليه التنفّس بعدما تكلّم. أدرك ما تعنيه شارون. سيقتلون رونالد طومبسون بسبب موت أمّه، وهو ليس قاتلها. لكنّ نيل قال إنّه قتلها. لم يرد نيل أن يكذب، هذا ما حاول أن يقوله لأبيه في الرسالة.

كان عليه الحذر والتنفّس ببطء من أنفه، وألاّ يخاف أو يبكي، لأنّه آنذاك لن يستطيع أن يتنفّس. كان البرد قارسًا وأحسّ بألم شديد في ذراعيه وساقيه. لكن برغم ذلك فإنّ شيئًا ما بداخله توقّف عن الشعور بالألم. ستجد شارون طريقة لإخراجهما من هنا وإبعادهما عن هذا الرجل ليقولا إن رونالد بريء، أو ربّما سيأتي أبوه لإنقاذهما. كان نيل متأكّدًا من ذلك.

كان يحسّ بأنفاس شارون على خدّه، فرأسه تحت ذقنها تمامًا. وكان يصدر عنها صوت طريف أحيانًا وكأنّ شيئًا ما يؤلمها. لكنّ التصاقه بها كان يُشعره بالارتياح، تمامًا كما حين كان صغيرًا فيستيقظ في منتصف الليل أحيانًا بعدما يكون قد رأى حلمًا سيّئًا ويدخل السرير مع أبيه وأمّه. آنذاك كانت أمّه تشدّه إليها وتقول له بصوت نعسان «كفى هزًّا»، فيعود إلى النوم وهو ملتصق بها.

سيعتني به أبوه وشارون. اقترب نيل قليلًا من شارون، وتمنّى لو أنّه يستطيع أن يقول لها ألاّ تقلق بشأنه وإنّه سيتنفّس أنفاسًا طويلة وبطيئة من أنفه. آلمته ذراعاه كثيرًا. أبعد بحزم تلك الفكرة من رأسه، وقرّر التفكير بشيء جميل... الغرفة في الطابق الثالث، وقطارات ليونيل التي ستعطيه إيّاها شارون.

33

– بالله عليك يا عزيزتي، كاد الليل ينتصف. توقّفي.

نظر روجر عاجزًا إلى غلندا تهزّ رأسها غير موافقة. وأثار خوفه أن يرى قارورة حبوب النيتروغليسرين على طاولة سريرها شبه فارغة، وهي كانت ملأى صباح هذا اليوم.

– لا، سأنجح، أعرف أنّني سأنجح. روجر... اسمع... لنجرّب هذا الأمر. سأقول لك كلّ ما فعلته خلال الشهر الماضي. أعود إلى الماضي يومًا بعد يوم لكنني ما زلت أغفل شيئًا، ربّما إذا أخبرتك إيّاه...

عرف أنّ الاحتجاج لن يجدي نفعًا. فقرّب كرسيًّا من السرير وجلس واستعدّ للتركيز. كان رأسه يختلج، فالطبيب عاد واستشاط غيظًا لأنّ غلندا تعرّض نفسها لهذا القدر من الاستياء. طبعًا لم يكونا قادرين على شرح سبب اضطرابها الشديد هذا.

أراد الطبيب أن يحقنها حقنة قويّة لكنّ روجر عرف أنّها لن تسامحه أبدًا إذا وافق على الحقنة. نظر إليها آنذاك ورأى شحوب لونها القريب من لون الرماد، وشفتيها اللتين اختلط فيهما اللونان الأحمر والأزرق في إشارة واضحة إلى حالتها، وفكّر في يوم خضعت لجراحة القلب. قال له الطبيب يومذاك:

– نبذل كلّ ما بوسعنا يا سيّد بيري... الحالة حرجة جدًّا... ربّما من الحكمة أن ترسل في طلب ولديك...

لكنّها نجت. صلّى روجر: «ربّاه، لو كانت تعرف شيئًا، فدعها تتذكّره.» إذا مات نيل وشارون، وشعرت غلندا بعد ذلك أنّه كان ممكنًا أن تنقذهما، فسيقتلها ذلك.

بمَ يشعر ستيف الآن؟ لن يلبث أن يذهب إلى نيويورك ومعه مبلغ الفدية.

أين والدة رونالد طومبسون الآن؟ فيمَ تفكّر؟ هل تعرف هذا القلق العقيم عينه؟ طبعًا تعرف.

ماذا عن شارون ونيل؟ هل يشعران بالرعب؟ هل تعرّضا لاعتداء؟ ألا يزالان حيّين أم أنّ الأوان قد فات؟

ورونالد طومبسون. خلال المحاكمة، لم يستطع روجر سوى أن يفكّر في مدى شبهه بتشيب ودوغ في مثل سنّه. كان ولداه في عامهما التاسع عشر طالبين في سنتهما الجامعيّة الثانية. تشيب في هارفرد ودوغ في جامعة ميتشغن. ذاك هو مكان الشبّان في عامهم التاسع عشر... الجامعة، لا زنازين السجون في انتظار حكم الإعدام.

قالت غلندا بصوت ثابت على نحو لافت:

– روجر، هلاّ ترسم جدولًا زمنيًّا لكلّ يوم... الساعة التاسعة، الساعة العاشرة... وما إلى ذلك، فهذا سيساعد على تحديد ما لا أجده. في مكتبي دفتر.

سار إلى المكتب وأتى بالدفتر. قالت:

– حسنًا، أنا متأكّدة من الأمس ومن الأحد، لذا لن نضيّع الوقت عليهما. لنبدأ بيوم السبت الماضي...

34

– أما من أسئلة يا سيّد بيترسون؟ هل أنت واثق من أنّك تعرف ما عليك القيام به؟

كان هيو وستيف في الردهة. وبيد ستيف الحقيبة الضخمة التي تحتوي مبلغ الفدية.

– أظّن ذلك.

كان صوت ستيف معتدلًا، يكاد يكون رتيبًا. في خلال الساعات الماضية، تراجع التعب، وحلّ محلّه شعور غامر بالخدر، شلّ في جسده الألم والقلق. كان يستطيع التفكير بوضوح، بشكل يكاد يكون مجرّدًا، وكأنّه يقف على تلّة عالية ويشرف على دراما، مشاهدًا ومشاركًا في آن واحد.

– حسنًا، قل لي ما عليك أن تفعل.

أدرك هيو الإشارات في تعابير الرجل الآخر. بيترسون يقترب من حافّة الانهيار العاطفيّ. آنذاك كان في نوع من الصدمة طبعًا، ومسألة تقليد صوت زوجته كانت الحدّ الفاصل، ولم ينفكّ المسكين عن الإصرار على أنّه صوتها. يا لها من طريقة رخيصة وخرقاء لمحاولة

ربط الخطف بموت نينا بيترسون. كما أنّ هيو لاحظ أمرين آخرين: أن تطلب شارون من ستيف مسامحتها... وقول نيل «شارون تعتني بي.» ألم تكن تلك إشارة إلى أنّ عمليّة الخطف كاذبة؟

هل كانت كذلك؟ لعلّ جيم أوينز يستطيع مساعدته. لقد عثروا عليه وسيلتقي هيو في مركز مكتب التحقيق الفدراليّ في نيويورك.

قال ستيف:

– سأذهب توًّا إلى كشك الهاتف في الشارع التاسع والخمسين. إذا وصلت باكرًا أجلس منتظرًا في السيّارة حتّى ما قبل الثانية صباحًا بقليل، ثم أخرج من السيّارة وأقف في الكشك. قد يسألني الذهاب إلى هاتف آخر، فأذهب إلى هناك. آمل أن يكون بيننا اتّصال مباشر حينذاك وأسلّم الخاطف الحقيبة. بعدما أتركه، أقود السيّارة إلى مركز مكتب التحقيق الفدراليّ عند تقاطع الشارع التاسع والستّين والجادّة الثالثة. ستكون في انتظاري لأخذ الكاميرات من السيّارة وتظهير الفيلم.

– هذا كلّ شيء. سنتعقّبك عن مسافة ما. الجهاز الطنّان في سيّارتك سيبقينا على اطّلاع على تحرّكاتك. أحد رجالنا ينتظر ليتبعك في الطريق للحرص على ألاّ يعيقك أو يؤخّرك شيء ما.

مدّ هيو إليه يده مصافحًا وقال:

– سيّد بيترسون... حظًّا سعيدًا.

– حظّ؟

قال ستيف الكلمة بتعجّب وكأنّه يسمعها للمرّة الأولى. ثمّ عقّب قائلًا:

– لم أفكّر بالحظّ بقدر ما فكّرت بلعنة قديمة من وكسفورد، ألعلّك تعرفها؟

– لا أظنّ ذلك.

– لا أتذكّرها كلّها، لكنّها تشبه شيئًا كهذا: «ليبنِ الثعلب وكره فوق منزلك، ليتلاشَ الضوء من عينيك حتّى لا ترى أبدًا ما تحبّه. ليكنَ مرّ الأسى أحلى شراب تشربه...» هناك المزيد، لكنّ ما قلته يوجز اللعنة. إنّها مناسبة، أليس كذلك؟

انصرف ستيف بدون أن ينتظر جوابًا. نظر هيو إلى سيّارة المركوري تنطلق من أمام المنزل، وتستدير يسارًا نحو الطريق العامّ. ليبنِ الثعلب وكره فوق منزلك. كان الله في عون هذا الرجل بيترسون. هزّ هيو رأسه محاولًا التخلّص من الشعور بالهلاك الوشيك والذي لا يفارقه، وأخذ معطفه. لم يكن أمام المنزل أيّ من سيّارات مكتب التحقيق الفدراليّ، لأنّ هيو والعملاء الآخرين يخرجون من الباب الخلفيّ عبر الغابة التي تقلّ مساحتها عن الهكتار، والقريبة من منزل ستيف. كانوا يركنون سيّاراتهم في الطريق الضيّق الذي شُقّ في الغابة عند مدّ شبكة الصرف الصحّي، حيث لا يشاهدهم أحد من الشارع.

لعلّ جيم أوينز يستطيع فهم شيء ما من الكاسيت التي أرسلها الخاطف. كان أوينز عميلًا متقاعدًا أصابه داء الزَّرَق بالعمى قبل عشرين عامًا، فطوّر حاسّة سمعه بقوّة كبيرة لدرجة أنّه كان يستطيع تفسير أصوات الخلفيّات في التسجيلات بدقّة لافتة. وكانوا يستدعونه كلّما برز في قضيّة ما هذا النوع من الأدلّة. طبعًا، كانوا لاحقًا يُخضعون الكاسيت للاختبارات العاديّة في المختبر لكنّ ذلك يستغرق أيّامًا.

من دون تفسير للأسباب، سأل هيو ستيف عن خلفيّة نينا: عائلتها من الجيل الرابع في منطقة ماين لاين في فيلادلفيا. ارتادت مدرسة داخليّة سويسريّة تدعى «برين مور كوليدج» ويمضي والداها

معظم وقتهما حاليًا في منزلهما في مونتي كارلو. يتذكّر هيو لقاءهما في جنازة نينا، فقد أتيا لحضور الجنازة والدفن، نادرًا ما وجّها كلمة إلى ستيف... كانا شخصين باردين وخاليين من المشاعر.

لكنّ تلك المعلومات كانت كافية لكي يقدّم أوينز رأيًا دقيقًا حول ما إذا كان ذلك الصوت هو صوت نينا حقًّا أم تقليدًا له. كان لهيو بعض الشكّ بالنتيجة.

رُشّ الرمل على طريق ميريت العامّ، وبرغم أنّ الثلج لا يزال يتساقط، فقد كانت القيادة عليه أفضل ممّا توقّع ستيف. خشي أن يلغي الخاطف اللقاء إذا ما كانت حال الطرقات خطرة، لكنّه تأكّد الآن من أنّهما سيلتقيان بطريقة ما.

تساءل ستيف عن استفسار هيو حول خلفيّة نينا. أراد فقط معرفة وقائع أساسيّة قليلة: «أيّة مدرسة ارتادت زوجتك يا سيّد بيترسون، أين تربّت؟» لقد ذهبتْ إلى مدرسة «برين مور». التقيا حين كانا طالبين جامعيّين. كان هو في جامعة برينستون، واشتعل بينهما حبّ من النظرة الأولى، سخيف لكنّه حقيقيّ.

عائلتها من الجيل الرابع في منطقة ماين لاين في فيلادلفيا. وقد استهجن الوالدان اختيارها إيّاه للزواج، فقد أراداها أن تتزوّج «رجلًا من معدنها»، كما قالا. أرادا شخصًا من عائلة راقية وذا مال وخلفيّة ثريّة من شرق الولايات المتّحدة، لا طالبًا فقيرًا يعمل نادلًا في فندق «ناسو إن» ليتدبّر منحته الجامعيّة، تخرّج من ثانويّة كريستوفر كولومبوس في منطقة «برونكس».

ربّاه، كم كانا مخيفين حين بدأت علاقته بنينا. قال لها: «كيف لك أن تكوني ابنتهما؟» كانت نينا طريفة جدًّا ولامعة جدًّا وغير

مدّعية أبدًا. تزوّجا بعد التخرّج مباشرة، ثمّ دخل الجيش وأوكِلت إليه مهمّة قيادة عسكريّة وأرسِل إلى فييتنام. لم يتقابلا طوال عامين، وفي النهاية نال مأذونيّة وتقابلا في هاواي. كانت في غاية الجمال، وهي تهبط سلّم الطائرة وتتعثّر لتسقط بين ذراعيه.

بعد تسريحه من الجيش، ارتاد جامعة كولومبيا للحصول على شهادة الماجستير في الصحافة. ثمّ وجد له وظيفة في مجلّة «تايم»، وانتقلا للعيش في كونكتيكت حيث حملت بنيل.

ابتاع لها سيّارة «كارمان غيا» بعد ولادة نيل وكان المرء ليظنّها سيّارة «رولز رويس»، التي كان والدها يملكها طبعًا.

باع سيّارة نينا بعد الجنازة بأسبوع. كان مستحيلًا أن يراها مركونة بالقرب من سيّارته المركوري في المرآب. تلك الليلة حين عاد إلى المنزل ليجد أنّها ماتت، سار إلى السيّارة، آملًا عكس الأمل. «تهوّرك سيتسبّب بقتلك!» لكنّ الإطار الجديد عاد إلى العجلة الأماميّة، وكان الإطار الاحتياطيّ الذي حفا في الصندوق. لو لم تكلّف نفسها عناء تغييره يومذاك، لَعنى ذلك أنّها لم تأخذ سخطه على محمل الجدّ.

«نينا، نينا، أنا آسف.»

شارون. لقد جعلته يحيا مجدّدًا. فبسببها ذاب ما اكتنفه من خدر وألم، كالجليد الذي يذوب شيئًا فشيئًا في دفء الربيع. في خلال الأشهر الستّة الأخيرة، أحسّ بكثير من الارتياح، وبدأ يعتقد أنّه مُنح فرصة ثانية للسعادة.

لا يقع المرء في الحبّ حين يلتقي شخصًا للمرّة الأولى. عمره الآن أربعة وثلاثون عامًا، لا اثنان وعشرون. أليس كذلك؟

كان اللقاء الأوّل في برنامج «اليوم»، بعد نهاية البرنامج، خرجا من الاستوديو معًا ووقفا يتحادثان أمام المبنى. بعد موت نينا لم تثر اهتمامه أيّة امرأة، ولو حتّى اهتمامًا عابرًا، لكنّه صباح ذلك اليوم، وجد نفسه متردّدًا في ترك شارون تذهب في سبيلها. كان عليه الذهاب إلى موعد مبكر، ولم يستطع أن يقترح عليها مشاركته الفطور. وأخيرًا تمتم يقول: «اسمعي، عليّ الانصراف الآن، لكن ما رأيك في العشاء هذا المساء؟»

وافقت شارون بسرعة، وكأنّما كانت تأمل أن يدعوها. بدا النهار كلّه طويلًا لا ينتهي قبل أن يصل أخيرًا إلى شقّتها ويرنّ جرس الباب. آنذاك كان جدالهما حول عقوبة الإعدام إيديولوجيًّا أكثر منه شخصيًّا، ولم تنقلب ضدّه شارون إلّا بعدما بدأت تشعر بعجزها عن إنقاذ رونالد طومبسون.

كان آنذاك على طريق كروس كاونتي العامّ، ويداه تقودان السيّارة مستقلّتين عنه، تختاران الطرق من دون وعيٍ.

شارون. كم كان جميلًا أن يعود للحديث إلى امرأة من جديد، خلال العشاء، وبعده، أثناء شرب كأس في منزلها. فهمتْ مشاكل إطلاق مجلّة جديدة، والصراع للحصول على معلنين، وعلى قرّاء. علّق مازحًا أنّ حديثهما ليلتذاك كان أقرب ما يكون إلى حديث ما قبل النوم بين زوجين.

كان قد ترك عمله في مجلّة «تايم» ليبدأ في مجلّة «الأحداث» قبل أشهر قليلة من موت نينا. خطوته تلك كانت مقامرة حقيقيّة، فهو كان يكسب مالًا كثيرًا في مجلّة «تايم.» يعود بعض السبب في قرار تركها إلى كبريائه، فقد أراد المساعدة على تأسيس أفضل مجلّة في البلد. أراد أن يصبح رئيس تحرير مشهورًا وثريًّا ليتباهى أمام والد نينا.

لامه والدا نينا على موتها. قالا: «لو كانت في منزل آمن كما يجب، وفيه خدم كما يجب، لما حدث هذا الأمر أبدًا.» أرادا أن يأخذا نيل ويعودا به إلى أوروبا. نيل، مع ذينك الاثنين!

نيل، ذلك الصغير المسكين، الولد سرّ أبيه. كان ستيف يبلغ ثلاثة أعوام حين ماتت والدته. لم يتذكّرها قطّ، ووالده لم يتزوّج ثانية قطّ. ذلك كان خطأ، فقد كبر ستيف وهو يريد أمًّا. تذكّر أنّ معلّمة بديلة في صفّه، وهو في عامه السابع، جعلت الطلاّب يسحبون بطاقة عيد الأمّهات. لاحظت المعلّمة في نهاية اليوم أنّه لم يضع البطاقة التي سحبها في حقيبته، فسألته:

- هل ستترك هذه البطاقة هنا؟ ستسرّ أمّك بالحصول عليها يوم الأحد.

مكتبة الرمحي أحمد

مزّق البطاقة وخرج من الغرفة مسرعًا.

لم يرد حدوث هذا الأمر لنيل، أراد أن يكبر نيل في منزل سعيد... في منزل مع أشقّاء وشقيقات. لم يرد أن يعيش كما عاش أبوه، وحيدًا، جاعلًا من ستيف حياته كلّها، متباهيًا أمام الجميع في مكتب البريد بابنه الذي يرتاد جامعة برينستون. كان أبوه رجلًا وحيدًا في شقّة وحيدة. وفي صباح أحد الأيّام لم يستيقظ. حين لم يأتِ إلى العمل، بحثوا عنه. استُدعي ستيف من صفّه في الجامعة لإبلاغه وفاة أبيه.

لعلّ هذا كان السبب الذي دفعه في السنوات الأخيرة إلى أن يكون له موقف من عقوبة الإعدام. لأنّه كان يعرف كيف يعيش العجائز الفقراء، وكم أنّ ما لديهم ضئيل جدًّا. فقد كان التفكير في أن يتعرّض أيّ منهم للقتل الوحشيّ على يد مجرمين يُشعره بالاشمئزاز.

كانت الحقيبة على المقعد الأماميّ بجانبه. أكّد له هيو بأنّ الجهاز الإلكترونيّ لا يمكن اكتشافه، وشعر بالسرور آنذاك لأنّه سمح لهم بوضعه.

عند الأولى والنصف صباحًا سلك مخرج الشارع السابع والخمسين لطريق عامّ وست سايد. وعند الثانية إلّا ثلثًا كانت سيّارته قد توقّفت أمام كشك الهاتف خارج متجر بلومينغدايلز. عند الثانية إلّا عشر دقائق، خرج من السيّارة ووقف في الكشك غير عابئ بالريح الرطبة والجليديّة.

في تمام الثانية رنّ جرس الهاتف. سمع الصوت المكتوم الهامس عينه يأمره بالذهاب فورًا إلى هاتف عند تقاطع الشارع السادس والتسعين وجادّة لكزينغتون.

عند الثانية والربع رنّ ذلك الهاتف. قيل لستيف أن يذهب بسيّارته إلى جسر تريبورو، ويسلك طريق عامّ محطّة غراند سنترال إلى مخرج نحو طريق بروكلينز كوينز السريع. كان عليه أن يقود سيّارته على ذلك الطريق السريع نحو جادّة روزفلت، ويستدير إلى نهاية المربّع الأوّل ويركن السيّارة في الحال. وعليه أن يطفئ مصابيح سيّارته وينتظر. قال له: «تأكّد من أن يكون المال معك. كن وحدك.»

دوّن ستيف التعليمات بحركة محمومة، وأعادها على مسمع الخاطف الذي أنهى المكالمة. عند الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين انعطف خارجًا من طريق بروكلينز كوينز السريع نحو جادّة روزفلت. كانت سيّارة سياحيّة كبيرة مركونة في منتصف طريق المربّع السّكني عند الجهة الأخرى من الشارع. حين مرّ بها، مال بالمقود قليلًا آملًا أن تستطيع الكاميرات المخفيّة تصوير لوحة تسجيل السيّارة. ثمّ توقّف عند حافّة الرصيف ومكث ينتظر.

كان شارعًا مظلمًا، وأبواب المتاجر القديمة الرثّة الحال وواجهاتها كانت محميّة بسلاسل وقضبان حديديّة. زادت السكك الحديديّة المرتفعة من حجب أضواء الشارع، فيما حجب الثلج ما تبقّى من رؤية.

هل استطاع عملاء مكتب التحقيق الفدراليّ تقفّي أثره بواسطة الجهاز الطنّان؟ ماذا لو أنّه توقّف عن العمل؟ لم يلاحظ أيّة سيّارة تتبعه، لكنّهم قالوا إنّهم لن يقتربوا منه كثيرًا.

سمع ستيف طرقة على باب السائق، فأدار رأسه وأحسّ بحلقه قد جفّ. رأى يدًا في قفّاز تشير إليه بإنزال النافذة، ضغط على مفتاح تشغيل المحرّك ثمّ على زرّ النافذة.

– لا تنظر إليّ يا بيترسون.

لكنّ هذا الأخير لمح معطفًا ذا لون مائل إلى البنّي، وقناعًا من جورب نسائي. سقط في حضنه شيء ما... كان كيسًا كبيرًا من الخيش... الغليظ النسيج. أحسّ بالغثيان في معدته. الرجل لن يأخذ الحقيبة التي وُضع جهاز التعقّب بداخلها. لقد عرف ذلك.

– افتح الحقيبة وضع المال في الكيس. بسرعة.

حاول المماطلة. فسأله:

– كيف أعلم أنّك ستعيد ابني وشارون سالمين؟

– املأ الكيس.

سمع ستيف النبرة العالية الحادّة في صوت الرجل، من الواضح أنّه كان شديد التوتّر. إذا أصابه الهلع الآن، فقد يقتل شارون ونيل. حمل ستيف بيدين مرتجفتين رزم المال من الحقيبة ووضعها في كيس النسيج الغليظ.

– أغلقه!

شدّ حبل فتحة الكيس بقوّة وعقد طرفيه.

– أعطني الكيس، ولا تنظر إليّ.

نظر ستيف أمامه، وسأله الرجل:

– ماذا عن ابني وشارون؟

امتدّت يدان في قفّازين عبر النافذة وانتزعتا منه الكيس. حاول أن يلاحظ القفّازين. كانا يبدوان غير ليّنين، من جلد مقلّد رخيص، كبيرين، لونهما رماديّ غامق أو بنيّ. كان كمّ معطفه باليًا وتظهر منه خيطان مقطّعة.

قال له الخاطف بصوت ينمّ عن الاستعجال، يكاد يرتجف:

– أنت مراقَب يا بيترسون. لا ترحل من هنا قبل خمس عشرة دقيقة. تذكّر هذا: خمس عشرة دقيقة. إذا لم يتبعني أحد وكان المبلغ كلّه موجودًا، سيُقال لك أين تذهب لاستلام ابنك وشارون عند الحادية عشرة والنصف من قبل ظهر اليوم.

الحادية عشرة والنصف. في الدقيقة عينها لإعدام رونالد طومبسون. انفجر السؤال خارجًا من فم ستيف:

– هل كان لك شأن بموت زوجتي؟

لم يسمع جوابًا. انتظر، ثمّ أدار رأسه بحذر. كان الخاطف قد ابتعد. وفي الجهة الثانية من الشارع، سمع محرّك سيّارة يدور.

كانت ساعته تشير إلى الثانية والدقيقة الثامنة والثلاثين. دام الاجتماع برمّته أقلّ من ثلاث دقائق. هل كان مراقَبًا؟ هل كان على سطح أحد تلك المباني مراقب ما مستعدًّا للإبلاغ عنه إذا ما تحرّك؟ لن يتلقّى عملاء مكتب التحقيق الفدراليّ من الجهاز المدسوس في

الحقيبة أيّة إشارة إلى تغيّر الموقع. لن يدركوا أنّهما قد التقيا. هل كان يجرؤ على تشغيل محرّكه قبل انقضاء الدقائق الخمس عشرة؟

لا.

عند الثانية والدقيقة الثالثة والخمسين، دار ستيف بسيّارته دورة كاملة وعاد نحو مانهاتن. عند الثالثة وعشر دقائق، وصل إلى مركز مكتب التحقيق الفدراليّ عند تقاطع الشارع التاسع والستّين والجادّة الثالثة. هرع عملاء فدراليّون كالحو الوجه إلى سيّارته وبدأوا بفكّ المصباحين الأماميّين. وراح هيو يصغي متجهّمًا إلى شرحه وهما في المصعد إلى الطابق الثاني عشر. هناك، عرّفه هيو إلى رجل أشيب تمامًا وذي تعبير صبور وذكيّ لا تخفيه النظّارة السوداء، وأضاف يشرح له:

– أصغى جيم إلى الكاسيت. من نوعيّة صوتَي شارون ونيل، ومن صدى معيّن، استنتج أنّهما محتجزان في غرفة باردة وشبه فارغة، طولها نحو سبعة أمتار ونصف وعرضها نحو ثلاثة أمتار ونصف. لعلّهما في قبو ما في محطّة قطارات للشحن البريّ، فثمّة صوت خافت لقطارات تصل وترحل من مكان قريب منهما.

نظر ستيف محدّقًا في الفراغ. أضاف العميل الأعمى:

– سأتمكّن لاحقًا من أن أكون أكثر دقّة على نحو كبير. لا سحر في هذا، فأنا فقط أصغي إلى الأصوات بالتركيز عينه الذي يدرس به العالِم عيّنة تحت المجهر.

غرفة باردة، شبه فارغة، محطّة قطارات للشحن البرّي. نظر ستيف إلى هيو نظرة اتّهام، وسأله:

– ما تأثير هذا على نظريّتك بأنّ شارون ربّما خطّطت لهذه العمليّة؟

أجاب هيو ببساطة: «لا أعلم.»

سأله جيم أوينز متردّدًا:

– سيّد بيترسون، بشأن الصوت في الكاسيت، هل كانت الفرنسيّة، لا الإنكليزيّة، اللغة الأولى لزوجتك المتوفّاة؟

– لا... لا، أبدًا. نشأت في فيلادلفيا إلى أن ذهبت إلى مدرسة داخليّة في عامها العاشر. لماذا؟

– في ذلك الصوت ما يؤكّد للخبير أنّ الإنكليزيّة لم تكن لغتها الأولى.

– مهلًا! قالت لي نينا إنّ مربّية فرنسيّة اعتنت بها... وإنّها في طفولتها كانت تفكّر بالفرنسيّة، لا بالإنكليزيّة.

– هذا تمامًا ما أعنيه. أي أنّ ذلك الصوت لم يكن لمنتحل ولا لمقلّد، أنت مصيب في التعرّف إلى صوت زوجتك.

قال هيو:

– حسنًا، أخطأتُ في هذا، لكنّ جيم يقول إنّ ذلك الصوت أضيف بالتأكيد إلى الكاسيت بعد تسجيل صوت نيل وشارون. فكّر يا سيّد بيترسون: إنّ مَن خطّط لهذا الأمر هو شخص يعرف الكثير عن حياتك الخاصّة. هل ذهبت يومًا إلى حفلة، ربّما، حيث كان الأشخاص يصوّرون أفلامًا منزليّة... حيث ربّما سجّل شخص ما... صوت زوجتك واستخرج من التسجيل تلك الكلمات القليلة؟

كان التفكير صعبًا جدًّا... قطّب ستيف جبينه. ثمّ قال:

– النادي الريفيّ، حين كان يجري تجديده وتغيير الديكور فيه منذ أربع سنوات، صوّروا فيلمًا لمؤسسة خيريّة ما. كانت نينا الراوية في الفيلم، حيث كانت تتنقّل من غرفة إلى غرفة وتشرح ما جرى.

قال هيو:

– نحن نقترب من شيء ما الآن، ألعلّها استخدمت تلك الكلمات ضمن إطار ذلك الفيلم؟

– هذا ممكن.

رنّ جرس الهاتف، فأجاب هيو وعرّف عن نفسه، ثمّ أصغى بانتباه شديد، ليقول: «جيّد، اعمل على الأمر حالًا» ووضع السمّاعة من يده بقوّة. بدت على وجهه نظرة صيّاد اشتمّ رائحة جديدة، وقال:

– بدأت الأمور تُحلّ، سيّد بيترسون. التقطت صورة جيّدة للسيّارة وللوحة التسجيل، ونحن الآن نتعقّبها.

كان ذلك الأمل الأوّل الضئيل الذي يناله! ألهذا السبب لا تزال العقدة في حلقه تخنقه؟ هذا سهل جدًّا، وشيء ما كان يقول له إنّ الأمر لن ينجح.

مدّ جيم أوينز يده في اتّجاه صوت ستيف وقال له:

– سيّد بيترسون، أريد طرح سؤال واحد فقط. لديّ انطباع بأنّها كانت تفتح بابًا. هل أنت على علم بأمر أيّ باب يصدر صوت صرير خفيفًا حين يُفتح، ... يشبه «إإرركّك»؟

ثمّ قلّد ببراعة مذهلة صوت مفصّلة صدئة أثناء تحرّكها.

حدّق كلّ من هيو وستيف بالآخر، ثمّ فكّر ستيف بغير حماسة في أنّ هذه مهزلة، وأنّ الأوان قد فات بالنسبة إلى الجميع. لكنّ هيو أجاب بالنيابة عنه وقال:

– نعم يا جيم، هذا هو تمامًا صوت باب مطبخ السيّد بيترسون حين يُفتَح.

35

قاد آرتي سيّارته مبتعدًا عن حانة «ميل تافرن»، وشعور ملحّ بالقلق يطلق في جسده إشارات إنذارٍ تجهض استمتاعه بفكرة أنّه معصوم عن الخطأ.

كان يعتمد حقًّا على وجود بيل لوفتس في الحانة، وشعر بأنّه سيرتاح إلى طرح سيل من أسئلة الاستفسار عليه: هل الصبيّ خارج المنزل؟ أين هو؟ كيف حال السيّد بيترسون؟ هل هو مع أحد؟

خُيّل إليه أنّ بيترسون لن يعترف للزوجين لوفتس باختفاء نيل وشارون، بعدما عرف أنّهما ثرثاران يبوحان بكلّ شيء. لذا، فعدم وجود بيل يعني أنّ بيترسون استدعى الشرطة... لا، لم يستدعِ الشرطة، بل مكتب التحقيق الفدراليّ: إنّ الرجل الذي ادّعى أنّه بيت ليرنر، وطرح أسئلة كثيرة... كان عميلًا لمكتب التحقيق الفدراليّ. عرف آرتي ذلك.

قاد سيّارة «البيتل» الخضراء الغامقة نحو طريق عامّ ميريت الجنوبيّ. وجعل القلق العرق يتصبّب من جبينه وإبطيه ويديه. لقد مرّ اثنا عشر عامًا على الاستجواب القاسي الذي تعرّض له في مركز مكتب التحقيق الفدراليّ في مانهاتن.

– هيّا يا آرتي، رآك بائع الجرائد ترحل ومعك الفتاة. أين أخذتها؟
– وضعتُها في سيّارة أجرة، قالت إنّها تريد لقاء رجل.
– أيّ رجل؟
– وما أدراني؟ أنا حملت حقيبتها، لا أكثر.

لم يستطيعوا إثبات شيء، لكنّهم حاولوا، حاولوا جاهدين.

– ماذا عن الفتيات الأخريات يا آرتي؟ انظر إلى هذه الصور. أنت تقضي الوقت دائمًا بالقرب من مركز إدارة المرفأ. كم واحدة منهنّ حملت لها حقيبتها؟
– لا أعلم ما تعني.

كانوا يقتربون من كشف الحقيقة، وبلغ الأمر خطرًا شديدًا. آنذاك غادر نيويورك مبتعدًا نحو كونكتيكت، وعمل في محطّة للوقود. ومنذ ستّة أعوام تسلّم مرآب تصليح السيّارات في كارلي.

«أريزونا» تلك كانت غلطة. لماذا قال «رود آيلاند ليست أريزونا؟» لعلّ ذلك الرجل الذي ادّعى أنّه بيت ليرنر لم يلاحظ، ومع ذلك فقد كانت تلك غلطة.

هم لا يملكون ضدّه شيئًا إلّا إذا بدأوا بالتحقّق من ماضيه، فوصلوا إلى استجوابه بشأن تلك الفتاة من تكساس. قال لها: «تعالي إلى منزلي في القرية، كثيرون من أصدقائي فنّانون وبحاجة إلى موديل جميلة.»

لكنّهم آنذاك لم يملكوا دليلًا، والآن هم يملكون دليلًا. لا شيء. لم يرتكب أيّة زلّة، كان واثقًا من ذلك.

سألتْه الفتاة: «هل هذا منزلك؟ هذا المكبّ؟»

انتهى من ميريت ووصل إلى طريق عامّ نهر هاتشنسون. تبع الإشارات المؤدّية إلى جسر «ثروغز نِك.» كانت خطّته عبقريّة: سرقة

سيّارة كانت عملًا خطيرًا، فالاحتمال قائم دائمًا بأن يعود مالكها في عشر دقائق، وبأن يتمّ إبلاغ رجال الشرطة قبل أن يبتعد مسافة خمسة أميال. يجب عدم سرقة سيّارة إلّا بعد التأكّد من أنّ صاحبها بعيد جدًّا... يشاهد فيلمًا قديمًا عمره ثلاثون عامًا، أو سافر على متن طائرة.

كانت إشارات التحذير المضيئة تومض على جسر «ثروغز نِك»: «جليد»، «ريح». لكن لا بأس، فهو سائق جيّد، وهذا المساء لن يغادر السائقون الجبناء منازلهم، ما سيسهّل عليه التحرّك في المنطقة لاحقًا.

عند الحادية عشرة والدقيقة العشرين، وصل بسيّارته إلى مطار لاغارديا، ودخل موقف السيّارات رقم خمسة، الذي يتقاضى بدلات وقوف خاصّة لمَن يركنون سيّاراتهم لفترات طويلة. أخذ تذكرة من الآلة، فانفتحت البوّابة، وقاد السيّارة ببطء عبر الموقف، حريصًا على الابتعاد عن أنظار موظّف الصندوق في خطّ الخروج المحاذي للمدخل الأوتوماتيكيّ للموقف. ركن السيّارة في موقف خالٍ في القسم تسعة بين سيّارتي كرايسلر وكاديلاك وخلف سيّارة أولدزموبيل. وسط تلك السيّارات الثلاثة، تضاءلت «البيتل» وتوارت تمامًا.

أمال المقعد إلى الخلف ومكث ينتظر. مرّت أربعون دقيقة. دخلت الموقف سيّارتان، إحداهما حمراء برّاقة، والأخرى سيّارة ستايشن صفراء. كان من السهل رؤية كلتيهما، فشعر بالسرور لأنّهما تجاهلتا الأماكن الخالية بالقرب منه وابتعدتا نحو القسم الأيسر البعيد.

ثمّ مرّت به ببطء سيّارة أخرى، بونتياك كحليّة اللون دخلت موقفًا يتقدّمه بثلاثة صفوف. انطفأت مصابيحها، شاهد السائق يخرج منها، ويذهب إلى صندوقها فيخرج منه حقيبة كبيرة. هذا رجل سيبتعد لفترة.

غاص في سيّارته الفولكسفاغن، ولم يظهر فوق مستوى الزجاج الأمامي سوى رأسه. راقب الرجل وهو يقفل غطاء الصندوق، ويحمل الحقيبة ويسير إلى أقرب موقف للحافلات، حيث ستقلّه حافلة المطار المجانيّة إلى رصيف المغادرة الطرفيّة.

أتت الحافلة بعد دقائق. راقب فوكسي طيف الرجل يدخل الحافلة التي ابتعدت. ثمّ خرج ببطء وصمت من «البيتل» ونظر حوله فلم ير أيّة مصابيح سيّارات تقترب. بخطوات سريعة وصل إلى سيّارة البونتياك. نجح المفتاح الثاني الذي جرّبه في فتح بابها، فدخلها. كانت السيّارة لا تزال دافئة على نحو مريح. وضع المفتاح الذي كان يحمله في فتحة التشغيل، فدار المحرّك بدون صوت تقريبًا. كان خزّان الوقود مليئًا حتّى ثلاثة أرباعه. ممتاز.

سيكون عليه الانتظار، فالحارس سيرتاب إذا ما استلم تذكرة لسيّارة توقّفت أقلّ من ساعتين في هذا المرآب. لكنّ كثيرًا من الوقت كان متاحًا أمامه وأراد التفكير. مال إلى الخلف وأغمض عينيه، ومرّت في ذهنه صورة نينا كما بدت في تلك الليلة الأولى.

كان يتجوّل بسيّارته وهو يعلم أنّ عليه ألاّ يخرج، وأنّ وقتًا طويلًا لمَا ينقضِ بعد على موت جين كارفولي والسيّدة وايس، لكنّه كان عاجزًا عن البقاء في المنزل. شاهدها حينذاك. توقّفت سيّارة «كارمن غيا» في تلك النقطة الوحيدة والهادئة على الطريق السابع. ظهر جسدها النحيل والصغير في ضوء مصباحي سيّارته الأماميّين، فرأى شعرها الأسود ويديها الصغيرتين اللتين تحاولان تشغيل المرفاع، وعينيها البنّيتين الكبيرتين جدًّا واللتين ظهر الخوف فيهما فجأة حين تمهّل بسيّارته ليتوقّف. لعلّها تذكّرت في تلك اللحظة الأحاديث عن المجرمين الذين يصطادون الضحايا على الطرق العامّة. قال لها:

– أيمكنني مساعدتك يا آنستي؟ هذا عمل صعب عليك، لكنّه عملي فأنا ميكانيكيّ.

زالت من وجهها نظرة القلق وأجابت:

– ممتاز. لا أخفي عليك أنّني متوتّرة الأعصاب. فأن يُثقب إطار سيّارتي هنا من بين كلّ الأماكن المجنونة...

لم ينظر إليها قطّ، لم ينظر سوى إلى الإطار، وكأنّها غير موجودة، وكأنّ لها من العمر تسعمئة عام. قال لها: «مرّ الإطار فوق شظايا زجاجيّة، ليست بالأمر المهمّ.» ثمّ غيّر الإطار بسرعة وبدون جهد يُذكر، في أقلّ من ثلاث دقائق. لم تكن أيّة سيّارة قادمة في كلا الاتّجاهين. ثمّ وقف. قالت له:

– بكم أدين لك؟

كانت حقيبة يدها مفتوحة وعنقها مائلًا، وكان ثدياها يصعدان ويهبطان تحت السترة المصنوعة من الجلد السويديّ المزأبر. كانت من طبقة اجتماعيّة مرموقة، شيء ما فيها كان يدلّ إلى ذلك. لم تكن شابّة جافّة مثل جين كارفولي، ولا عجوزًا لعينة ساخطة مثل وايس، بل كانت شابّة جميلة تشعر بالامتنان الكبير نحوه. مدّ يده ليلمس ثدييها، وآنئذ ظهر الضوء على الشجرة في الجهة المقابلة من الشارع وتأرجح ليضيء كليهما. كانت سيّارة للشرطة، استطاع أن يرى سقفها، فقال بسرعة:

– كلفة تغيير الإطار ثلاث دولارات، كما يمكنني أن أصلح الإطار المثقوب إذا شئتِ.

وأضاف بعد أن وضع المال في جيبه:

– اسمي آرتي تاغرت، ولديّ مرآب لتصليح السيّارات في شارع مونرو في كارلي، على مسافة نحو نصف ميل من حانة «ميل تافرن».

كانت سيّارة الشرطة تقترب منهما، وخرج منها الشرطيّ، وسألها وهو ينظر إلى آرتي نظرة غريبة شديدة الارتياب:

– أنت بخير يا سيّدتي؟

– نعم، سيدي الشرطيّ. لقد حالفني الحظّ، فالسيّد تاغرت من بلدتي وقد وصل في اللحظة عينها التي ثُقب فيها إطار سيّارتي.

لقد تحدّثت وكأنّها تعرفه. تغيّرت تعابير الشرطيّ الذي قال:

– أنت فعلًا سعيدة الحظّ يا سيّدتي بأن يساعدك صديق، فليس آمنًا أن تكون النساء وحيدات في سيّارات معطّلة حاليًّا.

عاد الشرطيّ إلى سيّارته لكنّه مكث فيها مراقبًا. سألت نينا آرتي:

– هل ستصلح لي الإطار المثقوب؟ اسمي نينا بيترسون، نسكن في «دريفتوود لاين».

– طبعًا، يسرّني ذلك.

عاد إلى سيّارته وهو يتصرّف بصورة عاديّة ولا مبالاة، وكأنّه انتهى من مهمّة تصليح رخيصة أخرى، فلم يُظهر لها أبدًا أنّ عليه أن يعود لرؤيتها. استطاع أن يلمح في نظرتها إليه شعورٌ بالأسف أيضًا لمجيء الشرطيّ. لكنّه كان من المهمّ الابتعاد قبل أن يبدأ الشرطيّ بالتفكير في جين كارفولي والسيّدة وايس، فيسأله:

– هل أنت معتاد التوقّف لمساعدة السيّدات الوحيدات يا سيّدي؟

قاد سيّارته مبتعدًا، وفي الصباح التالي، وحين كان يفكّر في الاتّصال بها، بادرت هي إلى الاتّصال. قالت له:

– وبّخني زوجي بسبب قيادتي السيّارة بالإطار الاحتياطيّ. متى يمكنني أن آتي لاستلام إطاري؟

قالت له ذلك بصوت دافئ وحميم جدًّا وذي رنّة ضاحكة وكأنّهما تبادلا دعابة خاصّة. فكّر بسرعة. كانت «دريفتوود لاين» في منطقة هادئة، منازلها غير متقاربة. إذا أتت هي إلى مرآبه، فلن يتاح له المجال للتقرّب منها لأنّ تلك ستكون مجازفة كبيرة. أجابها بكذبة:

– عليّ الخروج في مهمّة الآن، سآتي أنا بالإطار بعد الظهر، ربّما عند نحو الخامسة.

بحلول الخامسة يكون الظلام قد حلّ... أجابت:

– رائع، ما دام الإطار سيعود إلى السيّارة قبل أن أذهب لأقلّ زوجي عند السادسة والنصف.

شعر بالإثارة الشديدة يومذاك لدرجة أنّه كاد يعجز عن التفكير. خرج لقصّ شعره واشترى قميصًا رياضيًّا جديدًا ذا مربّعات. حين عاد إلى المرآب، لم يكلّف نفسه العمل قطّ، بل استحمّ وارتدى ملابسه وأصغى إلى بعض كاسيتاته. ثمّ وضع في المسجّلة كاسيتًا جديدة بعدما كتب عليها «نينا» وتأكّد من أنّ في آلة تصويره فيلمًا، وراح يفكّر في متعة تظهير الصور، والتفرّج على الصور تتشكّل على الأوراق.

عند الخامسة وعشر دقائق، مضى نحو «دريفتوود لاين». تجوّل بسيّارته في الشارع حيث يقع منزلها قبل أن يقرّر ركن سيّارته في الغابة القريبة، تحسّبًا لحدوث شيء...

سار عبر الغابة القريبة من الشاطئ. تذكّر كيف كان الماء يعانق ذلك الشاطئ، بصوت ودود أثار فيه الحماسة والدفء برغم أنّ تلك الليلة كانت باردة.

كانت سيّارتها في الممرّ خلف منزلها، والمفتاح في فتحة التشغيل. استطاع أن يرى نينا عبر نافذة المطبخ، تتنقّل فيه وتفتح

أكياس البقالة. كانت كرة المصباح الكهربائيّ مفكوكة، ما أضاء الغرفة بقوّة. كانت جميلة جدًّا بكنزتها الزرقاء الشاحبة اللون فوق تنّورتها وذلك المنديل المعقود على عنقها. غيّر الإطار بسرعة كبيرة، وهو يدرس احتمال وجود آخرين في المنزل. عرف أنّه سيمارس معها الحبّ وأنّها في سرّها كانت تريد ذلك. تلميحها إلى أنّ زوجها كان غاضبًا منه دلّه إلى حاجتها لرجل متعاطف. أدار المسجّلة وبدأ يهمس فيها ما ينويه لإسعاد نينا حين يخبرها بمشاعره نحوها.

مضى إلى باب المطبخ وقرعه برفق. أسرعت إلى الباب وقد بدا عليها الإجفال، لكنّه كان يرفع يده حاملًا مفتاح السيّارة، ويبتسم لها من خلال الزجاج. بادلته الابتسامة في الحال وفتحت الباب بدفء وودّ، وبدا صوتها وكأنّه ذراعان تطوّقانه حين دعته للدخول وعبّرت عن امتنانها لما فعله.

ثمّ سألته كم تدين له. رفع يده.. وكانت طبعًا في القفّاز... وأطفأ ضوء المطبخ. وضع يديه على وجهها وقبّلها، وهمس لها: «ادفعي لي بهذا الشكل»، فصفعته. كانت صفعتها مذهلة وشديدة على نحو مستحيل من تلك اليد الصغيرة. قالت له: «اخرج من هنا.» خرجت كلماتها من فمها باحتقار وكأنّه قذارة، وكأنّه لم يرتدِ أفضل ملابسه لأجلها، وكأنّه لم يُسدِ إليها خدمة.

ثارت ثائرته، كما في المرّات الماضية. هذا ما يحلّ به حين ينبذه الآخرون. كان يجب ألاّ توهمه على هذا النحو. مدّ يديه يريد إيذاءها، يريد أن يعتصر قذارتها فيخرجها منها. أمسك بالمنديل، لكنّها تخلّصت منه وركضت إلى غرفة المعيشة. لم يخرج من فمها أيّ صوت، ولا صرخت طالبة النجدة. عرف السبب بعد ذلك، لم تُرده أن يعرف أنّ

الطفل في المنزل. لكنّها حاولت أن تلتقط مِسعرًا من المدفأة. اكتفى بالضحك، ثمّ حدّثها بصوت منخفض عمّا ينوي فعله. أمسك بكلتا يديها في إحدى يديه وأعاد المسعر إلى مكانه. ثمّ أمسك منديلها ولفّه حول عنقها لفّة أولى، فثانية، فيما راحت هي تقرقر وتختنق، ويداها الصغيرتان كيدَي دمية تلوّحان وتسقطان ثمّ خارتا، واتّسعت عيناها البنّيتان الكبيرتان وجحظتا وتحجّرتا، وغلب الازرقاق على لون وجهها.

توقّفت القرقرة، وكان يمسكها بإحدى يديه ويلتقط الصورة، متمنّيًا لو أنّ عينيها تغمضان حين سمع من مكان ما خلفه صوت القرقرة المخنوقة ينبعث من جديد. استدار، فرأى الصبيّ واقفًا في الردهة يحملق فيه بعينين كبيرتين بنّيتين أشعلتا فيه النار. كان الصبيّ يشهق كما كانت هي تشهق. بدا له وكأنّه لم يقتلها قطّ، وكأنّها انتقلت إلى جسد الصبيّ تريد أن تعاقبه، أن توبّخه، أن تتوعّده بالثأر.

سار في الغرفة نحو الصبيّ. أراد أن يجعله يوقف الصوت الصادر عنه، ويغمض تينك العينين... ضمّ يديه، وانحنى فوق الصبيّ... حين رنّ جرس الباب.

كان عليه أن يهرب، أسرع عبر الردهة نحو المطبخ، وخرج عبر الباب الخلفيّ فيما رنّ الجرس مجدّدًا. خرج عبر الغابة واستقلّ سيّارته، وعاد إلى مرآبه في دقائق قليلة. قال لنفسه: «اهدأ، كن هادئًا.» ذهب إلى الحانة ليأكل الهمبرغر ويشرب الجعة، وكان هناك حين اجتاح البلدة خبر الجريمة في «دريفتوود لاين».

لكنّه كان خائفًا. ماذا لو أنّ الشرطيّ شاهد في الجرائد صورة نينا، فقال في مركزه: «أمر غريب، رأيتها مساء أمس على الطريق، وكان رجل يدعى تاغرت يصلح سيّارتها...»

قرّر الرحيل عن البلدة. وفيما كان يحزم أمتعته، سمع في الأخبار أنَ شاهدة، وهي جارة القتيلة، قد وقعت أرضًا بعد أن دفعها شخص هارب من منزل آل بيترسون، وأنّها تعرّفت إليه وذكرت أنّه رونالد طومبسون، وهو فتى من المحلّة له سبعة عشر عامًا. ذكر الخبر أيضًا أنَ طومبسون قد شوهد يكلّم السيّدة بيترسون قبل ساعات قليلة من وقوع الجريمة.

وضع آرتي الكاميرا والمسجّلة والصور والفيلم والكاسيتات في علبة معدنيّة، دفنها تحت شجيرة خلف مرآبه. شيء ما قال له أن ينتظر. ثمّ قُبض على الفتى طومبسون في ذلك النزل في فرجينيا، وتعرّف إليه الصبيّ أيضًا.

الحظّ! الحظّ الذي لا يصدّق! كانت غرفة المعيشة مظلمة. لعلَّ الصبيّ لم يرَ وجهه، ثمّ دخل طومبسون ذلك المنزل. لكنّه بدأ بالتفكير في الصبيّ. لا بدّ من أنّ نيل عانى صدمة، لكن هب أنّه تذكّر ذات يوم؟

كانت تلك الفكرة تقضّ مضجع آرتي. لاحقته تانك العينان خلال ليالي الاضطراب التي عاشها. كان أحيانًا يستيقظ في منتصف الليل، يتصبّب عرقًا ويرتجف، ظانًّا أنّ العينين تنظران عبر نافذة غرفة نومه، أو أنّ الريح تقرقر كصوت نينا وهي تختنق.

بعد ذلك، لم يخرج قطّ بحثًا عن فتيات، بل اكتفى بالذهاب إلى حانة «ميل تافرن» معظم الليالي، وصادق مرتادي الحانة، وخصوصًا بيل لوفتس الذي كان يتكلّم كثيرًا عن نيل. دام ذلك حتّى الشهر الماضي، إلى أن علم أنّ عليه استرجاع كاسيتاته من حيث دفنها والإصغاء إليها من جديد.

تلك الليلة، سمع عبر جهازه اللاسلكيّ الفتاة كالاهان تقول إنّ إطار سيّارتها ثُقب، فذهب يبحث عنها. خرج مجدّدًا بعد أسبوعين حين تاهت السيّدة أمبروز وراحت تسأل عن الإرشادات عبر الجهاز اللاسلكيّ، وتقول إنّ الوقود يكاد ينفد من سيّارتها.

لكن بعد الجريمتين الأخيرتين، عاد آرتي يشاهد نينا في أحلامه كلّ ليلة، تتّهمه. ومنذ أسبوعين، قاد بيل سيّارة الستايشن إلى مرآبه وبجانبه نيل. حملق نيل في آرتي. علم آرتي آنذاك أنّ عليه قتل نيل قبل مغادرته كارلي. حين تباهى لوفتس بحساب الائتمان المفتوح باسم نيل... فقد شاهدت زوجته كشف الحساب المصرفيّ على مكتب بيترسون... علم كيف يحصل على المال الذي يحتاج إليه.

كلّما فكّر في نينا، كان كرهه لستيف بيترسون يـزداد. كان بيترسون يستطيع لمسها بدون أن تصفعه. بيترسون كان رئيس تحرير مهمًّا، ولديه أشخاص يهتمّون به، وله حبيبة جديدة جميلة. سيُريه.

لطالما كانت غرفة محطّة غراند سنترال موجودة في وعيه، مكانًا للاختباء إذا ما احتاج إليها يومًا، مكانًا يأخذ إليه فتاة حيث لا يعثر عليها أحـد. أثناء عمله في تلك الغرفة كان يفكّر دائمًا في تفجير محطّة غراند سنترال. كان يفكّر في مدى ما سيشعر به الناس من صدمة وخوف حين تنفجر قنبلة، حين يحسّون بالأرض تتداعى تحتهم والسقف ينهار. كلّ أولئك الناس الذين تجاهلوه حين حاول أن يكون ودودًا، والذين لم يبتسموا له قطّ، والذين يتجاوزونه في سيرهم، والذين لا يعيرونه نظرة اهتمام واحـدة، والذين يأكلون من الأطباق التي عليه أن يغسلها ويتركونها مدهنة بقواقع المحار، ومرق السلطة والزبدة.

ثم ارتسمت تفاصيل كلّ شيء. الخطّة. خطّة أوغست رومل تاغرت. خطّة ثعلب، كثعلب الصحراء رومل.

ليته ليس مضطرًا لقتل شارون، ليتها تحبّه. لكنّ فتيات كثيرات سيكنّ ودودات في أريزونا، فهو سيكون معه الكثير من المال. كانت فكرة حسنة أن يموت نيل وشارون في الدقيقة عينها لإعدام رونالد طومبسون. لأنّه يعدمهما أيضًا، وكان طومبسون يستحقّ الموت لتدخّله في تلك الليلة.

كلّ أولئك الأشخاص في غراند سنترال... أطنان من الركام ستهوي عليهم. سيختبرون إحساس أن تكون عالقًا في فخّ، وسيكون هو حرًّا.

قريبًا، قريبًا سينتهي كلّ شيء.

ضاقت عينا آرتي، وأدرك أنّ كثيرًا من الوقت قد مرّ. هذا ما يحدث دائمًا حين يبدأ التفكير في نينا. آن أوان الانصراف. أدار مفتاح التشغيل في البونتياك. عند الثانية إلّا ربعًا، قاد سيّارته إلى كشك تحصيل رسم المرور، وسلّم التذكرة التي أخذها عند البوابة الأوتوماتيكيّة حين دخل عبرها بسيّارته الفولكسفاغن. بدا الموظّف نعسانًا، وقال له:

– ساعتان وخمس وعشرون دقيقة... ثلاثة دولارات يا سيّدي.

قاد السيّارة خارجًا من المطار إلى هاتف في جادّة كوينز. في تمام الثانية، اتّصل بالهاتف العموميّ خارج متجر بلومينغدايلز. حالما أجاب بيترسون، طلب منه الذهاب إلى الهاتف العموميّ في الشارع السادس والتسعين.

أحسّ بالجوع، وكان لديه خمس عشرة دقيقة، فقصد مطعمًا يفتح طوال الليل حيث ازدرد القهوة وبعض الخبر المحمّص وهو

يراقب الساعة. عند الثانية والربع، اتّصل بالهاتف العموميّ في الشارع السادس والتسعين، وطلب من ستيف باقتضاب أن يتوجّه إلى مكان اللقاء الذي اختاره.

حلّ آنذاك وقت الجزء الخطر جدًّا. عند الثانية والدقيقة الخامسة والعشرين، بدأ بقيادة السيّارة نحو جادّة روزفلت. كانت الشوارع شبه مهجورة، وما من إشارة إلى وجود سيّارات شرطة متخفّية. كان ليستطيع تمييزها، فهو سيّد التجوّل على الطرق بدون أن يبدو مثيرًا للشبهات.

منذ الأسبوع الماضي اختار جادّة روزفلت لتكون مكان اللقاء، بعد أن احتسب المدّة المطلوبة للعودة منها إلى مطار لاغارديا. ستّ دقائق تمامًا. فقط بحال أتى أفراد الشرطة مع بيترسون، فستكون لديه فرصة جيّدة للفرار منهم.

كانت جادّة روزفلت ملأى بالأعمدة التي تحمل سكّة القطار المرتفعة، وهو ما كان يحجب الرؤية، ويصعّب على الناظر مشاهدة ما يحدث في الجهة الثانية من الشارع أو في مكان آخر من المربّع عينه. كان ذلك هو المكان الأنسب للّقاء. في تمام الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين، ركن السيّارة في جادّة روزفلت، في مواجهة طريق بروكلينز كوينز السريع، على مسافة أقلّ من مربّع من طريق الدخول. عند الثانية والدقيقة السادسة والثلاثين، شاهد أضواء سيّارة تغادر طريق بروكلينز كوينز السريع من الجهة المقابلة. وفي الحال وضع الجورب فوق وجهه. كانت تلك سيّارة المركوري الخاصّة ببيترسون. ظنّ للحظة أنّ بيترسون يقترب منه، فالسيّارة قد انحرفت يمينًا في اتّجاهه. أم لعلّه كان يحاول تصوير سيّارة البونتياك؟ سيكون هذا مفيدًا جدًّا.

توقّفت سيّارة بيترسون مباشرة تقريبًا في الجهة المقابلة من الشارع. ابتلع ريقه بعصبيّة، لكنّه لم يرَ مصابيح سيّارات أخرى آتية من جهة الطريق السريع. كان عليه أن يتحرّك بسرعة، فأخذ كيس النسيج الغليظ. قرأ في مجلّة الإلكترونيّات أنّ الحقائب عادة ما يتمّ تزويدها بأجهزة تنصّت في حالات دفع الفدية، فلم يشأ أن يجازف. اطمأنّ إلى الإحساس بكيس النسيج الغليظ خفيفًا، فارغًا، جاهزًا ليمتلئ. فتح باب السيّارة واجتاز الشارع بدون ضجيج. كان فقط بحاجة إلى ستّين ثانية، يعبر بعدها إلى الأمان. نقر على نافذة سيّارة بيترسون وأومأ إليه بفتحها. فيما كان زجاج النافذة يهبط نظر بسرعة إلى داخل السيّارة. كان بيترسون وحيدًا، فدفع إليه بكيس النسيج الغليظ.

كانت أضواء الشارع الضعيفة تلقي بظلال الأعمدة على السيّارة. بالصوت الرقيق الهامس الذي تمرّن عليه، طلب إلى بيترسون ألاّ ينظر إليه وأن يضع المال في الكيس. لم يجادله بيترسون. راحت عينا فوكسي تجوبان المنطقة من خلف القناع، أصغى بعمق، لكنّه لم يسمع أحدًا يقترب. لا بدّ من أنّ أفراد الشرطة يتعقّبون بيترسون، لكنّهم ربّما أرادوا التأكّد من أنّه التقاه. نظر إلى بيترسون يلقي آخر رزمة من الأوراق الماليّة في الكيس ثمّ أمره بإقفاله وتسليمه إيّاه. تحسّس وزنه بطمع. وبصوت منخفض لم ينسَ استخدامه، أنذر بيترسون بضرورة الانتظار خمس عشرة دقيقة وقال له إنّ بوسعه استلام شارون ونيل عند الحادية عشرة والنصف.

– هل كان لك شأن بموت زوجتي؟

جفّل السؤال فوكسي. إلى أيّ مدى بدأوا يشكّون؟ كان عليه أن يهرب. بدأ العرق يتصبّب منه، وبلّلت نقاطه الثقيلة بزّته تحت المعطف البنّيّ، ودفّأت عقبيه برغم لسع الريح القارص لكاحليه.

عبر الشارع وصعد في سيّارة البونتياك. هل سيجرؤ بيترسون على اللحاق به؟ لا، بقي في السيّارة المظلمة والصامتة. ضغط فوكسي على دوّاسة الوقود بكلّ قوّة، واندفع كالسهم نحو طريق بروكلينز كوينز السريع، وقاد مدّة دقيقتين إلى طريق عامّ غراند سنترال، وانسلّ وسط حركة السير الخفيفة المتّجهة شرقًا ليخرج بعد ثلاث دقائق في مطار لاغارديا.

عند الساعة الثانية والدقيقة السادسة والأربعين، كان يأخذ تذكرة موقف عند المدخل الأوتوماتيكيّ للموقف الخامس. بعد تسعين ثانية، عادت سيّارة البونتياك إلى حيث كانت مركونة تمامًا حين وجدها، وليس فيها من اختلاف يمكن رؤيته سوى انخفاض مؤشّر خزّان الوقود وتسجيل ستّة أميال إضافيّة في العدّاد. خرج من السيّارة وأقفلها بحذر وحمل كيس النسيج الغليظ إلى «البيتل» الخضراء الغامقة. تنفّس بارتياح للمرّة الأولى حين أصبح بداخل سيّارة الفولكسفاغن، يحاول فكّ حبل الكيس.

تمكّن منه في النهاية، وأشعل مصباحه الكهربائيّ في داخل الكيس، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خالية من أيّ ظُرف وكأنّها لنبتة سامّة. أخذ رزمة المال الأولى وبدأ يعدّ. كان المبلغ كلّه موجودًا، اثنان وثمانون ألف دولار. أخذ الحقيبة الفارغة من على المقعد الخلفيّ وبدأ يرتّب رزم المال بداخلها. هذه هي الحقيبة التي سيحملها على متن الطائرة.

عند السابعة صباحًا، خرج بسيّارته من موقف السيّارات، واختلط بالحركة الصباحيّة الخفيفة للسيّارات التي تدخل مانهاتن. أوقف سيّارته في مرآب فندق بيلتمور وأسرع يصعد إلى غرفته ليحلق ذقنه ويستحمّ ويطلب خدمة الغرف.

36

بحلول الثالثة صباحًا، كان واضحًا أنّ الدليل الوحيد الذي لديهم، أي رقم لوحة تسجيل السيّارة التي استخدمها الخاطف، لا يفضي إلى شيء. كانت الصفعة الأولى حين اكتشفوا أنّ السيّارة مسجّلة باسم هنري إيه. وايت، نائب رئيس شركة الأطعمة الدوليّة في «وايت بلاينز».

هرع عملاء مكتب التحقيق الفدراليّ إلى منزل وايت في سكارسدايل ووضعوه تحت المراقبة. لكنّ سيّارة البونتياك لم تكن في موقف المنزل الذي بدا أنّه مقفل تمامًا. لم تكن أيّة نافذة في المنزل الرحب مفتوحة ولو قليلًا، كما أنّ الضوء الوحيد الذي يشعّ عبر الستائر المسدلة ربّما كان لجهاز توقيت ما.

تمّ الاتّصال بالحارس في شركة الأطعمة العالميّة، الذي اتّصل بدوره بقسم الموظّفين. كذلك، تمّ الاتّصال بأحد مدراء الإنتاج في القسم الذي يديره وايت. وبصوت يغالبه النعاس قال للمحقّقين أنّ وايت عاد حديثًا من رحلة دامت ثلاثة أسابيع في مركز الشركة الرئيسيّ في سويسرا، ثمّ تناول العشاء مع اثنين من موظّفيه في مطعم

مكتبة الرمحي أحمد

باستور في وايت بلاينز، ورحل توًّا من هناك لموافاة زوجته إلى إجازة تزلّج قصيرة، وإنّها تقيم في أسبن أو سان فالي مع أصدقاء.

عند الخامسة صباحًا، انطلق هيو وستيف باتّجاه كارلي، وكان هيو يقود السيّارة. راح ستيف يتفرّج على الطريق تمتدّ عبر وستشستر، وتقترب من كونكتيكت. كان عدد السيّارات التي خرجت قليلًا جدًّا. فقد كان معظم الناس في أسرّتهم، قادرين على الوصول إلى زوجاتهم، وعلى التأكّد من أنّ أولادهم مغطّين جيّدًا، ومن أنّ نوافذهم المفتوحة لا تسرّب الكثير من الهواء. هل كان نيل وشارون الآن في مكان بارد، يتسرّب إليه الهواء؟

تساءل لما يفكّر في ذلك. وتذكّر على نحو غامض أنّ الناس حين يعجزون عن السيطرة على الأحداث الغامرة، يهتمّون بالمشاكل الصغيرة. أما زال نيل وشارون حيّين؟ هذا ما يجب أن يقلق لأمره. نجّهما يا ربّ، نجّهما برحمتك... سأل هيو:

– ما رأيك بموضوع سيّارة البونتياك؟

أجابه:

– ربّما سيتبيّن أنّ سيّارة وايت سُرقت من حيث تركها.

– وماذا سنفعل الآن؟

– ننتظر.

– ماذا؟

– قد يطلق سراحهما، لقد وعد بذلك. المال معه.

– لقد أخفى آثاره بحذر شديد، وقد فكّر في كلّ شيء. أحقًّا تتوقّع منه إطلاق سراح شخصين قادرين على التعرّف إليه؟

أجاب هيو موافقًا:

– لا.

– أما من شيء آخر نقوم به؟

– إذا لم يفِ بوعده ويطلق سراحهما، علينا التفكير في كشف المسألة أمام وسائل الإعلام. لعلّ أحدًا سمع أو رأى شيئًا.

– وماذا عن رونالد طومبسون؟

– ما به؟

– هب أنّه يقول الحقيقة، هب أنّنا سنكتشف ذلك بعد الحادية عشرة والنصف؟

– إلامَ ترمي؟

– هل لدينا الحقّ بألاّ نعترف بأنّ نيل وشارون خُطفا؟

– أشكّ في تأثير ذلك على قرار الحاكمة بشأن طومبسون. لا دليل أبدًا على أنّ هذه العمليّة تتعلّق بخطف رهائن، لكن إذا ظنّت ذلك فقد تستعجل الانتهاء من تنفيذ الإعدام. سبق أن تعرّضت للانتقاد بسبب تأجيلها تنفيذ الإعدام بطومبسون مرّتين. أولئك الشبّان في جورجيا تمّ إعدامهم بسرعة. ولعلّ هناك تفسيرًا بسيطًا لحصول فوكسي على شريط أو كاسيت عليه صوت زوجتك... تفسيرًا لا علاقة له بموتك.

حملق ستيف أمامه، كانا يمرّان بغرينويتش. ذهب وشارون إلى حفلة في منزل براد روبرتسون في غرينويتش خلال الإجازة. ارتدت شارون تنّورة مخمليّة سوداء، وسترة من القماش المطرّز، وبدت جميلة. قال له براد:

– ستيف، إذا كان فيك شيء من العقل فستتمسّك بهذه الفتاة.

طرح سؤالًا كان يعرف إجابته، ومع ذلك، كان عليه طرحه:

– هل قد تثير الدعاية ذعر الخاطف؟

أجاب هيو بصوت مختلف وواضح:

– هذا رأيي... فيمَ تفكّر يا سيّد بيترسون؟

كان السؤال واضحًا ومباشرًا، وأحسّ ستيف بالجفاف في فمه. قال لنفسه: «إنّ ذلك مجرّد حدس، وربّما لا صلة له بالأمر، إذا شرعتُ في هذا، فقد يكلّف نيل وشارون حياتهما.»

لبث ينتظر شاحبًا، بائسًا، كغوّاص يستعدّ لقفزة سترمي به في تيّار خارج عن السيطرة. فكّر في رونالد طومبسون خلال المحاكمة، الوجه الشابّ، الخائف ولكن العنيد، وهو يقول بإصرار: «لم أقتلها، كانت ميتة قبل أن أصل إلى هناك. سلوا الصبيّ...»

«ماذا سيكون شعورك لو أنّه ابنك الوحيد؟... ماذا سيكون شعورك...»

فكر في نفسه: «إنّه ابني الوحيد يا سيّدة طومبسون.»

بدأ يتكلّم، فقال:

– هيو، هل تتذكّر ما قاله بوب كورنر حول اعتقاده بوجود صلة بين جرائم قتل النساء الأربع وجريمة قتل نينا؟

– سمعته وقلت لك ما رأيي، إنّه يتعلّق بحبال الهواء.

– افترض أنّني قلت لك إنّ كورنر قد يكون على صواب؟ وأنّ ثمّة صلة ربّما بين موت نينا وموت الأخريات؟

– ماذا تقول؟

– أتتذكّر قول كورنر إنّ الأمر الوحيد الذي لم يفهمه هو أنّ الأخريات واجهن مشاكل في سيّاراتهنّ، بعكس نينا، وأنّها خُنقت في المنزل لا في مكان ما على الطريق؟

– تابع.

– في الليلة السابقة لجريمة قتل نينا، ثُقب إطار سيّارتها. كنت في اجتماع متأخّر في نيويورك، ولم أعد إلى المنزل حتّى ما

بعد منتصف الليل. كانت نينا نائمة، لكّنني في الصباح التالي، وحين أوصلتني إلى محطّة القطار، لاحظتُ أنّ الإطار الاحتياطيّ كان مركّبًا.

– تابِع.

– تذكّر نصّ المحاكمة الذي تركه كورنر. ذكر طومبسون أنّه مازح نينا بشأن تحوّل الحظّ السيّئ إلى حظّ حسن، وهي قالت شيئًا حول اتّساع صندوق السيّارة لكلّ أكياس البقالة.

– ماذا تقول؟

– صندوق سيّارتها كان صغيرًا. إذا كان واسعًا يومذاك فهذا يعني فقط أنّ الإطار الاحتياطيّ لم يُعد إلى مكانه. كان ذلك بعد الرابعة عصرًا، ولا بدّ من أنّها عادت توًّا إلى المنزل. كانت دورا في المنزل تنظّفه يومذاك، وقالت إنّ نينا أعادتها بالسيّارة إلى المنزل قبيل الخامسة.

– ثمّ عادت ونيل توًّا إلى منزلك.

– نعم، وصعد هو للّعب بقطاراته. أفرغت نينا السيّارة، أنت تتذكّر كلّ تلك الرزم على الطاولة. نعرف أنّها ماتت في الدقائق القليلة التالية. نظرتُ إلى سيّارتها تلك الليلة، وكان الإطار الاحتياطيّ في الصندوق، وعاد الإطار الجديد إلى العجلة الأماميّة.

– هل تقول إنّ أحدهم أعاد الإطار، وغيّره، ثمّ قتلها؟

– متى كان ممكنًا تغيير الإطار إلّا آنذاك؟ وإذا كان هذا ما حدث، فقد يكون ذلك الفتى طومبسون بريئًا. لعلّه حتّى أثار رعب القاتل برنّه جرس الباب. بربّك، اعرف منه إن كان يتذكّر ما إذا كان الإطار الاحتياطيّ في الصندوق حين ملأه بأكياس البقالة. كان يجب أن أدرك، حين تفقّدتُ الإطار ليلتذاك، أنّه ربّما كان مهمًّا. لكنّني كرهتُ أن أتذكّر أنّني انفجرت غضبًا بنينا في الدقيقة الأخيرة التي كنت خلالها معها.

داس هيو بقوّة على دوّاسة الوقود، فقفز عدّاد السرعة من ستّين إلى سبعين إلى ثمانين. صرّت إطارات السيّارة في طريق المنزل مع اختراق خيوط الفجر الأولى ظلمة السماء. هرع هيو إلى الهاتف، وقبل أن يخلع معطفه، طلب رقم السجن في سومرز وطلب محادثة آمر السجن. قال: «لا، سأنتظر.» ثمّ استدار نحو ستيف وقال:

– أمضى آمر السجن الليل كلّه في مكتبه تحسّبًا لاتّصال الحاكمة به. إنّهم يحلقون شعر الفتى الآن.

– ربّاه.

– حتّى ولو زعم بأنّ الصندوق كان خاليًا، فهذا ليس دليلًا. لا يزال كلّ شيء افتراضًا. لعلّ أحدهم أحضر الإطار وغيّره لها، وذهب. هذا لا يكفي لإنقاذ طومبسون.

قال ستيف: «كلانا يعتقد أنّ طومبسون بريء.» ثمّ فكّر في نفسه بغير حماسة: «لطالما اعتقدتُ ذلك. ربّاه، لطالما اعتقدتُ ذلك في قلبي ولم أواجهه قطّ.»

قال هيو بالهاتف: «نعم، أنا هنا...» أصغى قليلًا وأضاف: «شكرًا جزيلًا.» ألقى سمّاعة الهاتف بقوّة وقال:

– طومبسون يقسم بأنّ الإطار الاحتياطيّ لم يكن في الصندوق حين وضع أكياس البقالة.

رجاه ستيف قائلًا:

– اتّصل بالحاكمة، أخبرها... توسّل إليها، أن تؤجّل تنفيذ الإعدام على الأقلّ، دعني أكلّمها إذا كان ذلك سيفيد.

كان هيو يتّصل بمركز حاكم الولاية، وهو يقول:

– هذا ليس دليلًا، بل سلسلة من المصادفات. أشكّ في أن تؤجّل

الإعدام بسبب هذا الأمر. حين تسمع خبر اختفاء شارون ونيل... وعليك أن تخبرها هذا الأمر الآن... قد تعتقد بأنّ هذه خدعة أخيرة.

لم يكن الاتّصال بالحاكمة ممكنًا على الإطلاق، وقد حوّلت كلّ طلبات تأجيل تنفيذ الإعدام إلى المدّعي العامّ لتقييمها. وهو سيكون في مكتبه عند الثامنة صباحًا. لا، لا يمكن إعطاء رقمه الخاصّ.

لم يكن أمام هيو وستيف سوى الانتظار، فجلسا بصمت في المختلى مع تغلغل ضوء الصباح الخافت والمبللّ عبر النافذة. حاول ستيف أن يصلّي، لم يستطع سوى التفكير في هذه الكلمات: «ربّاه، هم صغار في السنّ، هم الثلاثة صغار في السنّ جدًّا... رجاءً...»

عند السادسة صباحًا، نزلت دورا الدرج بخطوات ثقيلة وغير ثابتة. بدت وكأنّها قد شاخت واستبدّ بها الوهن، وبدأت تعدّ القهوة بصمت. عند السادسة والنصف اتّصل هيو بمركز مكتب التحقيق الفدراليّ في نيويورك، لكن لم يكن هناك من أدلّة جديدة. كان هنري وايت قد سافر برحلة عند منتصف الليل إلى سان فالي. تأخّروا في الوصول إليه قبل مغادرته المطار، وقد أقلّته من هناك سيّارة خاصّة. كانوا يحقّقون في سجلّات الفنادق وإيجارات الشقق السكنيّة. ولم يعد بلاغ البحث عن سيّارة البونتياك بأيّ نتائج، وكانوا يواصلون التحقّق من زبائن حانة «ميل تافرن» الدائمين.

عند السابعة والنصف، وصلت سيّارة بوب كورنر بسرعة جنونيّة وتوقّفت في طريق المنزل. رنّ الجرس رنًّا جنونيًّا، ثمّ تجاوز دورا غاضبًا وطالب بمعرفة سبب استجواب رونالد عن الإطار الاحتياطيّ. رمى هيو ستيف بنظرة، فوافق هذا الأخير. ثمّ شرح هيو الأمر باقتضاب. شحب لون بوب، وسأل ستيف قائلًا:

– أتعني أنّ ابنك وشارون مارتن خُطفا يا سيّد بيترسون، وأنّك تتكتّم على الأمر؟ حين تعلم الحاكمة بهذا الأمر، سيكون عليها تأجيل تنفيذ الإعدام، لا خيار لها.

حذّره هيو قائلًا:

– لا تعتمد على ذلك.

قال بوب بمرارة:

– سيّد بيترسون، أنا آسف من أجلك، لكن لم يكن لديك الحقّ بألاّ تطلعني على الأمر مساء أمس. ربّاه، ألا يمكننا الاتّصال بالمدّعي العامّ قبل الثامنة؟

– لم يبق أمامنا سوى عشرين دقيقة.

– عشرون دقيقة وقت طويل حين لا يعود أمام المرء من الحياة سوى ثلاث ساعات وخمسين دقيقة، يا سيّد تايلور.

في تمام الثامنة اتّصل هيو بالمدّعي العامّ، ودام حديثهما الهاتفيّ خمسًا وثلاثين دقيقة. كان يتحدّث بصوت قويّ، ويجادل، ويتوسّل:

– نعم، سيّدي، أدرك أنّ الحاكمة قد أجّلت تنفيذ الحكم مرّتين... أفهم أنّ المحكمة العليا في كونكتيكت صدّقت على الحكم بالإجماع... لا يا سيّدي، لا دليل لدينا... لكنّ هذا أكثر من مجرّد تكهّن، الكاسيت... نعم يا سيّدي، أقدّر منك الاتّصال بالحاكمة... هل أجعل السيّد بيترسون يكلّمك... حسنًا، سأنتظر.

وضع هيو يده على مأخذ الصوت في السمّاعة وقال لستيف:

– سيتّصل بها، لكن دعني أقول لك إنّه لن يوصيها بتأجيل الحكم.

مرّت دقائق ثلاثة بصمت، لم يتبادل خلالها هيو وستيف نظرة واحدة. بعدئذ قال ستيف:

– نعم، أنا هنا.. لكن...

كان هيو يواصل الاحتجاج حين سمع ستيف صوت طنين الهاتف. وضع هيو الهاتف من يده وقال لهما بدون حماسة:

– حكم الإعدام سينفّذ في موعده.

37

الألم. كان التفكير صعبًا جدًّا فيما الألم يمزّق جسدها كالرصاصة. ليتها فقط تستطيع فكّ زمّام حذائها. كان كاحلها كتلة من الإسمنت المشتعل، ويتورّم محصورًا في الحذاء، في الحبل الذي يلسعه.

كان يجب أن تجازف وتصرخ حين مرّوا في المحطّة الطرفيّة. ليتها جازفت آنـذاك. كم الساعة؟ لا وجـود للوقت. ليل الإثنين، الثلاثاء، هل حلّ الأربعاء؟ كيف يمكنهما الذهاب من هنا؟

نيـل. كـان بوسعها سماع صوت تنفّسه الصعب قريبًا من أنفاسها. كان يحاول التنفّس ببطء، ويحاول إطاعتها. سمعت شارون الأنّات تنبعث من شفتيها، فحاولت عضّهما للجمها. شعرت بنيل ينزلق ليقترب منها، محاولًا التخفيف عنها. سيكون نيل كستيف حين يكبر، هذا إذا كبر...

ستيف. كيف ستكون حال العيش مع ستيف، وتأسيس حياة معه ومع نيل؟ ستيف الذي عانى الكثير من الألم.

كان كلّ شيء سهلًا جدًّا بالنسبة إليها. وكان والدها يقول: «شارون وُلدت في روما... وبات في مصر... وتينا في هونغ كونغ...»

أمّا أمّها فكانت تقول: «لنا أصدقاء في أنحاء العالم كلّها...» حتّى حين يكتشفون موتها، فسيبقون عائلة يتعزّى أفرادها واحدهم بالآخر، لكن حين يخسر ستيف نيل، فلن يكون لديه أحد...

سألها ستيف: «لماذا لا تزالين عزباء؟» لأنّها لم تُرد مسؤوليّة أن تحب أحدًا آخر.

نيل... كان خائفًا جدًّا من أن يأخذه الزوجان لوفتس معهما، خائفًا جدًّا من أن تأخذ ستيف منه. كان عليها إنقاذه من هذا المكان.

مجدّدًا حاولت حفّ معصميها على جدار الحجارة الإسمنتيّة، لكنّ الحبال كانت مشدودة جدًّا، وتضغط على معصميها، فلم تستطع جعلها تحتكّ بالجدار. حاولت التفكير. كان أملها الوحيد إنقاذ نيل، وإخراجه من هذه الغرفة. إذا فتح الباب من الداخل، هل تنفجر القنبلة؟ القبضة في المرحاض. إذا عاد فوكسي، إذا تركها تدخل المرحاض من جديد، ربّما يمكنها خلع المقبض...

ماذا سيفعل بهما حين يحصل على المال؟ كانت تغفو. الوقت... كم من الوقت... الوقت يمرّ... هل كان الوقت نهارًا أم ليلًا... أصوات قطارات مكتومة... تعال لإنقاذنا يا ستيف... أنا ألومك يا آنسة مارتن... تلك هي المسألة يا آنسة مارتن... لا أحد أعمى كمن لن يروا... أحبّك يا شارون... اشتقت إليك كثيرًا... يدان كبيرتان ورقيقتان على وجهها...

يدان كبيرتان ورقيقتان على وجهها. فتحت شارون عينيها فرأت فوكسي منحنيًا فوقها. وبرقّة مريعة كانت يداه تداعبان وجهها، وعنقها. أنزل الكمامة عن فمها وقبّلها. كانت شفتاه ساخنتين جدًّا، وفمه لزجًا. حاولت أن تدير رأسها، لكنّ ذلك تطلّب جهدًا كبيرًا. همس لها:

– انتهى كلّ شيء يا شارون. المال معي. عليّ الرحيل الآن.

حاولت تركيز نظرها عليه. ظهرت ملامحه من الضبابيّة المحيطة بها، عينان برّاقتان ونبض متردّد وشفتان ضيّقتان... بصعوبة بالغة في الكلام، قالت له:

– ماذا ستفعل بنا؟

– سأترككما هنا، وأخبر بيترسون أين يستلمكما.

كان يكذب، كما في الماضي، حين كان يوهمها ويلاعبها. لا، لقد حاولت خداعه، ثمّ دفعها أرضًا.

– سوف تقتلنا.

– هذا صحيح يا شارون.

– أنت قتلت والدة نيل...

– صحيح يا شارون. أوه، كدت أنسى.

ابتعد عنها، ومدّ يده إلى الأسفل، وراح يفتح شيئًا ملفوفًا. قال: «سأضع هذه الصورة مع الصور الأخرى.» رأت فوقها صورة: كانت عينا نيل تحملقان فيها من الأعلى، عينان في جثّة ممدّدة، جثّة حول عنقها منديل... مزّقت حلقها صرخة، جعلتها تنسى الألم والدوار. فجأة استعادت وبشكل كامل تفكيرها المنطقيّ، وتركيزها، وراحت تنظر إلى الصورة وإلى العينين البرّاقتين والمجنونتين للرجل الذي يحملها.

علّقها بقرب الصور الأخرى على الجدار فوق السرير... علّقها بعناية كبيرة، بدقّة تقارب حدّ الطقوس الدينيّة. راقبته بخوف. هل سيقتلهما الآن، ويخنقهما كما خنق أولئك النسوة؟ قال لها:

– سأضبط الساعة الآن.

– الساعة؟

– نعم، سأوقّت القنبلة لتنفجر عند الحادية عشرة والنصف. لن تشعري بشيء يا شارون. بل فقط ستموتين... ويموت نيل... ويموت رونالد طومبسون...

راح يفتح الحقيبة بحذر وعناية. راقبته وهو يخرج الساعة، وينظر في ساعة يده ويضبط الساعة على الثامنة والنصف. كانت الساعة آنذاك الثامنة والنصف من صباح الأربعاء. جهاز الإنذار... ضبط جهاز الإنذار على الحادية عشرة والنصف، ثمّ راح يوصل الأسلاك بالساعة. ثلاث ساعات.

حمل الحقيبة بحذر، ووضعها فوق المغسلتين العميقتين بقرب الباب. كان ميناء الساعة أمامها مباشرة في الجهة المقابلة من الغرفة، يتوهّج فيه عقرباها وأرقامها.

– أتريدين شيئًا قبل أن أذهب يا شارون... كوب ماء... أتريدينني أن أقبّلك قبلة الوداع؟

– أيمكنني... هل تدعني أدخل المرحاض؟

– طبعًا يا شارون.

أتى إليها وفكّ قيد يديها، وحملها. انهارت ساقاها تحتها، وارتعدت ألمًا. انسدلت فوق عينيها ستائر سوداء. لا... لا... لا... لا يمكنها أن تفقد الوعي.

تركها داخل المرحاض، ممسكة بمقبض الباب. أدارته مرّة بعد مرّة بعد مرّة، راجية ألاّ يُسمع صوت دورانه، سمعت صوت انقصاف خفيف وانفصل المقبض. مرّرت يدها على الطرف المفصول، وشعرت بالحافّة المسنّنة للمعدن المكسور. وضعت المقبض في الجيب العميق لتنّورتها. حين فتحت الباب، كانت إحدى يديها في تنّورتها. إن أحس بشيء وهو يحملها عائدًا إلى السرير، فسيظنّه قبضتها.

نجح الأمـر، ففوكسي يستعجل الخـروج مـن هـذا المكان. رماها على السرير، وأعاد تقييد يديها بسرعة. استطاعت إبقاءهما متباعدتين قليلًا، ولم تكن تلك الحبال شديدة كالحبال الأخرى. شدّ الكمامة على فمها، ثمّ انحنى فوقها، وقال:

– كان بإمكاني أن أحبّك كثيرًا يا شارون، مثلما أظنّ أنّه كان بإمكانك أن تحبّيني.

وبحركة سريعة نزع العصابة عن عيني نيل. طرفت عينا نيل المنتفختين في حدقتيه الضخمتين. نظر الرجل مباشرة في العينين، ثمّ مالت نظرته إلى الصورة على الجدار، وعاد بها إلى وجه نيل. ألقى بوحشيّة رأس الصبيّ، ثمّ استدار وأطفأ النور، كما انسلّ خارجًا من الغرفة في المرّة الأولى.

نظرت شارون إلى الساعة المتوهّجة، فكانت تشير إلى الثامنة والدقيقة السادسة والثلاثين.

38

كانت الأوراق مبعثرة على سرير غلندا، والصفحات متغضّنة. بدأتْ من جديد.

– لا... في الرابع عشر لم أذهب مباشرة إلى الطبيب، توقّفت في المكتبة... دوِّن هذا يا روجر... كلّمتُ شخصين هناك...

– سأبدأ بورقة جديدة، هذه الورقة أصبحت غير واضحة. مَن كلّمتِ في قاعة الانتظار في عيادة الطبيب؟

راجعا بدقّة كلّ تفصيل في الشهر الذي خلا، لكنّ شيئًا لم يذكّر غلندا بالرجل الذي يدعو نفسه فوكسي. عند الرابعة صباحًا، وبناء على إلحاحها، اتّصل روجر بمركز مكتب التحقيق الفدراليّ وطلب محادثة هيو. سأله هيو عن الاتّصال.

– يقول إنّ الخاطف وعد بأنّه بإمكان ستيف استلام شارون ونيل عند الحادية عشرة والنصف.

– لا أظنّهم يثقون به، هل يفعلون؟

– لا، لا أظنّهم يفعلون.

– إن كان شخصًا مألوفًا لديّ، فقد يكون شخصًا من هذه المنطقة يعرفه نيل، لذلك لم يستطع ترك نيل وشأنه.

– غلندا، كلانا متعب وعاجز عن التفكير. لنحاول النوم ساعات قليلة، لعلّك تتذكّرين شيئًا بعد ذلك. فاللاوعي يعمل بشكل جيّد حين ينام المرء، تعرفين ذلك.

– حسنًا.

ثمَ بدأت متعبة بتجميع أكوام الأوراق بالترتيب الزمنيّ. ضبط روجر المنبّه على الساعة السابعة، وناما لثلاث ساعات نومًا مرهقًا ومضطربًا. عند السابعة نزل روجر ليعدّ الشاي، ووضعت غلندا حبّة نيتروغليسرين تحت لسانها، ثمّ دخلت المرحاض، وغسلت وجهها وعادت إلى السرير وأخذت دفترها. عند التاسعة وصلت ماريان، وعند التاسعة والربع صعدت لترى غلندا، وقالت لها:

– آسفة لأنّك لا تشعرين بالارتياح، يا سيّدة بيري.

– شكرًا.

– سأبتعد عن طريقك. إن لم تمانعي، سأركّز على العمل في الطابق الأسفل غرفةً بعد الأخرى.

– سيكون هذا حسنًا.

– وهكذا ومع نهاية الأسبوع، يصبح الطابق الأسفل في أفضل حال. أرى أنّك تحبّين أن يبقى المنزل نظيفًا.

– صحيح، شكرًا.

– أنا مسرورة لأنّني هنا، ولم أخيّب أملك بسبب المشكلة التي عانيناها مع سيّارتنا.

– ذكر لي زوجي شيئًا عن الأمر.

تعمّدت غلندا رفع قلمها وأبقته مرفوعًا في يدها، لكنّ ماريان تابعت تقول:

– هذا رهيب حقًّا. توًّا بعدما أنفقنا أربعمئة دولار على تصليحها. في العادة نحن لا ننفق مبلغًا كهذا على سيّارة قديمة، لكنّ آرتي ميكانيكيّ ممتاز، وقال زوجي إنّ تصليح السيّارة يستحقّ هذا المبلغ. أرى أنّك مشغولة، ويجب ألاّ أثرثر. أترغبين في فطور صغير؟

– لا، شكرًا يا سيّدة فوغلر.

خرجت ماريان وأغلقت الباب خلفها. بعد دقائق أتى روجر وقال لها:

– كلّمتُ بعض الأشخاص في المكتب وقلت لهم إنّني مصاب بالزكام.

– روجر... مهلًا.

ضغطت غلندا على زرّ المسجّلة، وملأت أذنيهما الجملة التي باتت مألوفة: «كن في محطّة خدمة إكسون...» ثمّ أوقفت غلندا المسجّلة وسألت زوجها:

– متى أخذت سيّارتي إلى المرآب لخدمة الصيانة؟

– منذ أكثر من شهر بقليل، كما أظنّ. أخذها بيل لوفتس إلى ذلك المكان الذي أوصى به.

– نعم، وحين أصبحت جاهزة أوصلتَني في طريقك إلى العمل... كان اسمه آرتي، أليس كذلك؟

– أعتقد ذلك، لماذا؟

– لأنّ السيّارة كانت جاهزة، لكنّه أراد ملأها بالوقود. وقفت بجانب السيّارة ورحت أكلّمه. قرأتُ على لافتته: «أ. ر. تاغرت»، وسألته عمّا إذا كانت الألف في اسمه تشير إلى أرثر... لأنّني سمعتُ بيل يناديه باسم آرتي. يا روجر...

ارتفعت الحدّة في صوت غلندا، جلست في سريرها وأمسكت بيد زوجها، وأضافت:

– روجر، لقد أخبرني أنّ الناس هنا بدأوا ينادونه آرتي بسبب اللافتة التي كُتب عليها «أ. ر. تاغرت»، لكنّ اسمه الحقيقيّ هو أوغست رومل تاغرت. فقلت له: «رومل»... ألم يكن ذلك القائد الألماني المشهور؟ فأجاب بنعم، وأنّ رومل كان ثعلب الصحراء، إنّ طريقته في قول «ثعلب»... وطريقته في قول «فوكسي[1]» بالهاتف منذ ليلتين... روجر! أقسم لك أنّ ذلك الميكانيكيّ هو فوكسي، وأنّه هو خاطف نيل وشارون!

كانت الساعة آنذاك تشير إلى التاسعة والدقيقة الحادية والثلاثين.

كلمة «فوكس» بالإنكليزيّة تعني الثعلب.

39

قـرّرت لالـي الذهـاب إلـى غرفتها. اليوم هـو يـوم إجـازة أولـنـدورف، والحارس الآخر لن يزعجها أبدًا. لم تنم طوال الليل، فقد شعرت بأنّها مريضة. كان التهاب المفاصل يؤلمها جدًّا، لكنّها شعرت بما هو أكثر من ذلك، شعرت بأنّ شيئًا ما في داخلها يتدهور. أرادت فقط أن تدخل غرفتها وتتمدّد على السرير وتغمض عينيها. كان عليها أن تفعل ذلك.

سـارت مـع ركّـاب قطار ماونت فرنون عند الثامنة والدقيقة الأربعين، ومضت إلى المنحدر. حملت في كيسها جرائد إضافية لتتغطّى بها لكنّها لم تتوقّف لشراء القهوة. لم تكن عطشى إلى شيء، إلّا غرفتها.

لم تبالِ باحتمال أن يكون الرجل هناك، فسوف تجازف. شعرت بأصوات المولّدات الكهربائيّة والمهاوي تريحها وترحّب بها. المكان كئيب هنا، شأنه دائمًا، لكنّها ترتاح إليه. كان خفّاها الثقيلان صامتين، وسارت إلى السلّم، حين تناهى إليها الصوت.

سمعت آنذاك الصوت المكتوم لباب يُفتح ببطء، بابها. توارت لالـي خلف المولّد الكهربائيّ في الظلمة. سمعت صوتًا منخفضًا

لخطوات خفيفة. كان الرجل عينه ينزل الدرجات المعدنيّة، فتوارت أكثر نحو الخلف وألصقت ظهرها بالحائط. هل عليها أن تواجهه؟ لا... لا... نبّهتها غرائزها إلى ضرورة الاختباء. راقبته يقف ويصغي جيّدًا، ثمّ يمضي مسرعًا نحو المنحدر. ما هي إلّا دقيقة حتّى يتوارى وتصبح في غرفتها، وإذا وجدت الفتاة فيها، فستخيفها لتخرج.

مدّت أصابعها المصابة بداء المفاصل والمرتعشة إلى جيبها تسحب المفتاح، الذي سقط مصدرًا صوت ارتطام بالأرض المعدنيّة. فحبست أنفاسها. هل سمع؟ لم تجرؤ أن تنظر حولها لتعرف الجواب، لكنّ صوت الخطوات المعدنيّة غاب تمامًا، ولم تسمع صوت أحد يعود. انتظرت عشر دقائق، عشر دقائق طويلة، وهي تحاول أن تهدّئ خفقان قلبها. ثمّ انحنت ببطء وألم، وتحسّست الأرض بحثًا عن المفتاح. كان المكان مظلمًا جدًّا ونظرها ضعيفًا جدًّا. أحسّت بمعدن المفتاح وتنهّدت بارتياح.

ما إن بدأت لالي تقف حتّى ارتطم بظهرها شيء معدني بارد. شهقت حين لامس جلدها وانغرز فيه، بحدّة هائلة وسرعة كبيرة لدرجة أنّها كادت لا تحسّ بالألم الشديد ولا بتدفّق دمها، فيما هوت على ركبتيها وانبسطت ذراعها اليسرى. غابت لالي عن الوعي وقبضتها اليمنى مغلقة على مفتاح غرفتها.

40

عند التاسعة والنصف، اتّصل عميل من مركز مكتب التحقيق الفدراليّ بهيو تايلور في منزل ستيف، وقال له:

– نظنّ أنّنا وجدنا شيئًا يا هيوغي.

– ما هو؟

– آرتي، ذلك الميكانيكيّ... آرتي تاغرت.

– أجل.

– هناك رجل يدعى غاس تاغرت، قُبض عليه لأنّه كان يطيل المكوث بقرب مركز إدارة المرفأ منذ نحو اثني عشر عامًا، للاشتباه فيه في اختفاء فتاة هاربة عمرها ستّة عشر عامًا. لم نستطع تأكيد شيء ضدّه لكنّ كثيرين يعتقدون أنّه فعل بها شيئًا ما. كما استُجوب في موضوع اختفاء فتيات أخريات. وأوصافه مطابقة للأوصاف التي أعطيتنا إيّاها.

– عمل جيّد. ماذا تملكون ضدّه أيضًا؟

– نحاول التحقّق من حيث كان يقيم. مارس بعض الأعمال في نيويورك، في ملء الوقود في وست سايد، ومساعد نادل في مطعم وضيع في الجادّة الثامنة، وغاسل صحون في أويستر بار...

- ركّزوا على حيث كان يقيم، واعرفوا إن كانت له عائلة.

أنهى هيو المكالمة الهاتفيّة وقال بحذر:

- سيّد بيترسون، لعلّ لدينا دليلًا جديدًا. يبدو أنّ ميكانيكيًا يتردّد إلى حانة ميل تافرن كان مشتبهًا به في قضايا اختفاء عدّة فتيات منذ نحو اثني عشر عامًا، واسمه آرتي تاغرت.

قال ستيف بصوت ارتفعت نبرته فجأة:

- ميكانيكيّ... ميكانيكيّ!

- تمامًا، أعرف ما تفكّر فيه. الاحتمال ضئيل، لكن إذا كان أحدهم قد أصلح إطار سيّارة زوجتك في ذلك اليوم، هل من الممكن أنّها دفعت له شيكًا؟ هل لديك شيكات ملغاة أو أرومات شيكات من يناير قبل عامين؟

- نعم... سأنظر في ذلك.

- تذكّر، نحن فقط ندقّق في كلّ دليل يمكننا العثور عليه. لا دليل لدينا على الإطلاق حول آرتي هذا، سوى أنّه استُجوب ذات مرّة منذ سنوات.

- سأرى.

مضى ستيف إلى مكتبه. ثمّ رنّ جرس الهاتف، وكان المتحدّث روجر بيري يصيح بأنّ غلندا متأكّدة من أنّ ميكانيكيًا يدعى أ. ر. تاغرت هو فوكسي.

وضع هيو سمّاعة الهاتف من يده بقوّة، وفيما كان يوشك على الاتّصال بنيويورك، رنّ الهاتف مجدّدًا. في الحال زعق: «نعم.» ثمّ تغيّر تعبير وجهه وأصبح مبهمًا، وقال:

- ماذا؟ مهلًا... ابدأ من جديد.

نظر ستيف إلى عينَي هيو تضيقان من شدّة التركيز، وحين أخذ هذا الأخير قلمًا بسرعة، حمل له ستيف دفترًا للكتابة عليه. تجاهل محاولة هيو حجب ما كان يكتبه، وحملق في الدفتر متمعّنًا في الكلمات التي تُكتب

شكرًا على المال، كلّه هنا. لقد وفيت بوعدك، والآن سأفي بوعدي. نيل وشارون حيّان. عند الحادية عشرة والنصف، سيُعدَمان في انفجار في ولاية نيويورك. وفي ركام ذلك الانفجار يمكنك البحث عن جثّتيهما.

فوكسي.

قال هيو: «كرّر ما قلت لأتأكّد من أنّني دوّنته بصورة صحيحة.» وبعد قليل قال: «شكرًا. سنتّصل بك بعد قليل.» وأقفل الخطّ. سأله ستيف الذي شلّه خدرٌ عطّل قدرته على التفكير وعلى الخوف:

– من تلقّى هذا الاتّصال؟

انتظر هيو دقيقة طويلة قبل أن يجيب بصوت منهَك جدًّا:

– الحانوتيّ الذي اهتمّ بجنازة زوجتك.

كانت الساعة آنذاك التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثون.

41

لو أنّ تلك العجوز الشمطاء لم تُثر ذاك الضجيج!

كان العرق يتصبّب من كلّ جسد آرتـي، وباتت رائحة بزّته الخضراء الجديدة كريهة جدًّا الآن، شأنها دائمًا بعدما...

هب أنّـه لم يسمعها. لا بدّ من أنّها هي مَن كانت تقيم في الغرفة، والتي أخذت إليها السرير. هذا يعني أنّ لديها مفتاحًا بلا شكّ. لو لم يسمعها لدخلت الغرفة ووجدتهما، ولتسنّى لهم الوقت للاتّصال بخبراء لتعطيل القنبلة.

سار مسرعًا عبر المحطّة الطرفيّة إلى الممرّ المفضي إلى فندق بالتيمور، وأخذ السيّارة من موقف الفندق، وقد سبق له أن وضع فيها الحقيبتين والجهاز اللاسلكيّ. قادها بسرعة عبر طريق إيست سايد نحو جسر تاريبورو. ذلك كان الطريق الأسرع إلى لاغارديا. كان شديد الاستعجال لمغادرة نيويورك، وموعد الرحلة بالطائرة إلى فينكس عند العاشرة والنصف.

عاد إلى موقف السيّارات الذي غادره قبل ساعات قليلة فقط. هدّأت من روعه فكرة مدى نجاح خطّته في الحصول على الفدية.

هذه المرّة ركن سيّارته الفولكسفاغن بعيدًا عن بوّابة تذاكر الدخول، في المنطقة حيث يركن الناس سيّاراتهم في انتظار الحافلة الشرقيّة، تلك المنطقة كانت شديدة الازدحام دائمًا. كان قد أزال بالمبرد رقم محرّك الفولكسفاغن، ولم يكن تعقّب رقم لوحة التسجيل ليقود إليه، فقد نزعها عن أنقاض سيّارة منذ خمسة أعوام. وفي أيّة حال سينقضي شهر قبل أن يلاحظ أحد أن سيّارة الفولكسفاغن متوقّفة في هذا الموقف منذ وقت بعيد.

أخذ من صندوق السيّارة حقيبتيه، الخفيفة وفيها الملابس والكاسيتات، والثقيلة وفيها المال، وعلبة الجهاز اللاسلكيّ. ولم يعد في السيّارة ما يربطه بها قطّ.

سار مسرعًا إلى موقف الحافلات، ثمّ وصلت حافلة المطار المجانيّة، فصعد إليها. نظر إليه الركّاب الآخرون غير مبالين. استطاع أن يشعر باحتقارهم إيّاه، لمجرّد أنّ ملابسه لم تكن أنيقة. جلس بقرب فتاة جذّابة جدًّا في نحو عامها التاسع عشر، ولم يستطع سوى أن يلاحظ تكشيرة الاشمئزاز التي بدرت منها، وكيف أشاحت بوجهها بعيدًا عنه. ساقطة. هي تجهل أنّه رجل ذكيّ وثريّ.

توقّفت الحافلة في محطّة الطائرات الداخليّة. سار مسافة مئتي قدم حتّى المدخل الخاصّ لمكتب شركة الخطوط الجويّة الأميركيّة. كان موظّف يتولّى إدخال الأمتعة، ولن يكون عليه جرّ كلّ أمتعته حيثما ذهب. أخرج تذكرة سفره، وهي باسم «رونار»، ويعني بالفرنسيّة «الثعلب»، وهو كان الاسم الذي خطّط لاستخدامه في أريزونا.

– هل تريد إدخال القطع الثلاث يا سيّدي؟

– لا! لا تُدخل هذه!

وسحب بقوّة حقيبة المال من أمام الموظّف، الذي قال له:

– آسف يا سيّدي، لستُ واثقًا من أنّ بوسعك حمل حقيبة بهذا الحجم على متن الطائرة.

أجاب، متعمّدًا التكلّم بصوت أقلّ حدّة:

– يجب عليّ ذلك. لديّ فيها أوراق يجب أن أعمل عليها.

هزّ الموظّف بكتفيه وقال:

– حسنًا يا سيّدي، أظنّ المضيفة تستطيع دائمًا وضعها في خزانة المقصورة عند الضرورة.

كانت الساعة آنذاك التاسعة والدقيقة الثامنة والعشرون، وشعر بالجوع من جديد. لكن كان عليه أن يقوم باتّصال أوّلًا. اختار كشك هاتف في إحدى زوايا المحطّة البعيدة، ودوّن ما يريد قوله لكي لا يرتكب أيّة أخطاء. تخيّل ما سيفكّر فيه حين يتلقّى الرسالة.

ردّ الحانوتيّ على الاتّصال بسرعة، فقال له فوكسي بصوت منخفض:

– سيكون عليك أن تستلم جثّتين.

أجاب الآخر بخضوع:

– طبعًا يا سيّدي، مَن المتّصل؟

– هل أنت مستعدّ لتدوين ما أقول؟

– طبعًا.

تغيّر صوت فوكسي وأصبح قاسيًا، وأضاف:

– إذًا دوّنه، وأعِد قراءة ما أقول لتتأكّد من أنّك دوّنته على نحو صحيح.

بدأ فوكسي يملي رسالته، مستمتعًا بشهقات الصدمة التي يسمعها عبر الهاتف، ثمّ طالب الرجل بإعادة قراءتها، ففعل بصوت مرتجف، وقال:

– ربّاه، رجاءً...

أقفل فوكسي الخطّ وهو يبتسم. ثمّ دخل إلى مقصف في المحطّة الطرفيّة واختار لحمًا قديدًا ولفافات عجائن وعصير برتقال وقهوة. أكل ببطء وهو يشاهد الناس يمرّون مسرعين.

آنذاك بدأ يشعر بالاسترخاء. فقد جعلته فكرة الاتّصال بدار الحانوتيّ يضحك في أعماقه. أراد في البداية تحذيرهم من وقوع انفجار في مدينة نيويورك، وفي الدقيقة الأخيرة غيّر رأيه ليقول «ولاية نيويورك» تخيّل الجنون يصيب أفراد الشرطة، وفكّر في أنّ ذلك سيفيدهم كثيرًا.

أريزونا، أرض الصحراء المرسومة.

كان النظر في عيني الفتى ضروريًّا. بعد اليوم، لن يكون عليه الهروب منهما مجدّدًا. تخيّل ما ستكون عليه الحال عند الحادية عشرة والنصف في محطّة غراند سنترال. عصف الانفجار سيتّجه إلى الأعلى، فينهار السقف بكامله على نيل وشارون... أطنان وأطنان من الإسمنت.

كان من السهل إعداد قنبلة، تمامًا كما كان من السهل تصليح محرّك: لم يكن عليه سوى قراءة التعليمات. العالم كلّه سيرغب الآن في أن يعرف مَن هو فوكسي، ولعلّهم سيكتبون عنه كما كتبوا عن رومل.

أنهى قهوته، ومسح فمه بظهر يده. نظر عبر النافذة إلى الناس يحملون الحقائب ويمضون مسرعين عبر المحطّة الطرفيّة إلى بوّابات المغادرة. تذكّر التفجير في مطار لاغارديا منذ عامين، الذي أثار الهلع الشديد وتسبّب بإقفال المطار. لقد شاهد ذلك عبر التلفزيون.

منذ تلك اللحظة بدأت صورة ترتسم في ذهنه: رأى نفسه في حانة في فينكس يشاهد الأخبار والتقرير عن الانفجار في محطّة غراند سنترال. ستنقل كلّ محطّات التلفزة في العالم هذا الخبر. لكنّ من الأفضل أن يكون لدى أفراد الشرطة مكان يبدأون منه. هذا ما فعله الأشخاص الذين زرعوا تلك القنابل في مباني المكاتب. فقد اتّصلوا وأعطوا لائحة بالأماكن التي قد يضعون فيها قنابل، وحار أفراد الشرطة في أين يبدأون بالبحث. فكان عليهم إخلاء كلّ المباني التي تحدّثوا عنها.

ما زال بوسعه أن يفعل أمرًا كهذا. ماذا عليه أن يخبرهم؟ حدّق إلى الخارج: كان هذا مطارًا مزدحمًا، والناس يروحون ويجيئون مسرعين فيه، وهو لم يكن حتّى كبيرًا كمطار كينيدي.

تمامًا مثل محطّة غراند سنترال، أو محطّة الحافلات الطرفيّة، الجميع مستعجلون، ولا أحد يعير أحدًا اهتمامًا. إنّهم يريدون فقط أن يصلوا إلى حيث يذهبون، ولا يلاحظون أحدًا ولا يبادلون أحدًا ابتسامة.

شيئًا فشيئًا راحت فكرة تتشكّل. هب أنّه حذّر أفراد الشرطة، هب أنّه أخبرهم أنّ شارون ونيل والقنبلة في مركز نقل في مدينة نيويورك. سيعني هذا أنّه سيكون عليهم إخلاء المطارين ومحطّتَي الحافلات الطرفيّتين ومحطّة بن، إضافة إلى محطّة غراند سنترال. وسيبدأون البحث تحت المقاعد في قاعات الاستقبال ويفتحون الخزائن. لن يعلموا أين يبدأون. وكلّ أولئك الأشخاص، كلّ أولئك الأشخاص التافهين، سيُرغَمون على الخروج من تلك الأماكن كلّها، وعلى تفويت قطاراتهم وطائراتهم وحافلاتهم.

لن يعثروا على شارون ونيل أبدًا، أبدًا. الشخص الوحيد الذي كان على علم بتلك الغرفة هو تلك العجوز الشمطاء، وقد تولّى أمرها.

كان وحده قادرًا على إبقاء الناس داخل أو خارج أكبر مدينة في العالم باتّصال واحد بعد. ظنّ بيترسون أنّه شخص مهمّ بمجلّته وحساب ائتمانه وحبيبته. ضحك فوكسي بصوت مرتفع، ما جعل الرجل والمرأة الجالسين إلى الطاولة القريبة منه ينظران إليه باستغراب.

كان يرغب في الاتّصال قبيل الصعود إلى الطائرة. بمَن يتّصل؟ بدار الحانوتيّ مجدّدًا؟ لا. مَن أيضًا سيتأكّد من أنّ الاتّصال ليس مزيّفًا؟

عرف الجواب. ابتسم، وتوقّع ردّة الفعل التي سيلقاها، وطلب فنجان قهوة آخر. إنّها العاشرة والدقيقة الثانية عشرة، والحقيبة في يده. تعمّد أن يتأخّر حتّى هذا الوقت لكي يكونوا في عجلة من أمرهم حين يصوّرون الأمتعة الداخلة بالأشعّة السينيّة. لن يشعر أحد بفضول زائد بشأن حقيبته، فشركات الطيران تحبّ الالتزام بمواعيد رحلاتها.

عند العاشرة والربع، انسلّ داخلًا إلى كشك هاتف بقرب بوّابة المغادرة رقم 9، وأخرج من جيبه نقودًا معدنيّة من فئة الربع دولار والعشر سنتات وطلب رقمًا. حين رُفعت السمّاعة في الطرف الآخر، همس برسالة. أعاد فوكسي سمّاعة هاتفه برفق إلى مكانها، وسار إلى مكتب الدخول، واجتاز التفتيش بدون أيّ عائق. كانت لافتة «ركوب الطائرة» تومض فيما سارع عبر قاعة الانتظار إلى الممرّ المسقوف المؤدّي إلى الطائرة. كانت الساعة آنذاك العاشرة والدقيقة السادسة عشرة.

مكتبة الرمحي أحمد

42

كانت ملابسها رطبة ودافئة وملتصقة بجسدها، وأحسّت بالدم. كانت تنزف حتّى الموت.

الموت... كانت لالي توشك على الموت. أدركت ذلك. ومن خلال الضوء الذي يخفت في ذهنها، شعرت بالموت. أحدهم قتلها... الرجل الذي أخذ غرفتها قد أخذ حياتها.

الغرفة. غرفتها، أرادت أن تموت فيها. أرادت أن تكون هناك. لن يعود أبدًا، سيخاف. ربّما لن يعثر عليها أحد. ستكون تلك مقبرتها، وستُدفن في المنزل الوحيد الذي كان لها. ستنام هناك إلى الأبد، يؤنسها هدير قطاراتها. كان ذهنها يصفو... لكنّها أدركت أنّ الوقت المتاح لها ليس طويلًا، وعليها الوصول إلى غرفتها.

أحسّت لالي بالمفتاح في قبضتها اليمنى، وحاولت النهوض. كان شيء ما يعيقها... إنّها السكّين... لا تزال السكّين مغروزة فيها. لم تستطع الوصول إليها... فبدأت تزحف.

كان عليها أن تستدير، فقد كانت ترقد ووجهها إلى الجهة المقابلة لغرفتها. بذلت حتّى تدير جسدها جهدًا كبيرًا... كبيرًا جدًّا.

راحت تزحف ببطء، إنشًا بعد إنش حتّى أصبحت في اتّجاه غرفتها. كانت تبعد عشرين قدمًا عن السلّم على الأقلّ، وبعد ذلك، عليها صعود الدرجات. هل سيمكنها ذلك؟ هزّت لالي رأسها محاولة التخلّص من الظلمة. أحسّت بالدم يسيل من فمها، حاولت تنقية حلقها منه.

اليد اليمنى... واصلت التمسّك بالمفتاح... مدّت يدها اليسرى إلى الأمام... الركبة اليمنى، جرّتها إلى الأمام... فالركبة اليسرى... ثمّ اليد اليمنى... ستنجح. ستنجح بطريقة ما في صعود ذلك السلّم.

حافظت في ذهنها على رؤيا فتح الباب، وإغلاقه... والزحف إلى الداخل... وسحب نفسها إلى السرير... والاستلقاء هناك... وإغماض عينيها... والانتظار.

في غرفتها سيأتي الموت كصديق، صديق ذي يدين باردتين ورقيقتين...

43

فكّر ستيف في أنّهما ماتا. حين يكون الشخص محكومًا عليه بالموت، فهو قد مات. بعد ظهر هذا اليوم، ستطالب والدة رونالد طومبسون بجثّة ابنها. بعد ظهر هذا اليوم، سيذهب أشخاص من دار شريدان لتجهيز المآتم إلى موقع انفجار وينتظرون جثّتَي شارون ونيل. في مكان ما في ولاية نيويورك، سيجري بحث بين الركام...

وقف بجانب النافذة، وشاهد عددًا من المراسلين وكاميرات التلفزة في الخارج. قال في نفسه: «الخبر ينتشر بسرعة. وكواسر وسائل الإعلام يحبّون القصّة الجيّدة.»

قبل قليل، اتّصل به برادلي وسأله:

– ستيف، ماذا بوسعي أن أفعل؟

– لا شيء. لا شيء. فقط أبلِغني إذا شاهدت بالصدفة «فولكسفاغن»، لونها أخضر غامق، وفيها رجل عمره نحو ثمانية وثلاثون عامًا. لعلّه قد غيّر لوحتَي التسجيل، لذا فهذا غير مفيد. أمامنا ساعة وعشرون دقيقة...

سأل هيو:

– ماذا فعلت بشأن تهديد القنبلة؟

– أنـذرت كلّ المدن الكبرى في الولاية بضرورة الاستعداد لحدوث حالة طارئة. لا شيء أكثر يمكننا القيام به... انفجار في ولاية نيويورك... ولاية نيويورك... هل تعرف كم ألف ميل مربّع مساحتها؟ سيّد بيترسون، لا يزال الاحتمال قائمًا بأن تكون هذه خدعة. أعني التهديد بوقوع انفجار... والاتّصال بدار الحانوتيّ.

فكّر ستيف: «لا... لا... فات الأوان... أتى بيل ودورا لوفتس للإقامة هنا بسبب موت نينا. وهما يقيمان هنا ليسديا إليه خدمة، للاهتمام بنيل من أجله. لكنّ ثرثرة بيل بخصوصياته ربّما كانت السبب في خطف نيل وشارون... وموتهما. دائرة الموت... لا، رجاءً يا ربّ، دعهما يعيشان، ساعدنا على العثور عليهما...»

ابتعد عن النافذة وهو يشعر بالاضطراب. كان هانك لامونت قد وصل قبل قليل ومعه بيل. استمع العميلان الفدراليّان إلى قصّته مجدّدًا، قصّته التي حفظها ستيف عن ظهر قلب...

– سيّد لوفتس، لقد كلّمتَ ذلك الرجل آرتي كثيرًا. نرجو منك أن تتذكّر: هل ذكر يومًا أنّه يرغب في الذهاب إلى مكان معيّن... هل تحدّث بإسهاب يومًا عن مكان معيّن... مثل المكسيك... أو ألاسكا؟

هزّ بيل رأسه. هذا كلّه كان كثيرًا بالنسبة إليه. كان يعلم أنّهم يشتبهون بكون آرتي خطف نيل وشارون. آرتي، الرجل الهادئ والميكانيكيّ الجيّد. قبل أسابيع قليلة فقط، ذهب إليه بالسيّارة ورافقه نيل. كان بوسعه أن يتذكّر ذلك اليوم بوضوح لأنّ نيل أصيب بأزمة ربو في تلك الليلة. حاول يائسًا أن يتذكّر ما تحدّث به آرتي... لكن يبدو أنّه لم يقل الكثير... بل بدا فقط شديد الاهتمام بروايات بيل.

كان هانك ساخطًا على نفسه، فقد جلس في حانة ميل تافرن وقدّم الجعة لذلك الرجل. حتّى أنّه نصح رفاقه في المكتب بألاّ يتكلّفوا

عناء التدقيق في أمره. يجب على لوفتس أن يتذكّر شيئًا ما. كما قال هيوغي، كلّ ما يفعله رجل ما يترك أثرًا... تذكّر ذلك الرجل يخرج من الحانة، وهو، أي هانك، لم يشكّ في شيء. قطّب هانك جبينه. لقد خلّف آرتي ثغرة ما حين ودّعهم، ما كانت تلك الثغرة...؟

كان بيل يقول:

– ... إنّه رجل لطيف وهادئ، كما أقول لكم... لا يهتمّ إلّا بشؤونه الخاصّة... لعلّه كان يطرح أسئلة... فقد بدا ودودًا ومهتمًّا مثل...

قاطعه هانك قائلًا: «مهلًا.» فالتفت هيو بهدوء إلى العميل الذي يصغره سنًّا، وسأله:

– ما الأمر؟ لديك شيء ما...

– ربّما. حين انصرف آرتي مع الآخرين... وقالوا إنّهم لن يحظوا بالفرصة لرؤية بيل قبل انصرافه إلى رود آيلاند...

– نعم. ومن غير المعقول أن يتّجه آرتي إلى رود آيلاند...

– هذا ما أعنيه. قال شيئًا آخر... وقد علّق عليه موظّف شركة الإعلانات ألن كروغر... لقد ذكر... الصحراء المرسومة. هذا ما قاله!

سأل هيو:

– ماذا؟

– حين قالوا إنّ من المؤسف ألاّ يكون بيل هناك لتوديعه، قال آرتي إنّ رود آيلاند ليست أريزونا. ألعلّها كانت زلّة لسان؟

– لن نلبث أن نعرف هذا.

قال ذلك وهرع إلى الهاتف. في هذا الوقت، ردخل روجر ووضع يده على كتف ستيف وأصغى معه إلى هيو يصدر الأوامر بصوت حازم

عبر الهاتف، موجّهًا القوّة الهائلة لمكتب التحقيق الفدراليّ لتعقّب الدليل الجديد.

في النهاية، وضع هيو السمّاعة من يده وقال:

– إذا كان يتّجه إلى أريزونا، سنقبض عليه يا سيّد بيترسون. أعدك بهذا.

– متى؟

كان لوجه روجر لون الصباح الشاحب. قال لستيف:

– ستيف، اخرج من هنا. غلندا تريدك أن تأتي إلى منزلنا.

هزّ ستيف رأسه بالرفض، لكنّ هيو قال فجأة:

– سنذهب نحن الاثنين. هانك، تولَّ المسؤوليّة هنا.

وافق ستيف بعد تفكير، وبدأ يسير نحو الباب الأماميّ، فقال له هيو:

– لا، لنخرج عبر الباب الخلفيّ وعبر الغابة، فتتجنّب الصحفيّين.

ظهر طيف ابتسامة على شفتَي ستيف، الذي قال:

– هذا ما أسعى إليه، لا أنوي أن أتجنّبهم.

فتح الباب، فاندفع المراسلون المتحلّقون وتجاوزوا العملاء المتمركزين على الممرّ وهرعوا نحوه. انتصبت الميكروفونات أمام وجهه، ووُجّهت عدسات الكاميرات لتلتقط صورة لوجهه المرهق.

– سيّد بيترسون، هل لديك ما تضيفه؟

– لا.

– أتظنّ أن الخاطف سينفّذ تهديده بإعدام ابنك وشارون مارتن؟

– أسبابنا تدفعنا إلى الظنّ بأنّه قادر على ارتكاب هذا العنف.

– أتظنّها أكثر من مصادفة أن يقع الانفجار الذي يهدّد به في الدقيقة عينها لإعدام رونالد طومبسون؟

– لا أظنّها مصادفة. أظنّ الخاطف فوكسي متورّطًا جدًّا في موت زوجتي. حاولت إيصال هذا الخبر إلى الحاكمة التي رفضت محادثتي. وأنا الآن أناشدها علنًا أن تؤجّل تنفيذ حكم الإعدام بطومبسون. قد يكون ذلك الفتى بريئًا... وأظنّه كذلك.

– سيّد بيترسون، هل تغيّر موقفك حيال حكم الإعدام بسبب قلقك الكبير على ابنك وعلى الآنسة مارتن؟ حين يُعتقَل هذا الخاطف، هل تودّ أن ينفَّذ به حكم الإعدام؟

أبعد ستيف الميكروفونات عن وجهه، وقال:

– أريد الإجابة عن أسئلتكم، أرجو منكم منحي الفرصة لذلك.

صمت الصحفيّون، ونظر ستيف إلى الكاميرا وقال:

– نعم، لقد غيّرت رأيي. أقول هذا مدركًا أنّ من المستبعد جدًّا أن يُعثر على ابني وشارون حيّين. لكن، حتّى لو تمّ اعتقال خاطفهما بعد فوات الأوان على إنقاذهما، فقد تعلّمتُ أمرًا في اليومين المنصرمين. تعلّمتُ أنّ أحدًا لا يحقّ له أن يقرّر ساعة موت إنسان آخر مثله. أؤمن بأنّ هذه القوّة هي فقط بين يدي الله القدير...

وأضاف بصوت متهدّج:

– أسألكم فقط أن تصلّوا لكي ينجو نيل وشارون وورونالد هذا الصباح...

انهمرت الدموع على خدّيه، وقال: «دعوني أمرّ» فتفرّق الصحفيّون بصمت. وجرى روجر وهيو خلفه فيما اجتاز الشارع مسرعًا. كانت غلندا تراقبهم عند الباب، ففتحته لهم، وعانقت ستيف وقالت له بهدوء:

– إبكِ بهدوء يا عزيزي. إبكِ.

أجهش بالبكاء وقال:

– لا يمكنني تركهما. لا يمكنني أن أخسرهما...

تركته يبكي، وعانقته فيما كان كتفاه العريضان يتموّجان مع الشهقات. فكّرت في نفسها بألم: «لو أنّني تذكّرتُ قبل الآن... ربّاه! تأخّرت في مساعدته.» وشعرت بانقباضات جسده وهو يحاول أن يخنق بكاءه. قال لها:

– آسف يا غلندا... يكفيك ما بك... أنت لست بخير.

– أنا بخير. ستيف، سواء أأعجبك الأمر أم لا، ستتناول فنجان قهوة وبعض الخبز المحمّص. أنت لم تأكل أو تنم منذ يومين.

مضيا متجهّمَي الوجه إلى غرفة الطعام.

قال هيو بحذر:

– سيّد بيترسون، تذكّر أنّ صور شارون ونيل ستظهر في أعداد خاصّة من جرائد الصباح، وتُعرض على كلّ محطّات التلفزة. لعلّ أحدًا رآهما أو رأى شيئًا...

سأله ستيف بمرارة:

– أتظنّ أنّ خاطفهما سيستعرضهما؟

– لعلّ أحدًا رأى نشاطًا غير مألوف، أو سمع أحد تلك الاتّصالات التي أجريت، أو سمع أشخاصًا يتحدّثون في حانة...

صبّت ماريان الماء في إبريق الشاي. كان الباب بين المطبخ وغرفة الطعام مفتوحًا، فتناهى إليها الحديث. فكّرت في نفسها: «مسكين، مسكين السيّد بيترسون. لا عجب في أنّه كان فظًّا حين كلّمته. كان اختطاف نيل يخنقه، وما زاده حديثها عنه إلّا استياءً. هذا يدلّ على أنّه يجب عدم الحكم على الأشخاص أبدًا، فلا أحد يعلم أيّ حزن بداخلهم.»

فكّرت: «ربّما إذا شرب بعض الشاي.» وحملت الإبريق إلى غرفة الطعام. كان ستيف يدفن وجهه بيديه. وقالت له برفق:

– سيّد بيترسون، دعني أعدّ لك فنجان شاي ساخنًا ولذيذًا.

حملت فنجانه، وبيدها الأخرى بدأت تصبّ له الشاي. أنزل ستيف يده ببطء عن وجهه. وما هي إلّا ثانية حتى طار إبريق الشاي فوق المائدة، ليسقط ماؤه في قصعة السكّر ويجري فوق شرشف المائدة والبخار الساخن الأسمر يتصاعد منه.

قفز كلٌّ من غلندا وروجر وهيو واقفين، ونظروا مصدومين إلى ستيف يقبض على ذراعي ماريان التي نال منها الرعب، ويصيح بها:

– من أين أتيت بهذا الخاتم؟! من أين أتيت بهذا الخاتم؟!

44

في سجن سومرز التابع للولاية، قبّلت كايت طومبسون ابنها قبلة الوداع. وأخذت تنظر بعينين لا تريان إلى رأسه ذي البقعة المحلوقة كرؤوس الرهبان... وإلى الشقوق عند جانبَي سرواله. جفّت دموع عينيها حين شعرت بذراعيه القويّتين تعانقانها، وشدّت وجهه إلى الأسفل وقالت له:

– كن شجاعًا يا عزيزي.

– أجل، قال بوب إنّه سيعتني بك يا أمّي.

تركته كايت، لكنّ بوب قال إنّه سيبقى حتّى النهاية. عرفت أنّ الأمر سيكون أسهل إذا ما رحلت الآن... أسهل بالنسبة إليه. خرجت من السجن وسارت على الطريق الذي تعصف فيه الريح الباردة، متّجهة نحو البلدة. مرّت بها سيّارة شرطة، وقال لها السائق:

– دعيني أوصلك يا سيّدتي.

– شكرًا.

دخلت إلى السيّارة بوقار، وسألها الشرطيّ:

– هل تقيمين في النزل، سيّدة طومبسون؟

– لا، قُدني إلى كنيسة سانت برنارد من فضلك.

كانت قداديس الصباح قد انتهت، والكنيسة خالية. ركعت أمام تمثال العذراء مريم، وصلّت لها قائلة:

– كوني معه حتّى النهاية... وأزيلي المرارة من قلبي، أنت يا مَن رأيتِ ابنك البريء يموت، ساعديني إذا كان عليّ أن أراه يموت...

45

حاولت ماريان المرتعدة أن تتكلّم، لكنّ جفاف فمها والعقدة التي سدّت حلقها حالا دون ذلك. كان لسانها ثقيلًا جدًّا، وأحرق الشاي يدها، وآلمها إصبعها الذي انتزع منه السيّد بيترسون الخاتم بالقوّة.

كانوا كلّهم ينظرون إليها وكأنّهم يكرهونها. اشتدّت قبضة السيّد بيترسون على معصمها، وصاح بها من جديد:

– من أين أتيت بهذا الخاتم؟

أجابت بصوت مرتعش ومتكسّر:

– لقد... لقد... وجدتُه.

دفع هيو ستيف بعيدًا عن ماريان وصاح بها بصوت يتقطّر احتقارًا:

– وجدتِه! وجدتِه!

– نعم

– أين؟

– في سيّارتي.

سُمع صوت نخير هيو الذي نظر في عينَي ستيف وسأله:

– هل أنت متأكّد من أنّه الخاتم الذي قدّمتَه إلى شارون مارتن؟

– بالطبع. اشتريتُه في قرية في المكسيك. إنّه فريد من نوعه. انظر! تحسّسه تجد ثلمًا في جهته اليسرى.

ورمى بالخاتم إلى هيو، الذي تحسّسه بيده. ثمّ قست تعابيره وقال للمدبّرة:

– أين معطفك يا سيّدة فوغلر؟ ستأتين إلى المركز لاستجوابك.

ثم تلا عليها بسرعة حقوقها:

– لستِ مرغمة على الإجابة عن أيّة أسئلة. كلّ ما تقولينه قد يُستخدَم ضدّك. لك الحقّ في الاتّصال بمحامٍ، هيّا بنا.

صاح به ستيف:

– اللعنة! لا تقل لها إنّها غير مرغمة على الإجابة عن أيّة أسئلة! هل جننتَ؟ يجب أن تجيب عن الأسئلة!

آنذاك كان وجه غلندا جامدًا كالحجر، وحدّقت إلى ماريان باشمئزاز وغضب، ثمّ قالت لها متّهمة:

– تكلّمتِ عن آرتي هذا الصباح، وذكرتِ أنّه أصلح سيّارتك. كيف أمكنك ذلك؟ كيف تستطيع امرأة لها أولاد أن تشارك في أمر كهذا؟

استدار هيو بسرعة وسألها:

– هل تكلّمت عن آرتي؟

– نعم.

سألها ستيف:

– أين هو؟ أين يحتجزهما؟ ربّاه! في الدقيقة الأولى للقائي إيّاك، حدّثتِني عن نيل.

أمسك روجر بذراعه وقال له:

– ستيف، ستيف، اهدأ.

علمت ماريان أنّها ستغيب عن الوعي. احتفظت بالخاتم، ولم يكن لها. وهم الآن يظنّونها على صلة بعمليّة الخطف. كيف تستطيع جعلهم يصدّقونها؟ غشت عينيها أمواج من الدوار. أرادت أن تطلب الاّتصال بجيم. يجب أن يتّصلوا بجيم، سيساعدها. سيأتي إلى هنا ويخبرهم عن سرقة السيّارة وأنّها وجدت الخاتم بداخلها. هو سيجعلهم يصدّقونها. بدأت الغرفة تدور بها، فتمسّكت بالطاولة.

قفز ستيف إلى الأمام ليمسك بها قبل أن تقع. نظرت بعينيها الضبابيّتين إلى عينيه، ورأت فيهما الألم الشديد. هدّأت شفقتها عليه من روعها. أمسكت به تلتمس منه مساعدتها، وبذلت جهدًا لطرد الدوار من رأسها. بات بإمكانها أن تتكلّم. أدركت أنّ عليها أن تتكلّم، فقالت:

– سيّد بيترسون، أنا أعجز من أن ألحق الأذى بإنسان. أريد مساعدتك. أنا حقًّا وجدتُ الخاتم، في سيّارتنا، التي سُرقت مساء الاثنين بعدما أصلحها لنا آرتي.

نظر ستيف في وجهها الخائف والصادق، وفي عينيها الممتلئتين حقيقة، وراح يستوعب ما أخبرته إيّاه، وقال:

– سُرقت؟ هل سُرقت سيّارتكم مساء الاثنين؟

كان يفكّر في نفسه: «ربّاه، هل من احتمال للعثور عليهم؟»

قال هيو بصوت حازم: «دعني أتولّى هذا الأمر، سيّد بيترسون.»

ثمّ سحب كرسيًّا وساعد ماريان على الجلوس فيه، وسألها:

– سيّدة فوغلر، إذا كنت تقولين الحقيقة، فعليك أن تساعدينا. ما مدى معرفتك بأرتي؟

– لا أعرفه... جيّدًا. إنّه ميكانيكيّ جيّد. أخذت السيّارة منه يوم الأحد. ومساء الاثنين، ذهبت لمشاهدة فيلم عند الرابعة عصرًا

في ساحة كارلي. أوقفت السيّارة في موقف السينما، وحين خرجت قبيل السابعة والنصف لم أجدها.

قال لها هيو:

– أي أنّه عرف حالة السيّارة. هل كان على علم أنّك تذهبين لمشاهدة ذلك الفيلم؟

قطّبت ماريا جبينها، فقد كان التفكير صعبًا جدًّا، وأجابت قائلة:

– لعلّه علم ذلك... نعم، تحدّثنا عن ذلك في مرآبه. ثمّ ملأ السيّارة بالوقود. قال إنّ الوقود هديّة منه لأنّ كلفة تصليحها كانت مرتفعة جدًّا.

همست غلندا:

– أتذكّر أنّني قلت إنّها كانت سيّارة ضخمة الحجم وغامقة اللون.

قال هيو:

– سيّدة فوغلر، هذا في غاية الأهمّية. أين استُعيدت سيّارتك؟

– في مدينة نيويورك، قطرتها الشرطة. كانت مركونة في مكان غير قانونيّ.

– أين؟ هل تعرفين أين وجدوها؟

حاولت ماريان التركيز وقالت:

– بقرب أحد الفنادق.

– سيّدة فوغلر، حاولي أن تتذكّري. أيّ فندق؟ يمكنك أن توفّري علينا كثيرًا من الوقت.

هزّت ماريان رأسها وقالت:

– لا أستطيع.

– هل يستطيع زوجك أن يتذكّر؟

– نعم، لكنّه في عمل خارج المصنع اليوم. عليكم الاتّصال بمصنعه لتروا إن كان ممكنًا الاتّصال به.

– ما رقم سيّارتك، سيّدة فوغلر؟

أعطته ماريان رقم السيّارة. أيّ فندق؟ ذكر جيم شيئًا عن الشارع الذي عُثر على السيّارة فيه. لماذا؟ الوصول إلى جيم سيستغرق منهم وقتًا طويلًا... وكذلك التدقيق في سجلّات القطر... كان عليها أن تتذكّر. كان أمرًا يتعلّق بسيّارة قديمة في شارع إيزي. هذا ما قاله جيم. لا، قال إنّ المربّع دُعي باسم عائلة عاشت دائمًا في شارع إيزي. وصاحت:

– جادّة فاندربيلت! هذا هو اسم الشارع. أخبرني زوجي أنّ سيّارتنا كانت متوقّفة في جادّة فاندربيلت أمام فندق ما... إنّه... فندق بيلتمور.

أمسك هيو بالهاتف واتّصل بمركز مكتب التحقيق الفدراليّ في نيويورك. أصدر بسرعة عدّة أوامر، طالبًا إفادته بالأجوبة فورًا، ثمّ أنهى المكالمة، وقال:

– سيهرع عميل حالًا إلى بيلتمور حاملًا صورة قديمة لدينا لتاغرت. لنأمل أنّ الصورة لا تزال تشبهه، ولنأمل أن يخبرونا شيئًا ما.

بدأ آنذاك انتظار عصيب، دام دقائق، كان خلاله ستيف يتضرّع: «يا ربّ، رجاءً...»

رنّ جرس الهاتف، فانتزع هيو السمّاعة وقال: «ماذا لديكم؟» أصغى إلى محدّثه ثمّ صاح: «يا إلهي! سأذهب بالمروحيّة». ألقى سمّاعة الهاتف ونظر إلى ستيف وقال:

– تعرّف موظّف الاستقبال إلى وجه تاغرت، وقال إنّ الرجل يدعى أ. ر. رونار وقد حجز غرفة في الفندق مساء الأحد، وركن سيّارة «بيتل» خضراء غامقة في موقف الفندق، وقد غادره صباح اليوم.

صاحت غلندا: «رونار»، أي «ثعلب» بالفرنسيّة.

قال هيو: «تمامًا.»

أمسك ستيف بالطاولة وقال: «هل كان...؟»

– كان وحيدًا، لكنّ موظّف الفندق يتذكّر أنّه كان يغادر الفندق ويعود إليه في ساعات غريبة. وأحيانًا يغيب وقتًا قصيرًا فقط، ما يعني أنّه يحتجز نيل وشارون في مكان ما في وسط المدينة. تذكّرْ أنّ جيم أوينز سمع الكثير من أصوات القطارات في خلفيّة الكاسيت.

قال ستيف بصوت فيه الكثير من المرارة:

– لا وقت لدينا، لا وقت. بمَ ستفيدنا معرفة ما عرفناه؟

– سأذهب بالمروحيّة إلى مبنى «بان آم»، سيسمحون لنا بالهبوط الطارئ هناك. إذا استطعنا القبض على تاغرت في الوقت المناسب، سنرغمه على الكلام. وإذا لم نفعل، يظلّ بوسعنا تركيز أبحاثنا في محيط فندق بالتيمور. أتريد القدوم؟

نظرت غلندا إلى الساعة، وقالت بصوت خال من أيّ نبرة:

– إنّها العاشرة والنصف.

46

جلس الأب كينيدي إلى مكتبه في بيت الكاهن يصغي إلى نشرات الأخبار. هزّ رأسه مفكّرًا في الوجه المتألّم لستيف بيترسون، حين استلم الطرد من بيت الكاهن مساء أمس. لا عجب في أنّه كان في غاية الاستياء. وكان يفكّر: هل يعثرون على الطفل والمرأة الشابّة في الوقت المناسب؟ أين سيقع ذلك الانفجار؟ كم شخصًا آخر سيُقتل؟

رنّ جرس الهاتف، فرفع السمّاعة متعبًا، وقال:

– الأب كينيدي.

– أشكر لك تسليم الطرد الذي تركته على مذبحك مساء أمس يا أبتِ. أنا فوكسي.

شعر الكاهن بانقباض في حلقه. قيل للصحافة فقط إنّ الكاسيت عُثر عليها في الكنيسة.

– ماذا؟

– دعك من الأسئلة. فقط اتّصل بستيف بيترسون وأعطِه تلميحًا آخر. أخبره أنّني قلت إنّ القنبلة ستنفجر في مركز نقل كبير في مدينة نيويورك. يمكنه أن يبحث هناك.

47

اجتاز فوكسي بهدوء قاعة الانتظار الخاصّة بالبوّابة 9 نحو الممرّ المقفل الذي يقود إلى الطائرة. كان شعور مسبق بالخطر دقيق كجهاز إنذار موقّت يثير أعصاب جسده كلّها. لم تهدأ نظراته المتنقّلة من مكان إلى مكان. لكنّ الركّاب الآخرين تجاهلوه، وهم منهمكون بحمل أمتعتهم وكتب الجيب أو حقائب العمل فيما يستعدّون في الوقت عينه لتقديم أذون ركوب الطائرة.

نظر إلى أذن الركوب الذي يحمله، والبارز بوضوح من ظرف التذكرة التي قدّمها عند المكتب. وفي يده الأخرى أمسك بكلّ قوّته الحقيبة القديمة.

سمع صوتًا! هذا هو ما يتوقّعه. صوت أقدام تجري. الشرطة! قفز فوق الحاجز المنخفض بين منطقة ركوب الطائرة والممرّ. كان رجلان يركضان بسرعة عبر الممرّ باتّجاهه. نظر حوله يائسًا ورأى باب طوارئ على مسافة نحو خمسين قدمًا، من المؤكّد أنّه يفضي إلى ساحة الطائرات في الخارج.

الحقيبة، لم يكن بوسعه الركض حاملًا الحقيبة. تردّد لحظة خاطفة ثمّ رماها إلى الخلف، فارتطمت بالأرض الحجريّة وانزلقت إنشات قليلة ثمّ انفتحت وتبعثر المال على أرض الممرّ.

صاح به صوت آمر: «توقّف أو نطلق النار!»

دفع فوكسي باب الطوارئ فانفتح، مطلقًا رنينًا صاخبًا. شدّه خلفه فأغلقه، واندفع عبر ساحة الطائرات. كانت الطائرة المتّجهة إلى فينكس في طريقه، فدار من حولها. رأى شاحنة مقفلة صغيرة للخدمة، محرّكها دائر، تقف بقرب جناح الطائرة الأيسر. ما كاد سائقها يهمّ بدخولها، حتّى أمسك به فوكسي من الخلف، ولكمه بعنف في عنقه. شخر الرجل وسقط أرضًا، فدفعه فوكسي جانبًا وقفز إلى الشاحنة المقفلة. ضغط بقدمه على دوّاسة الوقود، وراح يدور حول الطائرة في خطّ متعرّج. لن يجرؤوا على إطلاق النار وهذه الطائرة في طريقهم.

لن يلبث أفراد الشرطة أن يلحقوا به في سيّارة في أيّة ثانية، أو قد يرسلون سيّارات من مناطق أخرى لقطع الطريق عليه. في الخروج من هذه العربة مجازفة، وفي البقاء فيها مجازفة أكبر..كانت المدارج مسيّجة أو تنتهي عند اللسان البحريّ. إذا سار على أحدها، فسيقع في الفخ.

هم يبحثون عن رجل يقود شاحنة مقفلة للخدمة في ساحة الطائرات، ولن يبحثوا أبدًا عنه في المحطّة الطرفيّة. لمح شاحنة مقفلة مطابقة لتلك التي يقودها، متوقّفة بقرب عنبر، فسار نحوها وتوقّف بمحاذاتها. شاهد على المقعد بجانبه دفترًا بأوراق غير مثبتة، ألقى إليه نظرة سريعة وقرأ بنودًا تتعلّق بطلبات القطع، فأمسك به وغادر الشاحنة المقفلة. رأى بابًا كُتب عليه «للموظّفين المأذون لهم فقط»

يُفتح، فخفض رأسه وعينيه نحو الدفتر، ومدّ يده إلى الباب فحال دون انغلاقه. خرجت امرأة شابّة مفعمة بالحيويّة وترتدي لباسًا عائدًا لشركة طيران، ألقت نظرة على الدفتر في يده ثمّ تجاوزته مسرعة.

آنذاك باتت مشيته تتّسم بالحزم والسرعة. سار عبر الممرّ الصغير بين المكاتب الفرديّة، ولم يلبث أن بات في قاعة المغادرة. تجاوزه أفراد شرطة المطار وهم يركضون نحو ساحة الطائرات. سار عبر المحطّة الطرفيّة، وخرج إلى الرصيف وأوقف سيّارة أجرة.

سأله السائق: «إلى أين؟»

أجاب: «إلى محطّة غراند سنترال.» ثمّ أخرج من جيبه ورقة عشرين دولارًا، وهي آخر ما كان معه من مال، وسأل السائق:

– هل تستطيع الوصول إلى هناك بسرعة؟ ألغيت رحلتي بالطائرة، وعليّ الوصول إلى قطار للسفر قبل الحادية عشرة والنصف.

كان السائق فتى لا يتجاوز عامه الثاني والعشرين، فأجابه:

– سيّدي، ما تطلبه صعب، لكنّي سأصل. الطرقات جيّدة الآن وحركة السير خفيفة جدًا. تشبّث جيّدًا.

ضغط السائق دوّاسة الوقود، ومال فوكسي إلى الخلف. كان عرقه البارد يثير القشعريرة في جسده. لقد عرفوا الآن مَن هو. هَب أنّهم دقّقوا في سجلّه القديم، وأنّ أحدهم قال: «كان يعمل غاسل صحون في أويستر بار.» هب أنّهم فكّروا في الغرفة وذهبوا للبحث فيها.

كانت القنبلة موصولة بالساعة، أي أنّه إذا دخل أحد الغرفة، فسيتسنّى له الوقت لإخراج نيل وشارون، وربّما لتعطيل القنبلة. لا. قد تنفجر بمجرّد أن يلمسها أحد، فهي حسّاسة جدًّا.

ما كان عليه القيام بذلك الاتّصال الهاتفيّ الأخير. إنّها غلطة شارون. كان عليه أن يخنقها أمس. تذكّر الشعور بيديه تعصران عنقها، وتبحثان عن النبض الخفيف التردّد في حلقها. لم يلمس أيًّا من الأخريات بيديه، بل اكتفى بعقد مناديلهنّ أو أحزمتهنّ وشدّها على خناقهنَ. أمّا هي! كانت يداه تتحرّقان حاجةً إلى الإحاطة بذلك الحلق، وقد أفسدت الأمر عليه. خدعته متظاهرة بأنّها تحبّه. نظرت إليه نظرة مغرية، حتّى بالنسبة إلى عالم التلفزيون، وتظاهرت بأنّها ترغب فيه، وتريده أن يرحل بها. وفي الأمس طوّقته بذراعيها وحاولت أن تأخذ مسدّسه. لم تكن جيّدة، بل كانت أسوأهنّ، أسوأ كلّ النساء في منازل الرعاية، وأسوأ كلّ المشرفات في السجون، كلّهنّ كنّ يدفعنه بعيدًا عنهنّ حين يحاول تقبيلهنّ، وينهرنه قائلات: «توقّف! لا تفعل هذا!»

ما كان عليه أخذ شارون إلى الغرفة. لو أنّه اكتفى بأخذ الطفل، لما حدث هذا. كانت ستحمله على أخذها، أمّا الآن، فقد ضاع المال، وهويّته عُرفت، وسيكون عليه الاختباء في مكان ما. لكنّه سيقتلها أوّلًا. لعلّهم بدأوا الآن بإخلاء المحطّات الطرفيّة والمطارات. لعلّ الغرفة لن تخطر ببالهم بمثل هذه السرعة. القنبلة رحيمة جدًّا بالنسبة إليها. يجب أن ترفع نظرها وتراه وتشعر بيديه حول عنقها. يجب أن ينظر إليها من فوق ويراها تموت. يجب أن يكلّمها ويقول لها ما سيفعل، ويسمعها تتوسّله ألاّ يفعل، وبعد ذلك يخنقها. أغمض عينيه، وابتلع جفاف حلقه، وارتعاشة النشوة التي جعلت حبيبات عرقه تدغدغه.

كان فقط بحاجة إلى أربع أو خمس دقائق داخل المحطّة الطرفيّة. إذا دخل إلى الغرفة بحلول الحادية عشرة والدقيقة السابعة والعشرين فسيكون لديه الوقت الكافي. وسيستطيع الهرب عبر نفق بارك أفنيو.

برغم أنّه لا يحمل مسجّلته، فسيتذكّر صوت شارون. أراد أن يتذكّر، سيغفو وهو يتذكّر كيف كان صوتها وهي تموت. أمّا الطفل، فسيتركه هناك، لتتكفّل القنبلة به وبكلّ أفراد الشرطة السيّئين وكلّ الأشخاص الذين لم يغادروا المحطّة في الوقت المناسب. لم يعرفوا حتّى ما سيحلّ بهم.

كانوا يدخلون نفق وسط المدينة. هذا الفتى سائق بارع. كانت الساعة الحادية عشرة إلّا عشر دقائق. بعد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، سيكون في الشارع الثاني والأربعين، وسيُتاح له متّسع من الوقت. متّسع من الوقت لشارون. مكتبة الرمحي أحمد

توقّفت سيّارة الأجرة فجأة وسط النفق. أفاق فوكسي من أفكاره وسأل: ما الأمر؟

هزّ السائق كتفيه وأجاب:

– آسف يا سيّدي، ثمّة شاحنة معطّلة، يبدو أنّها فقدت بعضًا من حمولتها أيضًا. كلا المسربين مسدودان، لكن يجب ألاّ يستغرق الأمر كثيرًا. لا تقلق، سأوصلك قبل موعد قطارك.

مكث فوكسي ينتظر، وهو يتحرّق من نفاد صبره للوصول إلى شارون. كانت يداه تحترقان كثيرًا في تلك اللحظة وكأنّ النار تلفحهما. فكّر في الخروج واجتياز بقيّة المسافة سيرًا لكّنه صرف الفكرة، لأنّ أفراد شرطة النفق سيوقفونه بالتأكيد.

كانت الساعة الحادية عشرة والدقيقة السابعة عشرة حين خرجا من النفق وانعطفا شمالًا. بدأت حركة السير تشتدّ في الشارع الأربعين. صفر السائق وقال:

– يا لهذا الازدحام. سأختصر الطريق من الغرب، من هنا.

في الجادّة الثالثة، توقّفت السيّارة تمامًا، فالسيّارات الجامدة في مكانها سدّت التقاطعات، وانطلقت الأبواق بغضب. حاول مشاة يبدو عليهم التوتّر، وهم يحثّون الخطى شرقًا، أن يلتفّوا حول السيّارات. قال له السائق:

– سيّدي، لا بدّ من وجود خطب ما. يبدو أنّ بعض الطرقات قد أقفِلت. مهلًا، سأشغّل المذياع. ربّما كان تهديدًا آخر بانفجار قنبلة.

ربّما كانوا يخلون المحطة الطرفيّة. رمى فوكسي بورقة العشرين دولارًا إلى السائق، وفتح الباب وخرج إلى الشارع المليء بالسيّارات.

في الشارع الثاني والأربعين، رآهم. رجال الشرطة في كلّ مكان. كان الشارع الثاني والأربعون مقفلًا. راح يدفع الآخرين ليشقّ طريقه. قنبلة. قنبلة. توقّف. كان الناس يتحدّثون عن وجود قنبلة في المحطّة. هل عثروا على شارون والطفل؟ أطلقت الفكرة دفقًا من الغضب في داخله. دفع الناس بكتفيه جانبًا، وشقّ طريقه عبر الحشد.

– قف يا صديقي. لا يمكنك أن تتقدّم أكثر.

قال له ذلك شرطيّ شابّ ضخم الجثّة، وهو يربّت على كتفه فيما همّ باجتياز الجادّة الثالثة.

سأله فوكسي: «ما الأمر؟»

كان يجب أن يعرف.

– نرجو ألاّ يكون هناك شيء يا سيّدي. لكنّ تهديدًا بوجود قنبلة ورد عبر اتّصال هاتفيّ، وعلينا الاحتراز.

«عبر اتّصال هاتفيّ»، هذا يعني اتّصاله بالكاهن. «تهديد»، أي أنّهم لم يعثروا على القنبلة. كلّ شيء جيّد. شعر بالاغتباط يثب في جسده، وأحسّ بالدغدغة في أصابعه وكفّي يديه كما يحدث دائمًا

حين يتّجه إلى فتاة مدركًا أنّ شيئًا لن يقوى على ردعه. كان صوته لطيفًا وتعبيره ينمّ عن الاهتمام حين كلّم الشرطيّ قائلًا:

– أنا جرّاح، وأودّ الإنضمام إلى فريق الطوارئ الطبيّ تحسّبًا لاحتمال الإستعانة به.

– آسف يا دكتور، تفضّل بالمرور.

اجتاز فوكسي الشارع الثاني والأربعين مسرعًا، حريصًا على البقاء قريبًا من الأبنية. قد يكون الشرطي التالي الذي يوقفه من الذكاء بأن يطلب منه ما يثبت هويّته. كان الناس يتدفّقون خارجين من مباني المكاتب والمتاجر، يدفعهم إلحاح الأبواق التي تستخدمها الشرطة، وإنذاراتها:

– تحرّكوا بسرعة من دون أن تصابوا بالهلع. سيروا إلى الجادّة الثالثة أو الخامسة. تعاونكم قد ينقذ حياتكم.

كانت الساعة الحادية وعشرة والدقيقة السادسة والعشرين تمامًا، حين وصل فوكسي، وهو يشقّ طريقه وسط الحشود المرتبكة والخائفة، إلى المدخل الرئيسيّ للمحطّة الطرفيّة. كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها لتسريع عمليّة الإخلاء، وأحد رجال الشرطة المخضرمين يقف لحراسة الباب الأيسر البعيد. حاول فوكسي تجاوزه خلسة، لكنّ الشرطيّ قبض على ذراعه وقال له:

– لا يمكنك الدخول إلى هناك.

قال فوكسي بصوت جافّ:

– أنا مهندس تابع للمحطة الطرفيّة، وقد أرسِل بطلبي.

– تأخّرت كثيرًا، الباحثون سيخلون المكان بعد دقيقة.

كرّر فوكسي قائلًا:

– لقد أرسِل بطلبي.

– كما تشاء.

وترك الشرطيّ ذراعه.

كان كشك الهاتف الخالي خلف الأبواب مليئًا بجرائد الصباح. رأى فوكسي العنوان الأسود العريض: «عمليّة اختطاف». كان العنوان يتحدّث عنه، وعمّا فعله... الثعلب.

تجاوز كشك الهاتف مسرعًا، ونظر إلى الأسفل نحو المحطّة الطرفيّة. رأى أفراد شرطة متجهّمي الوجه يبحثون خلف طاولات البيع والأكشاك. ربّما كان هناك عشرات منهم في أنحاء المحطّة كلّها، لكنّه تفوّق عليهم ذكاءً! جميعًا.

تحلّقت مجموعة صغيرة من الأشخاص بقرب مكتب الاستعلامات. أطولهم، وهو رجل عريض الكتفين، ذو شعر رمليّ اللون، ويداه في جيبيه، كان يهزّ رأسه. ستيف بيترسون! لقد كان ستيف بيترسون! شهق فوكسي، وهرع إلى الطابق الرئيسيّ، متّجهًا بسرعة البرق إلى السلّم المؤدّي إلى الطابق الأسفل.

كان بحاجة إلى دقيقة واحدة فقط. راحت أصابعه تنتفض وتحترق. فحاول أن يثنيها ويبسطها، فيما أخذ يندفع هابطًا الدرجات. وحدهما إبهاماه كانا متصلّبين وهو يعدو، لا يعترض سبيله أحد، عبر المحطّة الطرفيّة السفلى، حتى توارى على السلّم المؤدّي إلى منصّة ماونت فرنون، والغرفة خلفها.

48

بلغ هيو وستيف خبر اتّصال فوكسي فيما كانت المروحيّة تطير فوق جسر تريبورو. قال هيو عبر الهاتف بصوت جافّ:

– مركز نقل كبير... في مدينة نيويورك. ربّاه، هذا يتضمّن المطارين والمحطّتين الطرفيّتين، محطّة بن، ومحطّة غراند سنترال. هل بدأتم بإخلائها جميعًا؟

أصغى ستيف، وكتفاه رازحتان إلى الأمام، ويداه تنقبضان وتنبسطان بلا كلل. مطار كينيدي! مطار لاغارديا! مساحة المحطّة الطرفيّة في إدارة النقل تغطّي مربّعًا بكامله، ولعلّ المحطّة الطرفيّة الأخرى عند الجسر أكبر حجمًا. شارون... نيل... ربّاه، كان هذا أمرًا ميئوسًا منه... ليبنِ الثعلب وكره فوق منزلك...

أنهى هيو المكالمة، وحثّ الطيّار قائلًا:

– ألا يمكنك الطيران بسرعة أكبر؟

أجاب الطيّار:

– الريح تشتدّ بقوّة، سأحاول التحليق على علوّ منخفض.

تمتم هيو قائلًا:

– سرعة الريح، هذا ما نحتاج إليه إذا هبّ حريق حين تنفجر هذه القنبلة.

ثمَ نظر إلى ستيف وقال:

– لا جدوى من المزاح، الأمر سيّئ، علينا الافتراض بأنّه نفّذ تهديده بوضع تلك القنبلة...

قاطعه ستيف بصوت أجشّ قائلًا:

– وشارون ونيل بقربها. أين نبدأ بالبحث؟

أجاب هيو باقتضاب:

– نحن نقامر. سيتركّز البحث الأساسيّ في محطّة غراند سنترال. تذكّر أنّه ركن السيّارة في فاندربيلت ونزل في فندق بيلتمور. إنّه يعرف المحطّة الطرفيّة عن ظهر قلب. وجيم أوينز يقول إنّ أصوات القطارات التي سمعها في الكاسيت أقرب إلى قطارات الركّاب منها إلى قطّارات الأنفاق.

– ماذا عن الفتى طومبسون؟

– إذا لم نقبض على فوكسي وننتزع منه اعترافًا، فهو هالك.

عند الحادية عشرة وخمس دقائق، هبطت المروحيّة على سطح مبنى «بان أم». دفع هيو الباب ففتحه، وركض إليهما عميل نحيل الوجه فيما قفزا إلى الأرض. كان شاحب الوجه غاضبًا، وأفادهما، بشفتين مزمومتين جدًّا، بهروب فوكسي.

انفجر به هيو قائلًا:

– ماذا تعني بأنّه هرب؟ كيف حدث هذا؟ أنت متأكّد من أنه فوكسي؟

– أنا متأكّد تمامًا، فقد ألقى الفدية. إنّهم يبحثون عنه في ساحة الطائرات والمحطّة الطرفيّة في هذه الأثناء، لكنّ المطار بكامله قد تمّ إخلاؤه، لذا فالفوضى عارمة هناك.

أجاب هيو بقسوة:

– الفدية لا تطلعنا على حيث وضع القنبلة ولا يمكنها مساعدة الفتى طومبسون. علينا العثور على فوكسي وإرغامه على الكلام!

«هرب فوكسي.» استوعب ستيف الكلمات، وهو غير مصدّق إلى حدّ الخدر. وراح يفكّر: شارون. نيل. «ستيف، لقد أخطأتُ، أرجو أن تسامحني... أمّي ما كانت لتريدني أن أكون هنا.» هل كانت تلك الكاسيت الغريبة آخر اتّصال له بهما؟ الكاسيت. صوت نينا...

أمسك بذراع هيو، وقال له:

– الكاسيت التي أرسلها... لا بدّ من أنّه سجّل فوقها صوت نينا. قلت إنّه أخلى مرآبه من كلّ شيء. هل كانت لديه أمتعة؟ لعلّه كان يحمل حقيبة، أو شيئًا ما معه. لعلّه لا يزال يحتفظ بالكاسيت الأخرى وعليها صوت نينا... لعلّ لديه شيئًا يدلّنا إلى مكان نيل وشارون.

استدار هيو نحو العميل الآخر وسأله:

– هل وجدتم أمتعة؟

– كان إيصالا حقائب مشبوكين ببطاقة السفر التي سقطت منه. لكنّ الطائرة أقلعت منذ نحو خمس عشرة دقيقة، ولم يفكّر أحد في إيقافها. سنسترجع تينك الحقيبتين في فينكس.

صاح هيو:

– هذا غير كافٍ. ربّاه. هذا غير كافٍ. أرغِموا تلك الطائرة على العودة، وليكن كلّ حمّالي الحقائب في لاغارديا مستعدّين لتفريغها.

بلّغوا برج المراقبة بضرورة إخلاء مدرج لها. لا تدعوا أيّ أحمق يعترض طريقكم. أين أجد هاتفًا؟

– في الداخل.

أخذ هيو دفتره فيما بدأ يركض. وبسرعة طلب رقم سجن سومرز، وخاطب آمر السجن:

– ما زلنا نحاول العثور على دليل لإثبات براءة طومبسون. أبقِ شخصًا مستعدًّا للإجابة على الهاتف حتّى عُشر الثانية الأخير.

اتّصل بمكتب الحاكمة، وخاطب سكرتيرتها الخاصّة قائلًا:

– احرصي على أن تبقى الحاكمة جاهزة للردّ، وعلى إبقاء خطّ هاتفيّ مفتوحًا مع رجالنا في لاغارديا وخطّ آخر مع السجن، وإلّا دخلت ولاية كونكتيكت التاريخ على أنّها الولاية التي أعدمت فتى بريئًا.

ألقى الهاتف من يده وقال:

– هيّا بنا.

فكّر ستيف فيما كان المصعد يندفع بهم بسرعة نزولًا: «تسع عشرة دقيقة. تسع عشرة دقيقة.» كانت ردهة مبنى بان أم تعجّ بالأشخاص الذين تدفّقوا من المحطّة الطرفيّة، وعلى كلّ الشفاه عبارة واحدة: «تهديد بوجود قنبلة... تهديد بوجود قنبلة.»

شقّ ستيف وهيو طريقهما عبر الأجساد المتدفّقة كالأمواج. كيف لأحد أن يعرف أين يبحث؟ شعر ستيف بالألم يعتصره. لقد كان هنا بالأمس، جالسًا في أويستر بار في انتظار قطاره. هل كان نيل وشارون هنا طوال هذا الوقت، عاجزين؟ كان صوت ملحّ لا ينفكّ يكرّر عبر مكبّرات الصوت: «غادروا المباني في الحال. توجّهوا إلى أقرب مخرج. لا تستسلموا للهلع. لا تتجمّعوا عند المخارج. غادروا المنطقة... غادروا المنطقة...»

تحوّل كشك الاستعلامات في الطابق الأعلى من المحطّة الطرفيّة، بأضواء الطوارئ الحمراء فوقه والتي تومض منذرة بالخطر، إلى مكتب قيادة للمحقّقين. وأكبّ المهندسون على الخرائط والرسوم، يصدرون أوامر سريعة إلى فرق التفتيش.

قال أحد المشرفين لهيو:

– نركّز الآن على المنطقة الواقعة بين أرض هذا الطابق وسقف الطابق الأسفل. يمكن الوصول إلى تلك المنطقة من كلّ المنصّات وهي مخبأ جيّد. أجرينا تفتيشًا سريعًا على المنصّات، ونفتّش كلّ الخزائن... حتّى ولو عثرنا على القنبلة، نظنّ أنّ من المجازفة بمكان أن نحاول تفكيكها. أحضرت فرقة المتفجّرات كلّ أغطية القنابل التي استطاعت الوصول إليها، وقد توزّعتها فرق التفتيش. نستطيع الاعتماد على كون إحداها فعّالة بنسبة تسعين بالمئة في احتواء الانفجار.

مشّطت عينا ستيف المحطّة الطرفيّة. توقّف مكبّر الصوت عن الصداح، وهدأت المنطقة الشاسعة، وسيطر عليها صمت مكتوم، مثير للسخرية. بحثت عيناه عن الساعة فوق مكتب الاستعلامات. كان عقرباها يتحرّكان بلا توقّف... الحادية عشرة والدقيقة الثانية عشرة... الحادية عشرة والدقيقة السابعة عشرة... الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرون... أراد أن يوقف حركة ذينك العقربين. أراد أن يركض إلى كلّ منصّة، وكلّ قاعة انتظار، وكلّ حجرة. أراد أن يصيح باسميهما، شارون... نيل...

كان يدير رأسه ذات اليمين وذات اليسار بشكل محموم. كان عليه أن يفعل شيئًا ما، أن يبحث عنهما بنفسه. وقع نظره على رجل طويل نحيل أتى مسرعًا من مدخل الشارع الثاني والأربعين، ونزل

الدرجات مسرعًا وتوارى في السلّم الثاني المؤدّي إلى الطابق الأسفل. كان مألوفًا على نحو غامض... أربّما كان أحد العملاء؟ ماذا يمكنه أن يفعل الآن؟

عاد مكبّر الصوت إلى الصداح: «الساعة الحادية عشرة والدقيقة السابعة والعشرون. ليتوجّه جميع المفتّشين إلى أقرب مخرج. غادروا المحطّة الطرفيّة في الحال. أكرّر. غادروا المحطّة الطرفيّة في الحال.»

قبض ستيف على كتف هيو وأداره وصاح به:

– لا! لا!

– تعقّل يا سيّد بيترسون. إذا انفجرت تلك القنبلة، قد نُقتل كلّنا. حتّى لو كانت نيل وشارون هنا، فلا يمكننا مساعدتهما بهذه الطريقة.

قال ستيف:

– لن أرحل.

أمسك هيو بذراعه، فيما أمسك عميل آخر بذراعه الأخرى. قال هيو:

– تعقّل يا سيّد بيترسون. قد يكون هذا مجرّد احتراز.

حرّر ستيف نفسه من يدَي العميلين، وصاح:

– اتركاني! اتركاني!

49

لا جدوى. لا جدوى. تسمّرت عينا شارون على الساعة، وحاولت بجهد محموم أن تقطع بطرف المقبض المكسور الحبال التي تقيّد معصميها. كان من الصعب جدًّا أن تمسك المقبض بإحدى يديها، وأن تحاول دفع الحبال بالأخرى. أخفقت أكثر من مرّة في بلوغ الحبال، وجرح المعدن يدها. أحسّت بالدم الساخن والناعم والدبق يسيل على يديها ويقسو. تجاوزت حدود الألم. لكن ماذا لو أنّها قطعت وريدًا وغابت عن الوعي؟

كان الدم يزيد من ليونة الحبل، ويجعله أكثر مرونة، وكان المعدن يمسّ أطرافه من دون أن يقصّه. مضى عليها أكثر من ساعة وهي تحاول... كانت الساعة الحادية عشرة إلّا خمسًا وعشرين دقيقة.

الحادية عشرة إلّا ثلثًا.

الحادية عشرة إلّا عشرًا... الحادية عشرة إلّا خمسًا... الحادية عشرة وخمس دقائق...

واصلت المحاولة، وقد رطّب العرق وجهها، وجعل الدم يديها دبقتين، وفقدت الإحساس بالألم. شعرت بعينَي نيل تراقبانها. صلِّ يا نيل.

عند الحادية عشرة والدقيقة العاشرة، شعرت شارون بالحبل يضعف، ويتراخى. استجمعت آخر ما تملك من قوّة، وحرّرت يديها. لقد تحرّرت يداها، وتدلّت منها الحبال. رفعت يديها، هزّتهما، وحاولت أن تعيد الإحساس إليهما.

خمس عشرة دقيقة.

اتّكأت إلى مرفقها الأيسر، وسحبت نفسها نحو الأعلى. تأرجحت ما يكفي لكي تستند بظهرها إلى الجدار، ونجحت في أن تلوي جسدها لتصبح في وضعيّة جلوس. سقطت ساقاها عن جانب السرير فمزّق الألم الشديد كاحلها.

أربع عشرة دقيقة.

ارتجفت أصابعها وَهَنًا وهي تحاول إزالة الكمامة. كان الشاش معقودًا بشدّة، ولم تستطع فكّه. واصلت محاولاتها المحمومة حتّى نجحت في سحب الكمامة إلى الأسفل. ساعدتها شهقات الهواء العميقة التي تنشّقتها على تنقية ذهنها.

ثلاث عشرة دقيقة.

لم تستطع السير. حتّى لو استطاعت الزحف إلى القنبلة، فهي قد تحرّكها في أثناء محاولة شدّ نفسها إلى المغسلة للوصول إليها، أو قد تتسبّب بتفجيرها بمجرّد لمسها. تذكّرت حذر فوكسي الشديد وهو يلامس الأسلاك.

لم يكن من أمل لها. كان عليها أن تحاول تحرير نيل. إذا استطاعت تحريره، فقد يتمكّن من الخروج وتحذير الأشخاص. نزعت كمامته بقوّة.

– شارون.

– أعلم، سأحاول أن أفكّ وثاقك، لا حيلة لي إذا آلمتُك.

– لا بأس يا شارون.

آنـذاك سمعت صوتًا. كان صوت ارتطام مكتوم بالباب. هل عاد؟ هل غيّر رأيه؟ شدّت شارون نيل إليها، وحملقت بالباب. فُتح الباب، ونُقر مفتاح الضوء. شاهدت في الضوء الضبابيّ الشاحب ما يشبه ظهورًا لمخلوق يقترب منها متعثّرًا. كانت امرأة عجوزًا، والدم يتقطّر من فمها، لها عينان غائرتان وزائغتان. تقوقع نيل ملتصقًا بشارون فيما اقتربت المرأة منهما، وراح يحملق مرتاعًا إلى المرأة، وقد بدأت تهوي إلى الأمام وتتراخى ككيس من الملابس المغسولة يسقط لأنّ شيئًا لا يسنده.

هوت المرأة على جانبها، وحاولت الكلام:

– ... السكّين... ما زالت في ظهري... ساعديني... أرجو منك سحبها... إنّها تؤلمني... أريد أن أموت هنا...

كان رأس المرأة عند قدم شارون، وجسمها مطروح بشكل زاوية نافرة نحو البعيد. رأت شارون مقبض السكّين بين لوحي كتفيها، وظنّت أنّ بوسعها تحرير نيل بواسطة هذه السكّين... وضعت كلتا يديها المرتعشتين حول المقبض، وبدأت تسحبها. قاومت السكّين هنيهة ثمّ خرجت فجأة. كانت شارون تحمل السكّين الحادّة والقاتلة، والملطّخة بالدم. أنّت العجوز.

ما هي إلّا لحظة حتّى قطعت شارون وثاق نيل، وقالت له:

– نيل... اركض... اخرج من هنا... نادِ الناس وقل لهم إنّ انفجارًا سيقع... بسرعة... انزل عبر هذا السلّم... تجد منحدرًا كبيرًا... اركض نحوه... وعند منصّة القطار اصعد الدرج... سترى أشخاصًا هناك... سيأتي إليك أبوك... أسرع... غادر هذا المبنى... أخرج الناس منه...

أجاب نيل بصوت متوسّل:

– شارون، ماذا عنك؟

– نيل، فقط اذهب، اذهب.

ألقى نيل نظرة متوسّلة أخيرة إليها، ثم أطاعها. هرع خارجًا من الغرفة، فإلى منبسط السلّم، ثمّ هبط الدرجات. طلبت منه شارون نزول السلّم. بدا المكان هادئًا جدًّا ومخيفًا جدًّا. شعر بخوف شديد وتذكّر القنبلة. ربّما إذا عثر على أحدهم، فقد يساعد شارون. كان عليه أن يحمل أحدًا على مساعدة شارون.

بات نيل عند أسفل السلّم. في أيّ اتّجاه يجب أن يذهب؟ كانت الأنابيب كثيرة هنا. بحث عن المنحدر الذي ذكرته شارون له. يجب أن يكون هذا هو. مثل المنحدر الذي في المدرسة بين الصفّ والمسرح. أسرع نحوه، أراد أن يصرخ طالبًا النجدة، لكن كان عليه أن يسرع، أن يعثر على أحد ما. وصل إلى نهاية المنحدر. رأى أنّه في محطّة للقطارات، وشاهد السكك الحديديّة. قالت له شارون أن يصعد إلى الأعلى. ركض حول المنصّة حيث تنتهي السكك.

سمع صوتًا كصوت مدير المدرسة حين يتكلّم عبر مكبّر الصوت. كان الصوت يطلب إلى الجميع أن يغادروا. أين الرجل الذي كان يتكلّم؟ سمع صوت خطوات تنزل على درج. أحد ما كان قادمًا، قد يساعد شارون. شعر بارتياح شديد، وحاول الصراخ فعجز. كان الركض قد قطع أنفاسه. وآلمته ساقاه كثيرًا لصعوبة الركض. كان عليه أن يخبر الشخص القادم عن شارون.

رفع نيل نظره ورأى الوجه الذي طارده في أحلامه يندفع راكضًا نحوه. شاهد فوكسي نيل، وضاقت عيناه، والتوى فمه، ومدّ يديه...

قفز نيل جانبًا ومدّ قدمه، فاصطدمت ساق الرجل في اندفاعتها بخفّ الطفل. تعثّر الرجل وهوى باسطًا أطرافه فوق الدرجات الأخيرة الثلاث. هرب نيل من الذراعين الممتدّتين نحوه وجرى صعودًا على الدرجات. وجد نفسه في مكان كبير وخالٍ، لا أحد غيره فيه. رأى درجًا آخر هناك. ظنّ أنّ في الأعلى أشخاصًا. كان الرجل الشرّير يتّجه نحو شارون. كان الرجل الشرّير يتّجه نحو شارون.

أجهش نيل بالبكاء وصعد الدرج. حاول أن يصرخ «أبي، أبي، أبي». وصل إلى الدرجة الأخيرة. كان أفراد الشرطة يملأون المكان، وكانوا يركضون كلّهم مبتعدين عنه. بعضهم كانوا يدفعون رجلًا آخر.

كانوا يدفعون أباه! صاح نيل «أبي! أبي!»

مضى باندفاعة طاقة أخيرة يجتاز بهو المحطّة الطرفيّة. سمعه ستيف، واستدار، وركض إليه، وأمسك به...

قال له نيل باكيًا:

– أبي، الرجل الشرّير سيقتل شارون الآن... تمامًا كما قتل أمّي.

50

قاومت روزي بعناد محاولات إجلائها عن المحطّة. كانت لالي في سينغ سينغ، وكانت هي تعلم ذلك. وأفراد الشرطة في كلّ مكان، ومنهم عدد في مكتب الاستعلامات. شاهدت روزي هيو تايلور، وهو العميل اللطيف التابع لمكتب التحقيق الفدراليّ والذي دائمًا ما كان يكلّمها حين يأتي إلى المحطّة. ركضت إليه، وشدّت ذراعه. قالت له:

– سّيد تايلور... لالي...

ألقى إليها نظرة، وحرّر ذراعه منها، ثم أمرها:

– روزي، اخرجي من هنا.

سُمع صوت مكبّر للصوت يأمر الجميع بالخروج. لكنّ روزي بكت قائلة: «لا!»

أمسك بهيو تايلور الرجل الطويل الواقف بقربه، وأداره لينظر. ونظرت روزي إلى هيو وشرطيّ آخر يصارعانه.

– أبي! أبي!

هل تتخيّل أنّها تسمع شيئًا؟ دارت روزي لتنظر، فرأت طفلًا يسير مترنّحًا في الجهة المقابلة من المحطّة الطرفيّة. ثمّ تجاوزها

مكتبة الرمحي أحمد

الرجل الطويل الذي يصيح بالسيّد تايلور راكضًا نحو الطفل. سمعت الطفل يقول شيئًا عن رجل شرّير، فهرعت. فكّرت في أنّه ربّما رأى الرجل الذي كانت ولالي تراقبانه.

كان الطفل يبكي قائلًا:

– أبي، ساعِد شارون. إنّها مصابة، ومقيّدة، وهناك سيّدة عجوز مريضة...

سأله ستيف متوسّلًا:

– أين يا نيل؟ أين؟

زعقت روزي:

– سيّدة عجوز مريضة، هذه لالي. إنّها في غرفتها. أنت تعرفها يا سيّد تايلور... في سينغ سينغ... الغرفة القديمة لغسل الأطباق.

صاح هيو:

– هيّا!

ألقى ستيف بنيل إلى رجل شرطة، وأمره قائلًا: «أخرج ابني من هنا». ثمّ ركض خلف هيو، ولحق بهما رجلان يحملان بصعوبة غطاء معدنيًّا ثقيلًا.

وضع أحدهم ذراعه حول خصر روزي وجرّها نحو مخرج، قائلًا لها:

– ربّاه، لنخرج من هنا! القنبلة ستنفجر في أيّة دقيقة.

51

سمعت شارون خفق خفَّي نيل وهو يركض على الدرج. وَصَلّت إلى الله ليحفظه سالمًا وينجو. توّقفت أنّات العجوز، ثمّ عادت، لتتوقّف ثانية لفترة أطول. حين عاد الصوت مجدّدًا، كان أكثر انخفاضًا وخفوتًا، وكأنّه يتلاشى.

تناست شارون حالها وتذكّرت بوضوح ما قالته هذه المرأة عن رغبتها في الموت هنا. انحنت إليها ولامست شعرها الكثّ، وربّتت عليه برفق، ثمّ داعبت أصابعها جبينها المجعّد. أحسّت بجلد المرأة رطبًا وباردًا. انتابت لالي ارتعاشة عنيفة، ثمّ توقّفت أنّاتها.

أدركت شارون أنّ المرأة ماتت. وهي الآن ستموت. قالت بصوت مرتفع: «أحبّك يا ستيف، أحبّك يا ستيف.» ملأت صورته ذهنها. أمست حاجتها إليه ألمًا جسديًّا ملحًّا وحادًّا، وأكبر من الألم الشديد والمنتفض لساقها وكاحلها.

أغمضت عينيها، وصلّت: «اغفر لنا خطايانا كما نحن نغفر لمن أخطأ إلينا... بين يديك أستودع روحي...»

انفتحت عيناها فجأة. رأت فوكسي في الباب، تعلو وجهه ابتسامة عريضة. تقوّست أصابعه، ما عدا إبهاميه اللتين بقيتا مشدودتين، وسار نحوها.

52

اندفع هيو في طليعة الرجال راكضًا نحو منصّة ماونت فرنون، ثمّ داروا حول السكك الحديديّة، وعبروا المنحدر، إلى عمق أعماق المحطّة الطرفيّة. كان ستيف يركض مسرعًا بجانبه، فيما بذل حاملا الغطاء المعدنيّ جهدًا كبيرًا لئلاّ يتأخّرا عنهما.

حين بلغوا المنحدر سمعوا صراخًا: «لا... لا... لا... ستيف... ساعدني... ستيف!»

عشرون عامًا مضت على رشاقة ستيف في الملاعب الرياضيّة، لكنّه وفي تلك اللحظة شعر بالتعاظم الهائل لقوّته، والتدفّق الهائل للطاقة الذي دائمًا ما كان يستنفره في السباقات الرياضيّة. أثارت حاجته إلى الوصول إلى شارون في الوقت المناسب جنونه، فتجاوز كَسَهم طائر الرجال الآخرين.

«ستيييي...» كان صراخ شارون يخفت مخنوقًا. بلغ ستيف أسفل السّلم، فصعده قفزًا واندفع عبر الباب المفتوح.

استوعب ذهنه بسرعةٍ المشهد الكابوسيّ الملامح، والجثّة على الأرض، وشارون نصف الراقدة ونصف الجالسة، موثوقة الساقين،

وشعرها يتدلّى خلفها، تحاول النجاة من الرجل المنحني فوقها، ذي الأصابع الضخمة التي تضغط على عنقها.

رمى ستيف بنفسه على الرجل، ونطح برأسه ظهره المقوّس. قُذف جسد فوكسي إلى الأمام، وسقط كلاهما فوق شارون. تحطّم السرير العسكريّ المتزعزع تحت وزنهما، وتدحرجوا معًا أرضًا. بقيت يداه على عنق شارون، لكنّهما تراختا بفعل السقطة. نهض فوكسي مترنّحًا، ثمّ تقوقع، فيما حاول ستيف أن يثب واقفًا، فتعثّر بجثّة لالي. كانت أنفاس شارون شهيقًا متألّمًا ومختنقًا.

في هذه اللحظة دخل هيو الغرفة مسرعًا. ابتعد فوكسي الذي شعر بأنّه محاصر. وجدت يده باب المرحاض، ففتحه ودخله بسرعة وأغلقه. سمع الآخرون صوت الزلاّجة تدخل في حِقّها. صاح به هيو:

– اخرج من هنا أيّها الأحمق المجنون!

كان حاملا غطاء القنابل المعدنيّ الثقيل قد بلغا الغرفة، فوضعاه بكثير من الحذر فوق الحقيبة السوداء.

مضى ستيف إلى شارون. كانت عيناها مغمضتين ورأسها يتدلّى إلى الخلف حين حملها. ظهرت على حلقها آثار تقرّحات، لكنّها كانت حيّة. كانت حيّة. ضمّها إليه واتّجه إلى الباب، فوقعت عيناه على الصور. رأى صورة نينا، وعانق شارون بقوّة.

انحنى هيو فوق لالي، ثمّ قال: «لقد ماتت».

كان عقرب الساعة الكبير يقترب من الرقم 6.

صاح هيو: «اخرج من هنا!»

ثمّ خرجوا مسرعين عبر الدرج.

– النفق! اذهبوا إلى النفق!

ركضوا، متجاوزين المهاوي، ووصلوا إلى السكك الحديديّة، عبر الظلمة...

سمع فوكسي صوت خطوات الرجال تبتعد، وأدرك أنّهم رحلوا. أزال الزلاّجة، وفتح الباب. شاهد الغطاء المعدنيّ فوق الحقيبة، فبدأ يضحك بصوت عميق وهادر ومتقطّع. عرف أنّ الأوان فات بالنسبة إليه، لكنّه فات كذلك بالنسبة إليهم أيضًا. في النهاية كان الثعلب يفوز دائمًا. مدّ يده إلى الغطاء المعدنيّ، محاولًا إزالته عن الحقيبة، حين ومض برق ساطع، وسُمع هدير حطّم طبلتَي أذنيه، وقذف به إلى حتفه.

مكتبة الرمحي أحمد ٥١

53

الحادية عشرة والدقيقة الثانية والأربعون قبل الظهر.

دخل بوب كورنر مسرعًا إلى كنيسة سانت برنار، واندفع عبر الممشى وطوّق بذراعيه المرأة الجاثية. نظرت إليه بعينين خاليتين من الدموع، وسألته:

مكتبة الرمحي أحمد ١ ٥

– هل انتهى الأمر؟

– «هل انتهى الأمر؟» تعالي يا امرأة، وخذي ابنك إلى المنزل. إنّهم يملكون دليلًا قاطعًا على أنّ مرتكب الجريمة هو رجل آخر. لديهم كاسيت عليه صوته وهو يقتل الضحيّة، والحاكمة أمرت بإخراج رون من السجن حالًا.

كانت كايت طومبسون، والدة رونالد طومبسون، واثقة الإيمان بخير الله وبرحمته، لكنّها وفي تلك اللحظة، غابت عن الوعي.

وضع روجر بيري السمّاعة من يده، والتفت إلى غلندا وقال لها: «نجحوا، في اللحظة الأخيرة». فهمست الزوجة:

– شارون.. ونيل... كلاهما نَجَوا؟

– نعم، والفتى طومبسون، سيعود إلى منزله.

رفعت غلندا يدها إلى حلقها وقالت: «الحمد لله»، ثمّ رأت تعبير زوجها وقالت له:

– روجر، أنا بخير، أبعِد هذه الحبوب اللعينة وأعِدَّ لي شرابًا مسكرًا قويًّا من الطراز القديم!

طوّق هيو بذراعيه روزي التي سالت الدموع من عينيها بصمت، وقال لها:

– لالي أنقذت محطّتها، سنعدّ عريضة لوضع لوحة تذكاريّة لها. وأراهن على أنّ الحاكم كاري سيرفع الستارة عنها بنفسه. إنّه رجل لطيف.

مكتبة الرمحي أحمد ٥١
@ktabpdf

همست روزي:

– لوحة تذكاريّة للالي، ستحبّ ذلك.

رأت فوقها وجهًا. شعرت بأنّها ستموت ولن ترى ستيف أبدًا.

– لا... لا...

– لا بأس يا عزيزتي، لا بأس.

صوت ستيف. كانت ترى وجه ستيف. قال لها:

– انتهى كلّ شيء. نحن في طريقنا إلى المستشفى، وسيعالجون ساقك.

– نيل.

– أنا هنا يا شارون.

شعرت بيد رقيقة كالفراشة في يدها، وبشفتَي ستيف على خدّيها، وجبهتها، وشفتيها. سمعت صوت نيل في أذنها:

– شارون، كما قلت لي، لم أتوقّف عن التفكير في الهديّة التي وعدتِني بها. شارون...، ما هو بالضبط عدد قطارات ليونيل التي ستأتيني بها؟

@ktabpdf .. قناتنا على تيليجرام

مـــاري هيغينـــز كلارك — ملكة التشـويق وواحـدةٌ من أغـزر الكتّاب الأميركيّيـن إنتاجًا. أصدرَت حتّـى الآن 43 رواية من أكثر الكتب رواجًا، وبيع منهـا فـي الولايات المتّحـدة وحدها أكثرُ من 100 مليون نسـخة. تتّسـم كتاباتهـا، التـي اقتُبِسَـت للعديد مـن الأفـلام السـينمائيّة والتلفزيونيّة، بأسـلوبٍ مميّز يذكّر بكتابات أغاثا كريسـتي التي تتقن التشـويق من دون الانزلاق في الابتذال.

إنّها تتقن عملها... تلك الكاتبة اللامعة الذكاء تأتيك دائمًا بما هو غير متوقَّع — نيويورك تايمز

غريب بالمرصاد — يعرف رونالد طومبسـون تمامًا أنّه ليس هو مَن قتل نينا بيترسون، لكنّ كلّ مَن حوله مقتنع بالعكس. بعد يومين، سيُعدَم. إلّا أنّ الإعدام لن يشفي غليل ستيف، زوج الضحية، ولن يهدّئ روع نيل، ابنها الذي شـهد مصرعها. ربّما الزمن وحده يفعل، أو حتّى، قبل ذلك، انقلابٌ دراميٌّ ما ينـزع عن الحقائق صفتهـا المطلقة. فالبيانات، ولـو أنّها مدرجة في لوائح رسـميّة، قد تكون مضلّلة أحيانًـا، وقد يكون هناك في الكواليس أصابـع مخفيّة تتحكّم بمصائـر الأفراد وتتفنّن في سَـنّ الحقائق المزيّفة، بمهارة. تلك الأصابع المترصّدة في الظلال تسـتعيد نشـوة ما اقترفته من قتل، تمهيدًا لفضّ ما تبقّى لها من مسائل عالقة في منزل آل بيترسون.

كمـا العادة في روايات كلارك، إنّ الحقيقة ليسـت واحدة، والجميع متّهمون محتمَلـون. صفحة بعد أخرى، يلملم القـارئ نثرات المعلومات محـاولًا جمعهـا كمـا فـي لعبـة الليغـو، ليصـل فـي النهايـة إلـى خاتمة تنسف كلّ ما بُنِيَ.

صدرت عن نوفل عناوين أخـرى للكاتبة: كأنّك لا تراها، مطلوب فتاة تهوى الموسيقى تهوى الرقص، تذكّرني.

ISBN 978-9953-26-486-8

9 789953 264868

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان